

الكتائب القرآنية
(الجزء الأول)



المملكة المغربية

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الكتاتيب القرآنية الآليات - الأهداف - الآفاق

الجزء الأول

الواقع والآفاق

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية



الكتاب : الكتاتيب القرآنية الآليات - الأهداف - الأفاق

الجزء الأول : الواقع والأفاق

منشورات : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية

الحقوق © : جميع الحقوق محفوظة للوزارة

الطبع : دار أبي رقراق للطباعة والنشر - الرباط

الإيداع القانوني : 2009 Mo 1306

ردمك : 6- 5154 - 0 - 9954 - 987

الطبعة الأولى : 2009-1430

المحتويات

- ♦ كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
- الأستاذ أحمد التوفيق 9
- ♦ تقديم 11

الكتاتيب القرآنية: واقع وآفاق

- ♦ الكتاتيب القرآنية في المغرب بين الأحكام الفقهية والممارسة العملية والآفاق المنشودة
- الحسين بن أحمد مفراح 15
- ♦ الكتاتيب القرآنية بين عوامل النجاح وعوارض الإخفاق
- محمد جميل مبارك 39
- ♦ دور الكتاب القرآني في الحفاظ على القرآن الكريم بالمغرب
- محمد حافظ 61
- ♦ الكتاتيب القرآنية بين الموجود والمقصود: سبل تطويرها مع الحفاظ على خصوصياتها
- أحمد العمراني 81
- ♦ الكتاتيب القرآنية: الواقع والآفاق وآليات وطرق تحسين آدائها ومردوديتها
- عبد الفتاح الفريسي 111
- ♦ الكتاتيب القرآنية: واقع وآفاق
- مولود كويس 145

مناهج وطرق التدريس بالكتاتيب (القرآنية)

- منهج تعليم الأطفال في الكتاتيب القرآنية
عمرى الحبيب 185
- قضايا تربوية في برامج وأنشطة الكتاتيب القرآنية
ابراهيم الوافي 209
- نحو تحديد مناهج تدريس القرآن الكريم بالكتاتيب القرآنية
العربي بوسلهام 227
- الأنشطة الموازية في الكتاب القرآني ودورها في ترسيخ الهوية
محمد الفاسي 251
- الكتاتيب القرآنية والأنشطة التي تضطلع بها
ميمون بريسول 261

خصوصيات (الكتاتيب) (القرآنية) حسب المناطق

- تحفيظ القرآن الكريم بالمدرسة الموريتانية "المحضرة": مناهجه، آلياته، نتائجه
الشيخ بن محمد بن الشيخ أحمد 289
- التعليم القرآني بالسينغال : الآليات والمناهج
الشيخ مامادو حسن بوصو 313
- تطوير الكتاتيب القرآنية التقليدية من خلال التجربة الشفشاونية
علي بن أحمد بن الأمين الريسوني 333
- الأنشطة الموازية في الكتاب القرآني ودورها في ترسيخ الهوية:
منطقة سوس نموذجاً
اليزيد الراضي 351

كلمة

السفير وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

الأستاذ أحمد التوفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه
أجمعين،

أصحاب الفضيلة العلماء والفقهاء،

ضيوفنا الكرام،

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته،

يسعدني أن أفتتح هذه الندوة العلمية المباركة التي تنعقد بعون الله وتوفيقه
على مدى ثلاثة أيام في موضوع: "الكتاتيب القرآنية: الآليات - الأهداف -
الآفاق"، بحضور ثلة من العلماء والفقهاء والباحثين من داخل المغرب ومن
البلدين الشقيقين موريتانيا والسينغال.

وبهذه المناسبة، أرحب بالسادة العلماء الضيوف والمغاربة الذين لبوا الدعوة
مشكورين، والذين سيغنون هذه الندوة بأبحاثهم الجادة ودراساتهم الرصينة
وتجارهم القيمة.

حضرات السادة الأفاضل،

لقد ظلت المملكة المغربية - منذ الفتح الإسلامي - ترحى الكتاتيب والمدارس
القرآنية وغيرها من المؤسسات الروحية، لإيمانها الراسخ بأن هذه المؤسسات
رافد للمعرفة، ومحضن لتعليم القيم والأخلاق الإسلامية، ولا سيما على مستوى

الكتاب القرآني، الذي يعتبر أول نافذة تطل منها الناشئة على الحياة الاجتماعية، وتنهل من معينها التربية الإسلامية وقواعد السلوك العامة، وثابت الأمة الدينية ودعائم وحدتها الروحية المتمثلة في المذهب الواحد، هو المذهب المالكي الذي ارتضاه المغاربة كافة، والعقيدة الأشعرية والتصوف السني.

ولا تزال المملكة، ولله الحمد والمنة، تولى مؤسسة الكتاب القرآني أهمية بالغة، وتبوؤها المكانة اللائقة، وفق التوجه الحكيم لمولانا أمير المؤمنين جلاله الملك محمد السادس نصره الله الذي ما فتئ يولي الشأن الديني وكتاب الله موفور حذبه ورعايته، والذي أمر، حفظه الله، بإحداث جائزة محمد السادس للكتاتيب القرآنية إيماناً من جلالته بما سيكون لها من إسهام فعال في دعم العقيدة والسلوك وتقويتها في هذه الربوع.

أيها السادة الكرام،

إن انعقاد هذا الملتقى حول الكتاب القرآني يدل على أهمية هذا النوع من التعليم في بناء الإنسان المسلم المتشبت بعقيدته، الفاعل في محيطه، المنفتح على واقعه وحضارات عصره، الساهر على تحقيق التوازن في حياته وفق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وإني لوائح أن أعمال هذه الندوة، بما ستشهد من بحوث ودراسات ومناقشات، ستصبح من المراجع الأساسية في التعريف بالكتاب وتاريخه وواقعه والآليات المعتمدة في التعليم به، والمساعدة على خدمة مناهج التعليم والتربية لهذه المؤسسة ولغيرها.

أتمنى لأعمالكم كامل التوفيق والنجاح، وأن تحقق ندوتكم المباركة أهدافها وغاياتها.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تقديم

تعتبر الكتابات القرآنية من المؤسسات التربوية الشعبية المتجذرة في التاريخ المغربي بصفة خاصة وفي العالم الإسلامي بصفة عامة، حيث ظلت عبر أزمنة طويلة من هذا التاريخ رافدا للمعرفة ومبعثا للقيم والأخلاق الإسلامية، فضلا عن مساهمتها الفعالة في تكوين الفرد المسلم وصقل شخصيته وتحصينه من كل عوامل الزيغ العقدي والانحراف الفكري، وذلك انطلاقا من العناية بكتاب الله العزيز حفظا وتعلما وتعلما، عملا بحديث الرسول ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه".

كما أنها ظلت عبر الزمان تمثل الحصانة الروحية، والدعم الأساسية، للحفاظ على الهوية المغربية والتمسك بثوابتها الدينية وقيمها الاجتماعية والوطنية وفق العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي والتصوف السني، وقراءة القرآن برواية ورش عن نافع.

ولقد كانت هذه الندوة العلمية، التي احتضنتها مدينة الرباط أيام 25-26-27 ربيع الثاني 1427/24-25 ماي 2006، مناسبة طيبة، وفرصة مواتية، وملتقى إسلاميا حضرته نخبة من العلماء والفقهاء المغاربة والأجانب، تدارسوا خلالها موضوع: "الكتاتيب القرآنية-الآليات-الأهداف-الآفاق" والوسائل والآليات الكفيلة بتحسين هذا النوع من التعليم العريق وانتشاره والارتقاء به، وكذا دعم قدراته التعليمية والتربوية والاستفادة من مستجدات العصر والوسائل والمعدات التعليمية مع المحافظة على أصالة الكتابات وهويتها، اعتبارا لما للمؤسسة الكتاب من قيمة تاريخية وحضارية وعلمية في تكوين الناشئة وتثبيت القيم الإسلامية

لديها وتربيتها التربية الدينية الصحيحة المتسمة بالاستقامة والصلاح والاعتدال والتسامح.

كما كانت مناسبة كريمة أتاحت الفرصة للمشاركين فيها بإلقاء مداخلات هامة ومفيدة أثرت تلك الندوة بالآراء والأفكار والمعلومات الوجيهة التي تم طرحها وعرضها ومناقشتها حول مؤسسة الكتاب وتضمينها خلاصات تجاربهم في مجال التعليم والتربية بالكتاب التي كشفت عن مجموعة من القواسم المشتركة الإيجابية التي اعتمدت في الكتابات الأصيلة.

وبعد النجاح والتوفيق الذي صاحب أشغال هذه الندوة المباركة بعون الله حرصت الوزارة على أن تجمعها وتنشرها في جزئين: الجزء الأول يحمل عنوان: الكتابات القرآنية : واقع وآفاق، وضم ثلاثة محاور: 1-واقع الكتابات القرآنية وآفاقها المستقبلية، 2-مناهج وطرق التدريس بالكتاتيب القرآنية، 3- خصوصيات الكتابات القرآنية حسب المناطق.

وأما الجزء الثاني فهو تحت عنوان: الكتابات القرآنية: الرواية المتواترة وآليات الضبط والرسم والقراءة، ويحتوي بدوره على ثلاثة محاور: 1-الكتاب القرآني والرواية المتواترة فيه وتطبيقاتها بالوقف المهبطي، 2-الآليات المساعدة لحفظ القرآن الكريم وضبط الرسم العثماني (الأنصاف)، 3-النهج المغربي في ضبط الرسم والقراءة، ونأمل أن تبقى أعمال الندوة مرجعا للدارسين والباحثين المهتمين بهذا المجال.

المحور الأول

الكتاتيب القرآنية : واقع وآفاق

الكتاتيب القرآنية في المغرب بين الأحكام الفقهية والممارسة العملية والأفاق المنشورة

الحسين بن أحمد مفراح

عضو المجلس العلمي المحلي بالدار البيضاء

يعرف التعليم العتيق في هذه الأيام تحولا هاما وذلك منذ صدور القانون الإطار الخاص به (صدر بتاريخ ذى القعدة 1422هـ/فبراير 2002)، وإحداث مديرية خاصة به كذلك بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ومن تجليات هذا التحول اشتغال وانكباب هذه المديرية، على ترتيب أمور هذا التعليم.

وفي هذا الإطار تأتي هذه الندوة العلمية حول الكتاتيب القرآنية بالمغرب، باعتبار أن الكتاب القرآني هو البداية والانطلاقة والمنبع الأول لهذا التعليم. وإسهاما في أعمال وأبحاث ومناقشات هذه الندوة، يأتي هذا البحث.

المبحث الأول: الكتاب القرآني: مفهوم وبدايات

الكتاب القرآني في الاصطلاح المتداول يعني: المكان أو الفضاء الذي يحفظ فيه الصبيان القرآن الكريم، ويتعلمون الكتابة.

فمن أين جاء هذا المصطلح؟ ومتى استعمل؟ وهل له من مرادف؟

تناولت المعاجم اللغوية وغيرها هذا اللفظ، من الناحية اللغوية الاشتقاقية بمافيه الكفاية بدءا من كتاب العين للخليل بن أحمد إلى تهذيب اللغة للأزهري إلى لسان العرب لابن منظور.

أما لفظ "كتاب" فيؤخذ مما ذكره أنه:

- الصبيان قاله المبرد وصاحب الأساس، قلت وجهه ظاهر لأن الصبيان يتعلمون الكتابة، فهم كاتبون بالفعل أو باعتبار المال.

- مكان تعليم الصبيان كالمكتب، وهو قول الليث وتبعه الجوهري، وهذا الإطلاق خطأ عند المبرد، ونقل الزبيدي أن أصله جمع كاتب مثل كتبة، فأطلق على محله مجازا للمجاورة.

كما يؤخذ مما نقل الزبيدي عن الشهاب الخفاجي في شرح الشفاء أن بعضهم ذهب إلى أنه مولد أي أنه وضع لمكان تعليم الصبيان ابتداء.

قلت: ولا يبعد أن يكون أصله ما في العين للخليل من أن الكتاب والكتبة الجماعة المستحيزة أي في حيز لأن الصبيان جماعة تكون في مكان مستحيزة.

فلفظ الكتاب إذن: إما أنه لغة في المكتب كما قال الليث والجوهري.

أو أنه جمع كاتب فيطلق إما على المكان مجازا، وإما على الصبيان باعتبار أنهم كاتبون، إما حقيقة وإما باعتبار المال أو أنه مولد وضع لمكان تعليم الصبيان.

وجمع كتاب كما في القاموس: كتاتيب، قال الزبيدي وهذا على رأي الليث والجوهري، أي حيث يعتبران لفظ كتاب اسم موضع (انظر تاج العروس مادة كتب) قلت والذي في الصحاح للجوهري: "والكتاب الكتبة، والكتاب أيضا والمكتب واحد، والجمع الكتاتيب" (ج1 ص208 ط. دار العلم) وكما يطلق لفظ الكتاب على موضع تعليم الصبيان يطلق عليه لفظ "مكتب" على وزن مقعد قال في القاموس: "والمَكْتُبُ، كَمَقْعَدٍ: مَوْضِعُ التَّعْلِيمِ" وفي تهذيب اللغة للأزهري "قال المبردُ المَكْتُبُ: موضعُ التَّعليمِ" وهو اسم مكان من كتب أي موضع الكتابة، ولذلك فهذه التسمية واضحة ظاهرة.

أما بالنسبة لاستعمال هذين المصطلحين، فيهم من ذلك: أولا متى استعملا،

ووقع تداولهما، وثانياً أيهما أكثر استعمالاً.

بالنسبة للأمر الأول يمكن من خلال عدة نصوص أن ننتهي إلى استخلاصات معينة، ومن هذه النصوص:

• ماروى البخاري معلقاً في كتاب الديات باب من استعان عبداً أوصيباً: "وَيُذَكَّرُ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ بَعَثَتْ إِلَى مُعَلِّمِ الْكِتَابِ: ابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا يَنْفُسُونُ صُوفًا وَلَا تَبْعَثْ إِلَيَّ حُرًّا." قال ابن حجر: "وهذا الأثر وصله الثوري في جامعه وعبد الرزاق في مصنفه عنه عن محمد بن المنكدر عن أم سلمة وكأنه منقطع بين ابن المنكدر وأم سلمة لذلك ولم يجزم به".

• وفي كتاب من له رواية في الكتب الست للذهبي (ج2 ص 39).

علي بن رباح بن قصير اللخمي لقبه علي عن أبي هريرة وزيد بن ثابت وطائفة وعنه ابنه موسى ويزيد بن أبي حبيب وعدة وكان ذا منزلة وحرمة عند عبد العزيز بن مروان قال كنت في المكتب وقت مقتل عثمان مات بإفريقية سنة 114.

وفي تاريخ دمشق: "أُنْبَأَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ الْأَكْفَانِيِّ، أَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ، أَنَا تَمَامُ بْنُ مُحَمَّدٍ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلِيمَانَ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْفَيْضِ، أَنَا دَحِيمٌ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ شَعِيبٍ، أَخْبَرَنِي أَبُو الْمَعْطَلِ، مَوْلَى بَنِي كِلَابٍ وَقَدْ أَدْرَكَ مَعَاوِيَةَ قَالَ: مَرَرْنَا بِمَعَاوِيَةَ وَنَحْنُ فِي الْمَكْتَبِ، يَعُودُ دَرَّةٌ فِي نَحْوِ مِائَةِ عَشْرَةٍ. فَقَالَ لَنَا الْمَعْلَمُ: مَا سَلَّمْتُمْ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، إِذَا رَجَعْتُمْ فَسَلِّمُوا عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَجَعْنَا قَمْنَا إِلَيْهِ، فَقُلْنَا: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي ذُرَارِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ، اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي ذُرَارِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ" (ج 71 ص 182).

وفي الإصابة لابن حجر: سليم الأنصاري أو المخزومي مولاهم أبو عامر له

إدراك قال ابن خيثمة وأبوزرعة الدمشقي وأبو حاتم الرازي صلى خلف أبي بكر وقال أبو عمر سليم بن عامر وأبو عامر وليس بالخبائري وروى الطبراني في مسند الشاميين من طريق ثابت بن عجلان عن سليم أبي عامر وكان ممن سباه خالد بن الوليد حين حاصر حلب قال فلما قدمنا على أبي بكر جعلني في المكتب (جزء: 3 صفحة: 214).

وفي سنن النسائي الكبرى:

أَخْبَرَنِي هِلَالُ بْنُ الْعَلَاءِ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ (عَنْ إِسْرَائِيلَ) عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ وَعَمْرٍو بْنِ مَيْمُونِ الْأَوْدِيِّ، قَالَا كَانَ سَعْدٌ يُعَلِّمُ بَنِيهِ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ كَمَا يُعَلِّمُ الْمَكْتَبُ الْغُلَمَانَ وَيَقُولُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ يَتَعَوَّذُ بِهِنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ (أَنْ أُرَدَّ إِلَى) أَرْدَلِ الْعُمُرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْقَبْرِ" (جزء: 4 صفحة: 454).

فإذا أرجعنا استعمال لفظ الكتاب والمكتب لرواة هذه النصوص الأولين أي: محمد بن المنكدر (توفي سنة 130)، علي بن رباح (توفي سنة بضعة عشرة ومائة)، أبو المعطل مولى بني كلاب، سليم أبي عامر فهم عاشوا في القرن الأول الهجري، بل وفي العقود الأولى منه كسليم أبي عامر الذي عاصر أبا بكر رضي الله عنه مما يدعو إلى استخلاص أن هذا المصطلح استعمل في أوائل القرن الأول الهجري.

وينبغي التنبيه إلى أن التسميات والمصطلحات تتأخر في الوجود والاستعمال عن المسميات، بمعنى أن مكان تعلم الصبيان كان موجودا قبل أن يطلق عليه مكتب وكتاب، وذلك أن تعليم الصبيان الكتابة وجد منذ السنة الثانية، حينما

دشن بطريقة رائعة، لما كلف بذلك بعض أسرى بدر... (انظر في ذلك: تخريج الدلالات السمعية للخزاعي والتراتب الإدارية لعبد الحي الكتاني) غير أن ذلك لم يكن في مقر مخصص لذلك. وربما أخذ هذا المكان صفة تخصص في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولذلك اعتبر أول من رتبته. نقل النفراوي في الفواكه الدواني "أَوَّلُ مَنْ جَمَعَ الْأَوْلَادَ فِي الْمَكْتَبِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْخُزَاعِيَّ أَنْ يُلَازِمَهُمْ لِلتَّعْلِيمِ وَجَعَلَ رِزْقَهُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ"

وبالنسبة للأمر الثاني: فإنه باستعراض كتابين أحدهما مشرقى وهو مختصر تاريخ دمشق لابن منظور، والإحاطة في أخبار غرناطة، نجد في الأول لفظ الكتاب ست مرات، ولفظ المكتب خمس مرات، ونجد في الثاني لفظ المكتب مرتين ولفظ الكتاب صفر مرة، مع ملاحظات وجود لفظ المكتب (اسم فاعل) سبع مرات، مما يعطي أن استعمال لفظ المكتب هو الشائع في المغرب، وأن لفظ المكتب والكتاب شائعان في المشرق بشكل متقارب.

ولذلك لا تكاد تجد استعمال الكتاب في كتب الفقه المالكي على الأقل، وإنما تجد دائما لفظ المكتب.

الكتاب القرآني في المغرب

البدايات الأولى:

إذا انطلقنا من رسالتين مغربييتين في آداب وأحكام تعليم الصبيان وهما رسالة محمد بن سحنون (256/202هـ) ورسالة أبو الحسن علي القباسي (403/324هـ)، فإن ذلك يسمح لنا باستخلاص أن الكتاب القرآني عرف في الغرب الإسلامي منذ القرن الثاني على الأقل، وذلك إن رسالة محمد بن سحنون التي ترجع إلى القرن الثالث تعالج قضايا تعليم الصبيان بشكل مقصود لذاته مما

يدل على أن هذه العملية كانت موجودة قبل تأليف الرسالة، وأنها واقع وصل لدرجة استدعت الوقوف عندها لمعالجتها وتأطيرها فقهيا وأديبا ومنهجيا، وأما الرسالة الثانية فإنها تتعمق الموضوع وتزيده تفصيلا وبيانا.

كما يجدر التنبيه إلى أنه ينبغي أن نفرق بين عمليات تعليم وتحفيظ القرآن الكريم مطلقا وبين تعليمه في مكان خاص، ولتعليمين خاصين وبطرق خاصة أي ما يحصل في الكتاتيب القرآنية، فالعمليات الأولى تحصل وتقع مع وصول الإسلام لمكان وقوم معينين، أي إن هذه العمليات تسبق في الوجود ظهور المكاتب القرآنية المتخصصة.

ومنذ ظهور الكتاب في الغرب الإسلامي، والدراسات والأبحاث العلمية تتوالى حول أحكامه وأدبياته.

المبحث الثاني: التسميات والألقاب

باستعراض بعض المصادر المغربية (تاريخ ابن خلدون، الإحاطة، المعجب، كتب فقه.....) نجد أن التسمية المستعملة هنا بالغرب الإسلامي في الغالب الأعم هي: المكتب، كما استعمل كذلك لفظ الكتاب (استعملها القابسي في الرسالة المفصلة مفردة كثيرا (ص 89 و 99 و 120 و 122...)). واستعملها بالجمع (ص 98 ط الشركة التونسية)، واستعملها ابن الحاج أحيانا في المدخل، كما استعمل كذلك لفظ المكتب على وزن اسم الفاعل الثلاثي والرباعي على المعلم في الكتاب واستعملت هنا في المغرب تسميات أخرى: ومنها المسيد، والجامع، والحضار.

أما لفظ "المسيد" فهو لفظ عربي، إذ هولغة في المسجد، قال في تاج العروس: "ومسيد: لغة في: مسجد، ذكره الزركشي قال شيخنا: الظاهر أنه

مؤلّد. وبلغه المغرب المَسِيد: المكتّب "وإذا علمنا أن الشيخ مرتضى الزبيدي" عاش في: (1205/1145هـ) أي القرن الثاني عشر فإن هذا اللفظ قد استعمل قبل ذلك كما تقتضي سنة الوقوع والتدوين. وهذا اللفظ مستعمل الآن في مناطق عديدة في المغرب.

أما لفظ الجامع (بعدم نطق الـ، مع تشديد الجيم وفتح الميم) فإنه مستعمل في الدار البيضاء، وفي مناطق جنوبية من المغرب كواحة درعة...

وأما لفظ: "لحضر" فهو مستعمل كثيرا في مناطق جنوبية أيضا، حيث يقع التعبير عن المكان المخصص لتعليمي القرآن في أحد جوانب المسجد. فهو يرادف تماما لفظ المكتب، مع ملاحظة أن المكتب يكون في مكان مستقل عن المسجد. وربما اشتق هذا اللفظ من الحضور، حيث يحضر إليه طلبة القرآن.

والذي يشيع الآن استعماله هو لفظ "الكتاب"، ثم الجامع.

أما التسمية الرسمية أو شبه الرسمية فهي "الكتاب القرآني" فهي التي تستعملها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية منذ توليها الإشراف على الكتاتيب وتنظيمها (تمنح الوزارة الترخيص بفتح الكتاب باسم إذن وزاري بفتح كتاب قرآني، كما أن وزارة التربية الوطنية تتعامل مع هذه الأماكن بمصطلح الكتاتيب القرآنية، وأيضا فهي التسمية التي تكتب على هذه الأماكن). ولذلك فهي تسمية جديدة ومعاصرة.

الطبيعة المكانية للكتاب في المغرب:

الكتاب يكون في مكان، وشكل بنائي معين، فما هي أوصاف وأشكال الكتاب في المغرب؟ وللجواب عن ذلك ليس أمام الباحث إلا الوثائق غير المباشرة، وتتمثل في المؤلفات التي تناولت أحكام معلمي الصبيان، وكتب

الفتوى والنوازل، وبعض كتب التاريخ، حيث يرد في هذه المراجع ما يمكن أن يستخلص منه ما يعطي صورة عن هذا الجانب.

ومن نماذج المؤلفات السابقة: رسالة آداب المعلمين لابن سحنون، ورسالة القابسي، والمدخل لابن الحاج، والإحاطة في أخبار غرناطة، وتاريخ ابن خلدون، ونفح الطيب ونوازل البرزلي والمعيار للونشريشي، فماذا يمكن أن يلتقط في هذه المصادر؟

يقول ابن الحاج في المدخل:

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مَوْضِعُ الْكِتَابِ بِالسُّوقِ إِنْ أُمُكِنَ ذَلِكَ، فَإِنْ تَعَذَّرَ ذَلِكَ فَعَلَى شَوَارِعِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ فِي الدَّكَائِنِ وَيُكْرَهُ أَنْ يَكُونَ بِمَوْضِعٍ لَيْسَ بِمَسْلُوكٍ لِلنَّاسِ فَإِنَّ الصَّبِيَّانَ يُسْرِعُ إِلَيْهِمَا الْقِيلُ وَالْقَالَ فَإِذَا كَانَ بِالسُّوقِ أَوْ عَلَى الطَّرِيقِ أَوْ فِي الدَّكَائِنِ ذَهَبَ عَنْهُمْ ذَلِكَ وَفِيهِ فَائِدَةٌ أُخْرَى عَظِيمَةٌ وَهِيَ إِظْهَارُ الشَّعَائِرِ؛ لِأَنَّهُ أَحَلَّهَا كَذَلِكَ يَحْذَرُ أَنْ يَتَّخِذَ الْكِتَابَ فِي الْمَسَاجِدِ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ "جَنَّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ وَمَحَانِينَكُمْ". وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَكْتَبُ فِي مَوْضِعٍ يَخْفَى عَنْ أَعْيُنِ الْمَارِّينَ فِي الطَّرِيقِ إِذْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاسِدِ مَا لَا يَخْفَى.

ويقول: "وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِيهِ الصَّبِيَّانُ فِيهِ لِضُرُورَةِ الْبَشَرِيَّةِ مَعْلُومًا إِمَّا أَنْ يَكُونَ وَقْفًا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِلْكًا أَبَاحَهُ صَاحِبُهُ وَيُؤْمَنُ عَلَى الصَّبِيَّانِ فِيهِ، فَإِنْ عُدِمَا مَعًا أَوْ عُدِمَ الْأَمْنُ فَكُلُّ وَاحِدٍ يَمْضِي إِلَى بَيْتِهِ لِيُزِيلَ ضُرُورَتَهُ ثُمَّ يَعُودَ".

ويقول: وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا يُسَامِحَ الصَّبِيَّانَ فِي دَقِّ الْمَسَامِيرِ فِي الْمَكْتَبِ إِنْ كَانَ وَقْفًا، وَإِنْ كَانَ مِلْكًا فَلَا يَجُوزُ إِلَّا بِإِذْنِ صَاحِبِهِ وَلَا ضُرُورَةَ تَدْعُو إِلَى ذَلِكَ".

ويقول: "وَيَنْبَغِي لَهُ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ لِمَسْحِ الْأَلْوَاحِ مَوْضِعٌ طَاهِرٌ مُصَانٌ نَظِيفٌ لَا يُمَسَّى فِيهِ بِالْأَقْدَامِ ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ يَأْخُذُ الْمَاءَ الَّذِي يَجْتَمِعُ مِنَ الْمَسْحِ فَيَحْفِرُ لَهُ فِي مَكَانٍ طَاهِرٍ مُصَانٍ عَنْ أَنْ يَطَّأَهُ قَدَمٌ وَيُجْعَلُ فِيهِ أَوْ يُلْقَى فِي الْبَحْرِ أَوِ الْبَيْرِ أَوْ يُجْعَلُ فِي إِنَاءٍ طَاهِرٍ لِكَيْ يَسْتَشْفِيَ بِهِ مَنْ يَخْتَارُ ذَلِكَ الْمَاءَ".

ويقول محمد بن سحنون: "وعلى المعلم أن يكسب الدرة والفلقة، وليس ذلك على الصبيان، وعليه كراء الحانوت وليس ذلك على الصبيان" (ص 358).

وقال: "وسئل مالك عن تعليم الصبيان في المسجد قال لا أرى ذلك يجوز لأنهم لا يتحفظون من النجاسة، ولم ينصب المسجد للتعليم" (ص 360).

وفي رسالة القابسي: "وقال - أي ابن سحنون - إذا استؤجر المعلم على صبيان معلومين سنة معلومة فعلى أولياء الصبيان كراء موضع المعلم".

وفيها: "وأما تعليم الصبيان في المسجد فإن ابن القاسم قال سئل مالك عن الرجل يأتي بالصبي إلى المسجد أتستحب ذلك؟ قال إن كان قد بلغ موضع الأدب وعرف ذلك، ولا يعبت في المسجد فلا أرى بأساً، وإن كان صغيراً لا يقر فيه ويعبت فلا أحب ذلك.... وأما سحنون فقال سئل مالك عن تعليم الصبيان في المسجد فقال لا أرى ذلك يجوز لأنهم لا يتحفظون من النجاسة ولم ينصب المسجد للتعليم. قال أبو الحسن جواب صحيح، وتكسب الدنيا في المسجد لا يصلح... فلا يترك لمعلم الصبيان أن يجلس بهم في المسجد وإن اضطر لذلك باهتدام مكانه فليتخذ مكاناً يعلم فيه إلى أن يصلح ما تهدم له إن أحب.

واتخاذ المكان عليه كان بيتاً أو حانوتاً، إلا أن يدعى إلى صبيان بأعيانهم، فقد تقدم قول سحنون في كراء ذلك أنه على الصبيان...." (ص 145).

وقال: "وأما سؤالك عن معلم أراد أن يحول كتابه من موضع إلى موضع

قريب فأبى بعضهم ورضي بعض" (ص 168).

فيؤخذ من هذه النصوص والإشارات:

- أن الكتاب يمكن أن يكون في شكل حانوت أو في شكل بيت، أو مكان خاص، ومعلوم أن الحانوت يكون على الشارع، والبيت يكون داخل منزل.
- أن الكتاب لا يكون في قلب المسجد، بمعنى أنه لا يتخذ في موضع الصلاة.

- يفضل أن يكون الكتاب في مكان مطروق وبارز للناس كالأسواق ونحوها لا أن يكون في مكان خفي.

الكتاب إما أن يكون في ملك معلم الصبيان أو إجارته، أو في ملك أولياء الصبيان أو إجارته، وإما أن يكون وقفا.

- الكتاتيب يمكن أن تتحول من مكان لآخر.

- للكتاتيب مرافق، منها مكان محو الألواح، ومكان قضاء حاجة الصبيان (المراحيض) ولكل آداب وأحكام.

والواقع أن هذه الأوصاف والأوضاع هي التي بقي عليها الكتاب في كل المناطق المغربية وإلى حدود الستينات من القرن العشرين وخاصة من ذلك المدن والحوضر.

المبحث الثالث: الأحكام والآداب الضابطة للكتاب القرآني

يعتبر هذا المبحث محور ما تناولته الرسائل والكتب التي خصصت لتناول قضايا الكتاتيب، ومنها:

1) رسالة آداب المعلمين لابن سحنون (طبعها الدكتور أحمد الأهواني ضمن

كتابه التربية في الإسلام/ طبعة دار المعارف بمصر)

2) الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين... لأبي الحسن القاسبي

3) المدخل لابن الحاج

4) مقدمة ابن خلدون

بالإضافة لبعض كتب النوازل كالمعيار للونشريشي ونوازل البرزلي.

ويمكن تأطير جانب مما تناولته في المحاور التالية:

الأحكام الفقهية الضابطة للكتاب القرآني:

1) المتعلقة بالفقيه المحفظ والمدر

2) المتعلقة بالطفل الطالب

3) المتعلقة بأولياء الأطفال وذويهم

4) المتعلقة بذات الكتاب

5) المتعلقة بالسلوكيات التعليمية والتعلمية.....

أولاً: المتعلقة بالفقيه المحفظ والمدر

وتتناول المصادر من ذلك الجانب الخلقي الإيماني من إخلاص النية، وتعظيم الشعائر الدينية. يقول ابن الحاج في المدخل: (ج 2/ص 485).

فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعْظَّمَ مَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ هَذَا الْمَجْلِسِ الشَّرِيفِ وَأَنْ لَا يَشِينَهُ بِشَيْءٍ الْمُخَالَفَةِ وَالِاعْتِقَادِ الرَّدِيِّ وَالِدَسَائِسِ وَالنَّزَغَاتِ الَّتِي تَطْرَأُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ وَهِيَ كَثِيرَةٌ".

كما عليه أن يكون متزوجاً، ليكون في أكمل الحالات، وأن يتجنب

مباشرة الصبيان والضحك معهم ليعظم في أعينهم.

كما تتناول جوانب من واجباته وما يتعين في حقه في أداء مهمته، ومن ذلك: أن يتولى بنفسه مباشرة تعليم الصبيان وألا يوكل غيره، وفي حال ما إذا احتاج إلى ذلك فينبغي أن يراعي جملة من الشروط يذكرها ابن الحاج (ج2 ص 324-325):

- ما يتوجب عليه من تلقين وتعليم وتربية في حق الصبيان بالإضافة إلى تحفيظ وتعليم القرآن الكريم.
- ما يتعين عليه في تنظيم الأوقات وتوزيعها بين المهام التعليمية والتربوية التي يقوم بها.
- الحرص على سلامة الصبيان من الآفات المعنوية...
- التسوية بين الصبيان في التعليم والمعاملة.
- ألا يكثر من الكلام مع زواره.
- ألا يكتفي بالتحفيظ والتلقين بل يحرص على تربيتهم على الآداب والأحكام الشرعية من صلاة وغيرها.
- ما يشترط فيه من الشروط الاجتماعية.

انظر في ذلك: (المعيار ج8 ص250). والباب الثاني من الرسالة المفصلة للقباسي ص 126 فما بعد.

ثانيا: المتعلقة بالطفل الطالب

وتناول المصادر من ذلك:

1) حكم إمساكهم المصاحف والألواح على غير الوضوء (الرسالة المفصلة ص147)

2) حكم صلاة بعضهم ببعض في الكتاب

3) الامتناع من الأكل في الكتاب.

4) الإشراف على تناول الأطعمة في حال إتيان الطلبة بها إلى الكتاب. يقول ابن الحاج: المدخل (ج 3/ص 9).

5) فَلْيَحْذَرِ مِمَّا يَفْعَلُهُ بَعْضُ عَوَامِّ الْمُؤَدِّينَ فِي هَذَا الزَّمَانِ وَهُوَ أَنَّ الصَّبِيَّانَ الَّذِينَ عِنْدَهُ إِذَا أَتَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ بِغِذَائِهِ أَوْ بَعْضُهُمْ فَيَتَسَلَّمُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَبَعْضُهُمْ يَخْلُطُ جَمِيعَ ذَلِكَ ثُمَّ يُعْطِي مِنْهُ مَنْ يَخْطُرُ لَهُ فَتَجِدُ بَعْضَ الصَّبِيَّانِ يَطْلُبُ مِنْهُ شَيْئًا مِنْ غِذَائِهِ فَيَحْرُمُهُ وَيُؤَفِّرُ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ وَلَكِنْ يَخْتَارُ وَهَذَا حَرَامٌ سُحْتُ وَذَلِكَ جُرْحَةٌ فِي حَقِّهِ وَيَتَعَيَّنُ إِقَامَتُهُ مِنَ الْمَكْتَبِ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ بِشَرْطِ أَنْ تُعْلَمَ حَقِيقَةُ أَمْرِهِ فِي ذَلِكَ. وَفِيهِ مِنَ الْمَحْذُورَاتِ عِدَّةٌ: مِنْهَا أَنَّهُ يَأْخُذُ غِذَاءَ هَذَا فَيُعْطِيهِ لغيرِهِ فَيَدْخُلُ الْخَلَلَ فِي غِذَاءِ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ وَالِدُ بَعْضِهِمْ صَالِحًا مُتَوَرِّعًا فِي كَسْبِهِ وَآخَرُ مَكَّاسًا ظَالِمًا وَقَدْ يَكُونُ غِذَاءُ بَعْضِهِمْ أَحْسَنَ مِنْ غِذَاءِ الْآخَرِ فِي الْمَطْعَمِ وَالصَّبِيُّ مَحْجُورٌ عَلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ وَوَلِيُّهُ لَمْ يَرْضَ بِذَلِكَ سِيِّمًا إِنْ كَانَ لِيَتِيمٍ فَلَا يَجُوزُ إِبْدَالُهُ وَلَا يَجُوزُ لِوَلِيِّهِ أَنْ يَأْذَنَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ. وَبَعْضُ الْمُؤَدِّينَ يَفْعَلُ فِعْلًا قَبِيحًا شَنِيعًا مُحَرَّمًا وَهُوَ أَنَّهُ يَأْكُلُ مَعَ الصَّبِيَّانِ مِنْ أَغْذِيَّتِهِمْ وَيُطْعِمُ مَنْ يَخْتَارُهُ وَمَنْ يَجْتَمِعُ بِهِ وَيُرْسِلُ مِنْهَا إِلَى بَيْتِهِ مَا يَخْتَارُ وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الْخُلْسَةِ".

6) كيف يصنع بالصبي إذا حدث له مرض بالكتاب، وإذا ما مرض السنة كلها.

7) كيف يقضون حاجتهم وهم في الكتاب

8) كيف يشربون في الكتاب.

9) منعهم من تخريب الكتاب وإفساده.

10) تلافي أي سلوك أو وضع يحصل معه التمييز فيما بين فقيرهم وغنيهم
يقول ابن الحاج: المدخل (ج 2/ص 494)

11) وَيَنْبَغِي لَهُ بَلْ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَتْرُكَ أَحَدًا مِنَ الصَّبِيَّانِ يَأْتِي إِلَى الْكِتَابِ
بِغَدَائِهِ وَلَا بِفِضَّةٍ مَعَهُ وَلَا فُلُوسٍ لِيَشْتَرِيَ شَيْئًا فِي الْمَكْتَبِ؛ لِأَنَّ مَنْ
هَذَا الْبَابِ تَتَلَفُ أَحْوَالُهُمْ وَيَنْكَسِرُ خَاطِرُ الصَّغِيرِ الْفَقِيرِ مِنْهُمْ
وَالضَّعِيفِ لِمَا يَرَى مِنْ جَدَّةٍ غَيْرِهِ فَيَدْخُلُ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ "مَنْ ضَارَّ بِمُسْلِمٍ أَضَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ" انْتَهَى؛ لِأَنَّ وَلَدَ الْفَقِيرِ
يَرْجِعُ إِلَى بَيْتِهِ مُنْكَسِرًا خَاطِرُهُ مُتَشَوِّشًا فِي نَفْسِهِ غَيْرَ رَاضٍ بِنَفَقَةِ
وَالِدَيْهِ عَلَيْهِ لِمَا يَرَى مِنْ نَفَقَةٍ مَنْ لَهُ اتِّسَاعٌ فِي الدُّنْيَا وَيَتَرْتَّبُ عَلَى
ذَلِكَ مِنَ الْمَفَاسِدِ جُمْلَةٌ قَلَّ أَنْ تَنْحَصِرَ وَفِيمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ كِفَايَةٌ.

12) منع الصبيان الصغار من الكتاب والمحجى إليه: يقول ابن الحاج "المدخل -
(ج 2/ص 500):

"فَلْيَحْذَرُ مَنْ أَنْ يُقَرَّئَ مِثْلَ هَؤُلَاءِ إِذْ لَا فَائِدَةَ فِي إِقْرَائِهِ لَهُمْ إِلَّا وَجُودُ التَّعَبِ
غَالِبًا وَتَلَوِيثُ مَوْضِعِ الْقُرْآنِ وَتَنْزِيهُهُ عَنْ ذَلِكَ مُتَعَيَّنٌ أَعْنِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى
عَدَمِ انْتِفَاعِ الصَّبِيَّانِ بِالْقِرَاءَةِ فِي ذَلِكَ السِّنِّ غَالِبًا أَلَّا تَرَى أَنَّ الْغَالِبَ
مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُرْسِلُونَ أَوْلَادَهُمْ إِلَى الْمَكْتَبِ فِي حَالِ صِغَرِهِمْ لِكَيْ
يَسْتَرْيَحُوا مِنْ تَعَبِهِمْ لَا لِأَجْلِ الْقِرَاءَةِ".

13) حكم تعاملهم بمعاملات غير الشرعية كالربا (المعيار...)

14) ألا يستخدمهم الفقيه في أغراضه وحاجاته الشخصية بشكل إلزامي إكراهي.

ثالثا: المتعلقة بأولياء الأطفال وذويهم

ومن ذلك:

- هل يجب على الأب تعليم كل أولاده، وخاصة إذا احتاج إلى تشغيل بعضهم؟ (المعيار للونشريسي ج 8 ص 239).
- هل تعليم الولدان واجب شخصي فردي على أوليائهم أو هو واجب على المجتمع (الدولة)؟ (انظر الرسالة المفصلة ص 98).
- هل يجبر الآباء على تعليم أبنائهم ذكورا وإناثا؟ (المعيار ج 8 ص 249).
- حكم ما إذا أفلس ولي الصبي.
- ما يجب عليه من اختيار المعلم الأفضل والمناسب.
- التأكيد على منعهم من الذهاب بأبنائهم لكتاتيب غير المسلمين في فترة الصبا والتعلم الأولي (المدخل ج 2 ص 336...).
- الحرص على سلامتهم في الذهاب والإياب للكتاب: "المدخل- (ج 2/ ص 500).
- "فَإِنْ لَمْ يَأْمَنْ عَلَيْهِ فَلْيُرْسِلْ مَعَهُ وَلِيُّهُ مَنْ يَثِقُ بِهِ فِي ذَهَابِهِ إِلَى بَيْتِهِ لِضُرُورَتِهِ وَغِذَائِهِ وَمَنْ يَأْتِي بِهِ إِلَى الْمَكْتَبِ فَهُوَ أَسْلَمٌ عَاقِبَةً".
- ألا ينقل ابنه من الكتاب الذي أشرف على إتمام القرآن فيه/المدخل (ج 2 ص 343).
- ومن ذلك ما خصص له ابن الحاج فصلا في مدخله بعنوان "فصل في تربية الأولاد... من الجزء الرابع".

رابعاً: المتعلقة بذات الكتاب

- أن يكون في مكان بارز وظاهر للعيان كالسوق وجوانب الطرق:

المدخل (ج 2 ص 496):

"وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مَوْضِعُ الْكِتَابِ بِالسُّوقِ إِنْ أُمِّكْنَ ذَلِكَ، فَإِنْ تَعَذَّرَ ذَلِكَ فَعَلَى شَوَارِعِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ فِي الدَّكَائِنِ وَيُكْرَهُ أَنْ يَكُونَ بِمَوْضِعٍ لَيْسَ بِمَسْلُوكٍ لِلنَّاسِ فَإِنَّ الصَّبَّيَّانَ يُسْرِعُ إِلَيْهِمَا الْقِيلُ وَالْقَالَ فَإِذَا كَانَ بِالسُّوقِ أَوْ عَلَى الطَّرِيقِ أَوْ فِي الدَّكَائِنِ ذَهَبَ عَنْهُمْ ذَلِكَ وَفِيهِ فَايِدَةٌ أُخْرَى عَظِيمَةٌ وَهِيَ إِظْهَارُ الشَّعَائِرِ؛ لِأَنَّهُ أَجْلُهَا كَذَلِكَ يَحْذَرُ أَنْ يَتَّخِذَ الْكِتَابَ فِي الْمَسَاجِدِ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (جَبُّوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِينَكُمْ) انْتَهَى. وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَكْتَبُ فِي مَوْضِعٍ يَخْفَى عَنْ أَعْيُنِ الْمَارِّينَ فِي الطَّرِيقِ إِذْ فِي ذَلِكَ مِنْ الْمَفَاسِدِ مَا لَا يَخْفَى".

- أن لا يدع الباعة يبيعون للأطفال أمامه: المدخل-(ج 2 ص 494) "وَيَنْبَغِي

لَهُ أَنْ لَا يَدَعَ أَحَدًا مِنَ الْبَائِعِينَ يَقِفُ عَلَى الْمَكْتَبِ لِيَسِيعَ لِلصَّبَّيَّانِ إِذْ فِيهِ مِنْ الْمَفَاسِدِ مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ إِنْ أُشْتَرِيَ مِنْهُ".

- ألا يكتب إعلانا دعائيا على بابه.

- تنزيه الكتاب عن السلوكات التي لم يؤسس من أجلها، يقول ابن

الحاج: "المدخل(ج3 ص13).

"وَلْيَحْذَرُ أَنْ يُبَيِّحَ لَهُمْ فِعْلَ ذَلِكَ فِي الْمَكْتَبِ؛ لِأَنَّ الصَّبَّيَّانَ إِذَا خَرَجُوا عَمَّا بُنِيَ الْمَكْتَبُ لَهُ عَادَ ذَلِكَ بِالضَّرَرِ غَالِبًا عَلَيْهِمْ وَعَلَى غَيْرِهِمْ وَمَا بُنِيَ الْمَكْتَبُ إِلَّا لِأَجْلِ الدَّرْسِ وَالْحِفْظِ وَالْعَرْضِ وَالْكِتَابَةِ، فَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلْيَكُنْ فِي بُيُوتِهِمْ وَلَا يَتْرُكُهُمْ يَنَامُونَ فِيهِ وَقْتًا مَا فِي الْحَرِّ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْمَنْعُ مِمَّا هُوَ أَخَفُّ مِنْ هَذَا

وَهُوَ أَنَّهُمْ يَمْضُونَ إِلَى بُيُوتِهِمْ وَيَأْكُلُونَ فِيهَا وَلَا يَأْكُلُونَ فِي الْمَكْتَبِ".

- اجتناب الأذان لأوقات الصلاة في المكتب.

خامسا: المتعلقة بالسلوكيات التعليمية والتعليمية

ومن ذلك:

- ألا يولي الأطفال لتعليم بعضهم البعض وإذا احتاج لذلك فإنه يغير بينهم
يقول ابن الحاج: "المدخل - (ج2/ص499).

وَيَنْبَغِي لَهُ إِذَا وَكَّلَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ أَنْ لَا يَجْعَلَ صَبِيًّا مَعْلُومِينَ لِشَخْصٍ
وَاحِدٍ مِنْهُمْ بَلْ يُدَلِّلُ الصَّبِيَّانَ فِي كُلِّ وَقْتٍ عَلَى الْعُرْفَاءِ مَرَّةً يُعْطِي صَبِيًّا هَذَا
لِهَذَا وَصَبِيًّا هَذَا لِهَذَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ لِوَاحِدٍ صَبِيًّا مَعْلُومُونَ فَقَدْ تَنَشَّأَ بَيْنَهُمْ
مَفَاسِدُ بِسَبَبِ الْوُدِّ لَا يَشْعُرُ بِهَا".

- تنظيم أوقات العمليات التعليمية من كتابة الألواح وتصحيحها وعرضها
ووضع برنامج لها. يقول ابن الحاج: "المدخل - (ج3/ص2).

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ وَقْتُ كَتَبِهِمُ الْأَلْوَحَ مَعْلُومًا وَوَقْتُ تَصْوِيهِهَا مَعْلُومًا وَوَقْتُ
عَرْضِهَا مَعْلُومًا وَكَذَلِكَ قِرَاءَةُ الْأَحْزَابِ حَتَّى يَنْضَبِطَ الْحَالُ وَلَا يَخْتَلِ النَّظَامُ
وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْهُمْ لِعَيْرِ ضَرُورَةٍ شَرْعِيَّةٍ قَابَلَهُ بِمَا يَلِيْقُ بِهِ".

- الاستعانة بمهارة تساعد على تقوية مهارة الحفظ والذاكرة كالاستخراج
والخط، يقول ابن الحاج: "المدخل - (ج3/ص4).

"وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعَلِّمَهُمُ الْخَطَّ وَالِاسْتِخْرَاجَ كَمَا يُعَلِّمُهُمْ حِفْظَ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُمْ
بَذَلِكَ يَتَسَلَّطُونَ عَلَى الْحِفْظِ وَالْفَهْمِ فَهُوَ أَكْبَرُ الْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ عَلَى مُطَالَعَةِ
الْكِتَابِ وَفَهْمِ مَسَائِلِهَا".

• تنظيم أوقات الراحة والعطل، سواء منها الأسبوعية أو الموسمية في الأعياد ونحوها.

• اجتناب تعاطي التحفيظ أو العرض في الطرق والأسواق. يقول ابن الحاج: "المدخل- (ج3/ص16) "وَيَنْبَغِي لِلْمُؤَدِّبِ أَنْ يَتَجَنَّبَ مَا أَحْدَثَهُ بَعْضُ الْمُؤَدِّينَ وَبَعْضُ مَشَايِخِ الْقُرْآنِ مِنَ الْقِرَاءَةِ عَلَيْهِمْ فِي الْأَسْوَاقِ وَالطُّرُقِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ فِعْلٍ مَنْ مَضَى وَفِيهِ مَفَاسِدُ جَمَّةٌ".

• آداب التأديب للأطفال بالكلام وغيره في حال ما إذا ارتكبوا أو وقعوا في مخالفة.

• آداب وأحكام تزويق الألواح. يقول ابن الحاج رحمه الله: المدخل- (ج3/ص28).

"وَأَمَّا تَزْوِيقُ الْأَلْوَا حِ فِي الْإِصْرَافَاتِ وَالْأَعْيَادِ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ فَهُوَ مِنْ بَابِ الْمُبَاحِ الْجَائِزِ وَفِيهِ إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَى الْأَوْلَادِ وَإِدْخَالُ السُّرُورِ فِيهِ مِنَ الْأَجْرِ مَا قَدْ عُلِمَ وَفِيهِ التَّنْشِيطُ لِلصَّبِّانِ عَلَى الْإِعْتِنَاءِ بِالْمُوَظَّابَةِ عَلَى الْقِرَاءَةِ. لَكِنْ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَجَنَّبَ مَا أَحْدَثُوهُ مِنَ الْمَفَاسِدِ فِي الْإِصْرَافَاتِ وَهِيَ كَثِيرَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ فَمِنْهَا تَزْيِينُ الْمَكْتَبِ فِي الْأَعْيَادِ وَالْإِصْرَافَاتِ بِالْحَرِيرِ وَغَيْرِهِ أَرْضًا وَحِيطَانًا وَسُقْفًا. انظر المدخل (ص: 342 ج2).

وهناك كثير من الأحكام والضوابط التي تناولتها هذه المصادر التي يمكن الإطلاع عليها وقد تكون ذات أهمية خاصة، وعدم إيرادها هنا لا يدل على إهمالها وإنما يرجع الأمر إلى الاختصار وضيق الوقت.

المبحث الرابع: الكتاب القرآني المعصري

إن كل ما تقدم هو بمثابة مدخل وأرضية لهذا المبحث، لأن الغاية الأساسية لهذا اللقاء، هو الوصول إلى تحديد التصورات والأسس التي ينبغي أن يتأسس عليها الكتاب القرآني المعاصر، وإذا كانت تلك الأسس والمبادئ تنطلق من الأحكام والآداب والتجارب التي عرفها الكتاب التاريخي، وهي ماتم رصد شيء منه فيما تقدم، فإن الأدبيات والخبرات ونتائج الدراسات والأبحاث النفسية والاجتماعية التي راكمتها الدراسات التربوية والنفسية والاجتماعية تعتبر الشق الثاني لتلك التصورات والأسس، والصيغة التي تتوقع من ذلك هي المقصودة بالكتاب المعاصر.

فالكتاب المعاصر هو الذي يتأسس على المناسب والصالح من تجارب الكتاب التاريخي، وعلى الصالح والمناسب من نتائج الأبحاث والنظريات النفسية والتربوية والاجتماعية.

وإذا كان من غير الممكن الوفاء بذلك كله في هذا البحث المتواضع والمقتضب فلا يمنع ذلك من إبداء بعض الملامح في سبيل ذلك من خلال ما يلي:

- الكتاب القرآني في المغرب عرف نقطة فاصلة ما بين الوضع التاريخي التقليدي والمعاصر ابتداء من أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن المنصرم، وذلك عندما تولت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالتعاون مع وزارة التربية الوطنية والسلطات الإدارية المحلية الإشراف على الكتاتيب القرآنية، ووضعت بعض الشروط لفتحها وتبعتها ومراقبتها.

فالكتاتيب قبل هذه النقطة كانت في وضعها وسيرها العام بالصيغة التاريخية للكتاب في المغرب بدون كثير من التغيير أو التحول، فالكتاب عبارة عن دكان

أوحانوت أوجانب من مسجد يقوم بالتحفيظ فيه فقيه حافظ للقرآن مستعملا ومعتمدا الأدوات التاريخية التقليدية من لوحة وقلم ودواة وفلقة وسوط وحصر مع تعطيل يوم الخميس والجمعة وأداء أجره للفقهاء، الخ.

وبعد تدخل وزارة الأوقاف بدأ الكتاب يعرف تحولات، ومنها: إدخال السبورة والطاولات مع تخصيص جزء كبير من نشاطه للقراء والكتاب ومحفوظات ومرددات، فتقلص دور اللوحة، بل وأصبح الكتاب فيما بعد عبارة عن روض يتعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة ونشاطات تفتحية أخرى، وأصبح حفظ القرآن فقط جزءا من نشاط الكتاب، كما تقلص بل انعدم دور الفقيه المحفظ وأصبح الذي ينشط الكتاتيب ويتولى فعليا تعليم الصبيان فتيات ونساء متعلقات تعلم ما، غير مؤهلات تربويا ولا تدريبا في غالبهن الأعم، رغم أن المحلات تفتح رسميا على أنها كتاب باسم شخص يشترط فيه أن يتوفر على شهادة بحفظ القرآن الكريم كاملا، إما بشهادة عدلية أو شهادة من المجلس العلمي المحلي بعد إحداثها، مما أقبر نهائيا الكتاب القرآني المعتاد وخاصة في المدن، كالدار البيضاء والرباط ونحوها، ومما فسح المجال لظهور ما يسمى بدور القرآن التي تؤسسها جمعيات معينة ولكن مع وقوعها في عديد من الانزلاقات والانحرافات (بدأ بعضها بتحفيظ القرآن برواية حفص لأسباب يعلمها الله، وجعلت أخرى تزاوّل في تلك الدور أنشطة مشبوهة.....).

وأمام هذا كله أصبح لازما ومتعينا أن يعمل الناس على تصحيح الأوضاع والرجوع بها إلى الخط الصحيح السليم... وهذا ما بدأت بواره، وخاصة بعد صدور ظهير وقانون التعليم العتيق بتاريخ: 28 ذي القعدة 1422هـ/ 11 فبراير 2002م وشعور كل من له اهتمام بالحاجة إلى إعادة الكتاب القرآني ودوره إلى الحياة التربوية والتنشئية للطفل المغربي، وفي هذا السياق تأتي

مبادرات وجهود مديرية التعليم العتيق بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
ومنها هذا اللقاء المعد فيه هذا البحث المتواضع.

• فما هو الكتاب القرآني الذي ننشده؟

إن معالم الكتاب القرآني الذي ننشده ونريد الوصول إليه تتجسد في أمور نذكر منها:

- استعادة الكتاب القرآني باعتباره مكانا لتحفيظ القرآن الكريم كلا
بالأساس أو بعضا.

- أن يكون الممارس والمحفظ في الكتاب شخصا حافظا لكتاب الله كاملا
ومؤهلا لتحفيظه.

- استعادة دور الألواح كأداة أساسية في التحفيظ، ولا مانع من استعمال
أدوات أخرى مساعدة ومكملة.

- أن يكون الكتاب في بيئة ووضعية عمرانية مناسبة تتوفر فيها الشروط
الصحية المطلوبة من تهوية وفسحة وسلامة ومرافق ضرورية.....

- تطعيم الكتاب القرآني بتعليم مهارات ومبادئ علوم وتربية معينة، من
مبادئ الإسلام وشعائره وأركانه ومبادئ وطنية، ومبادئ النظافة والتفتح على
المحيط المحلي والوطني والعالمي...

- أن يفتح الكتاب القرآني للمتمدرسين في التعليم العمومي ممن يريد
حفظ القرآن وفق برنامج وخطة محكمة ومضبوطة مناسبة.

- تكوين المدررين والمحفظين تكوينا تربويا وتعليميا أساسيا ومستمر
لاكتساب التمرن على الطرق الحديثة في التلقين والتعليم والتربية.

- الاستفادة من تجارب الكتاتيب القرآنية ودور التحفيظ في مختلف
البلدان الإسلامية.

المصادر والمراجع :

- 1) المدخل، لابن الحاج، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت والطبعة الإلكترونية ببرنامج جامع الفقه الإسلامي.
- 2) الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين، تحقيق أحمد خالد طبعة الشركة التونسية للتوزيع، وطبعة فؤاد الأهواني ضمن كتابه التربية في الإسلام، طبع دار المعارف بمصر.
- 3) ورقات عن حضارة المرينيين لأستاذنا وشيخنا المرحوم سيدى عبد الهادي المنوني، من منشورات كلية الآداب بالرباط، جامعة محمد الخامس
- 4) تاج العروس للشيخ الزبيدي طبعة دار الفكر، بيروت. كما تم الرجوع لطبعات إلكترونية عديدة.
- 5) نفح الطيب للمقري طبعة إحسان عباس.
- 6) الاستقصا للناصري طبعة دار الكتاب بالدار البيضاء.
- 7) مقدمة ابن خلدون، طبعات متعددة.
- 8) لسان العرب لابن منظور، طبعة دار صادر.
- 9) المعيار للنشرishi، طبعة وزارة الأوقاف ودار الغرب الإسلامي.
- 10) مدارس سوس العتيقة للفقهاء المختار السوسي.
- 11) المدرسة الأولى للفقهاء صالح بن عبد الله الإلغي.
- 12) الإجازة على تعليم القرآن لوسيلة بن حمدة، منشورات كلية الدعوة، طرابلس.

13 رسالة آداب المعلمين لمحمد بن سحنون، تحقيق أحمد الأهواني، دار المعار.مصر.

14 كتاب الأجوبة لمحمد بن سحنون، تحقيق حامد العلوي، طبعة دار سحنون تونس.

15 الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب.

16 تمهيد اللغة للأزهري، الطبعة الإلكترونية بالجامع الأكبر للتراث الإسلامي، شركة العريس وطبعة دار المعرفة بتحقيق رياض قاسم.

17 تخرّيج الدلالات السمعية للخزاعي طبعة دار الغرب الإسلامي.

18 التراثيب الإدارية للشيخ عبد الحي الكتاني.

19 كتاب العين للخليل بن أحمد.

البرامج الإلكترونية:

1 برنامج جامع الفقه الإسلامي، شركة حرف.

2 الجامع الأكبر للتراث الإسلامي، شركة العريس.

3 المكتبة الشاملة، برنامج مجاني.

الكتاتيب القرآنية بين عوامل النجاح وعوارض الإخفاق

محمد جميل مبارك

أستاذ بكلية الشريعة بأكادير وعضو المجلس العلمي بها

مقدمة

لا ريب أن الهدف من إنشاء الكتاتيب القرآنية ورعايتها ودعمها هو ربط نشأة المسلمين بكتاب ربهم تلاوة وحفظا وفهما وعملا، وهذا الربط ضروري لحماية الأجيال من الجهل بأصل دينهم ولتلاحم حلقات الحضارة التي لا تتماسك إلا باستمساكها بالعروة الوثقى التي لا يعرفونها انفصام.

وهذا هدف نبيل ومقصد شرعي يتنافس المتنافسون في تحقيقه باتخاذ جميع الوسائل والأسباب.

ومن أعظم وسائل تحقيقه تحبيب القرآن الكريم إلى نفوس الأجيال، وغرس عظمته في أعماق أفئدتهم، فإذا أحبوه أقبلوا عليه بكليتهم وأنفقوا في خدمته نفائس أعمارهم، وبذلوا في تحصيل علومه مكمون طاقاتهم.

وتجربة إنشاء الكتاتيب القرآنية بالمغرب تجربة متجذرة عبر التاريخ، مع التفات المهتمين إليها تطورا وتحسينا وتسديدا.

وقد آتت تلك الكتاتيب ثمارا طيبة وحققت نجاحا كبيرا عبر تاريخ الأمة لتوافر دواعي ذلك النجاح. وقد تعرض لها عوارض الإخفاق فتضعف ثمارها.

ومن ثم يحسن بحث عوامل نجاح الكتاتيب القرآنية لضمان استمرارها، وبحث عوارض الإخفاق لتفادي تسلطها، إذ لا يكفي سرد النجاحات التي حققتها هذه التجربة، بل لا بد من النظر إليها نظرة نقدية للتأكد من مدى

تحقيقها لأهدافها النبيلة. وللوقوف على مكانم الضعف والخلل في تسييرها إداريا وتربويا.

والنظرة النقدية للأشياء هي التي تفسح الطريق أمام العمل الرزين المتواصل، وتضبط منهج التسيير بإدراك عمق الواقع وقيمة الإمكانيات، وتسديد العمل المستقبلي.

ولذلك فالأمل كبير ألا تنفض مجالسنا من هذه الندوة إلا عن برنامج عمل محكم يصحح الأخطاء ويقوم الاعوجاجات. وينير معالم الطريق أمام المخلصين من ذوي النيات الحسنة ممن يحملون في جوانحهم أحاسيس الدفاع عن كتاب ربهم سبحانه وتعالى.

وسأتناول في هذا العرض أهم عوامل نجاح تجربة الكتابيب وأهم المشكلات التي تعترضها، على أن أعود بعد للتأمل في هذه المشكلات من أجل التوصل إلى علاجها، إذ وصف المشكلات لا يجدي إلا إذا أعقبه اقتراح للحلول، ووصف الداء لا يكفي حتى يتبعه وصف الدواء.

المبحث الأول: أهم عوامل نجاح الكتابيب القرآنية

تكاملت عدة عوامل فأمدت الكتابيب القرآنية بقوة دفع تمكنت بها من الاستمرار عبر أحقاب مديدة.

وأهم هذه العوامل هي: العامل الديني، والعامل التاريخي، والعامل التربوي، والعامل الاجتماعي، والعامل الحضاري.

وهي عوامل مرتبطة يغذي بعضها بعضا، لكنها تعود إلى العامل الأول وهو: العامل الديني.

ويتجلى هذا العامل الأصل في وصف الكتابيب بالقرآنية، فنسبتها للقرآن

الكريم يصبغها بصبغة تدعو كل محي القرآن الكريم إلى التواصل مع تلك الكتابات، وإلى الإقبال عليها والدفاع عنها ودعوة الأجيال إلى النهل منها.

وفي القرآن الكريم دعوة إلى خدمته بكل الوسائل التي منها الكتابات، فيصح القول: إن إنشاء الكتابات استجابة لدعوة القرآن الكريم إلى إنشائها، بما أنها وسيلة للتمكن من تلاوة القرآن وحفظه، ومن المقرر لدى العلماء أن الوسائل تعطي حكم المقاصد¹.

فالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الحاضرة على تعلم القرآن وتعليمه وتلاوته ونشره أعظم الدوافع لإنشاء الكتابات القرآنية وأعظم عوامل نجاحها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْغِزِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾².

وقد أطلق مطرف بن عبد الله على هذه الآية: "آية القراءة"³، ومن الأحاديث النبوية قوله ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"⁴، ومن تجليات كون هذا الحديث من أعظم الدوافع لتعليم القرآن الكريم أن التابعي الجليل أبا عبد الرحمن السلمي كان من رواة هذا الحديث عن عثمان بن عفان عن النبي ﷺ، وكان يعلم الناس في المسجد الجامع بالكوفة أكثر من أربعين سنة فكان يروي هذا الحديث ويقول: "هذا الذي أقعدي مقعدي هذا"⁵.

1- انظر مثلاً: القواعد والأصول الجامعة والفروق والتفاسيم البديعة النافعة للشيخ عبد الرحمن السعدي، طبعة الإمام الشافعي- الرياض ص10.

2- الآيتان 29-30 من سورة فاطر.

3- جامع البيان للإمام الطبري ج 132/133 ط مصطفى الحلبي.

4- أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه.

5- النشر في القراءات العشر للإمام ابن الجزري ج1/3.

ولفظ البخاري: "وأقرأ عبد الرحمن في إمرة عثمان حتى كان الحجاج⁶ وقال: وذاك الذي أقعدي مقعدي هذا".

ومنها: ما روى عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: "خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصفة فقال: أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق⁷، فيأتي منه بناقتين كوماوين⁸ في غير إثم ولا قطيعة رحم؟ فقلنا يا رسول الله نحب ذلك، قال: أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل"⁹.

فتعليم القرآن الكريم كان من أولى المهام التي حرص الرسول ﷺ على القيام بها، فكان يسند هذه المهمة إلى من لهم علم بالقرآن الكريم، وحرص على تعليمه لغيرهم.

ومن أمثلة ذلك ما رواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: "كان رسول الله ﷺ يشغل فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله ﷺ دفعه إلى رجل منا يعلمه القرآن"¹⁰.

وسرعان ما تطور تعليم القرآن الكريم فأصبح يمارس في مكان خاص يسمى الكتاب، وكان من نتيجة هذا التطور السريع أن كثرت أعداد حفاظ القرآن الكريم في عهده ﷺ، ويكفي دليلاً على ذلك أن عدد القراء الذين قتلوا من الأنصار يوم بئر معونة سبعون قارئاً، كما ثبت ذلك في الصحيح.

6- قال الحافظ ابن حجر: "بين أول خلافة عثمان وآخر ولاية الحجاج اثنتان وسبعون سنة إلا ثلاثة أشهر، وبين آخر خلافة عثمان وأول ولاية الحجاج العراق ثمان وثلاثون سنة، ولم أقف على تعيين ابتداء إقراء أبي عبد الرحمن وآخره فإله أعلم بمقدار ذلك" فتح الباري، ج 91/19 ط مكتبة الكليات الأزهرية.

7- بطحان والعقيق واديان من أودية المدينة.

8- الناقة الكوماء: المشرفة السنام العاليته.

9- أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه.

10- أخرجه أحمد في المسند، ج 324/5.

وكان عدد القراء في ازدياد مطرد بحيث تتنافس الأمصار الإسلامية في تكثير عدد الحافظين منها.

ومن أمثلة ذلك ما يؤخذ من رواية في صحيح مسلم أن "أبا موسى الأشعري" رضي الله عنه بعث إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرأوا القرآن، الخ¹¹ فوجود هذا العدد الضخم من القراء في مصر واحد برهان على تكاثر أعداد الحفاظ.

العامل التاريخي:

وهو عامل مترتب عما قبله ترتب الفرع عن الأصل، فالعامل الديني هو الذي جعل إنشاء الكتاتيب القرآنية على يد رسول الله ﷺ فور نزول القرآن الكريم كما تدل على ذلك الوقائع التاريخية المتعددة: فعلى إثر بيعة العقبة الأولى بعث النبي ﷺ مصعب بن عمير إلى المدينة وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، وكان يسمى المقرئ بالمدينة¹².

فمصعب بن عمير إنما نفذ الأمر النبوي بتعليم القرآن الكريم في المدينة ومثله في ذلك عبد الله بن سعيد بن العاص الذي أمره النبي ﷺ أن يعلم الكتاب بالمدينة، وكان كاتباً محسناً، وقتل يوم بدر شهيداً¹³.

والمراد بالكتاب: الكتابة، وهي وسيلة ضرورية لتعليم القرآن الكريم، ولذلك قال عبادة في رواية أخرى: "علمت ناساً من أهل الصفة الكتابة والقرآن..."¹⁴.

والظاهر أن ذلك كان بأمر النبي ﷺ. ومن بالغ عنايته ﷺ بتعليم أجيال الأمة

11- صحيح مسلم، كتاب الزكاة باب كراهة الحرص على الدنيا.

12- سيرة ابن هشام، ج 2 / 76 وتخريج الدلالات السمعية، للخزاعي ص 67.

13- الاستيعاب في معرفة الصحابة للحافظ ابن عبد البرج: 6 / 226 رقم الترجمة 1556، وتخريج الدلالات السمعية للخزاعي ص 70.

14- مسند الإمام أحمد، 315/5.

القرآن الكريم ما ثبت أنه جعل فداء بعض الأسرى في وقعة بدر مقابل تعليم عشرة من غلمان المسلمين القراءة والكتابة¹⁵.

وكان زيد بن ثابت ممن تعلم القراءة والكتابة بهذه الوسيلة كما صرحت بذلك رواية عند الإمام السهيلي¹⁶.

وللعنصر النسوي حضور في الاستفادة من هذه المهمة كما يؤخذ من رواية عند أبي داود أن النبي ﷺ قال للشفاء: "ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة؟"¹⁷.

فهذه رواية تبين أن الشفاء علمت حفصة زوج النبي ﷺ الكتابة، ولا شك أن الغرض الكبير من تعليمها الكتابة هو تلاوة القرآن الكريم وحفظه.

ومن هنا نص العلماء على إعطاء البنات حظهن من التعليم، قال القابسي رحمه الله: "أما تعليم الأئمة القرآن فهو حسن ومن مصالحها"¹⁸.

ويهدى استعراض مختلف الروايات في هذا الصدد إلى إثبات وجود نظام الكتاتيب في عهد النبي ﷺ، وقد روي عن ابن مسعود تصريح بذلك إذ قال: "قرأت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة وزيد بن ثابت له ذؤابة في الكتاب"¹⁹.

واستمر هذا النظام بعد ذلك في عهد الصحابة كما يؤخذ مما رواه الإمام

15- الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج 2 ق 14/1، وإمتاع الأسماع للمقريزي، ج 101/1.

16- الروض الأنف، ج 92/2.

17- أخرجه أبو داود في كتاب الطب باب ما جاء في الرقى.

18- الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، ص 129 وهي منشورة في بحث: الفكر التربوي عند ابن سحنون والقابسي، للدكتور عبد الأمير شمس الدين.

19- مسند أحمد، ج 389/1.

ولعل الذؤابة كانت شائعة لدى الأطفال في سن مبكرة كما تدل على ذلك هذه الرواية ورواية أخرى عن يزيد بن القعقاع أنه قال في الإمام نافع: أترى هذا كان يأتيني وهو غلام له ذؤابة فيقرأ علي... وفيات الأعيان، ج 275/6 ترجمة رقم 814.

البخاري تعليقا أن أم سلمة زوج النبي ﷺ بعثت إلى معلم الكتاب: ابعث إلي غلمانا ينفشون صوفا ولا تبعث إلي حرا" ²⁰.

وقد عزز هذا العامل بناء الحضارة الإسلامية على قواعد راسخة يعد الكتاب القرآني أحد أهم تلك القواعد.

فقد كان شائعا دخول أي طفل بلغ سن التعلم إلى الكتاب القرآني في المرحلة الأولى من مراحل التعليم، وعلى ذلك شواهد تاريخية كثيرة أهمها شاهدان:

الشاهد الأول:

أن تراجم مشاهير العلماء بمختلف تخصصاتهم عبر التاريخ، فيها إشارة إلى تلقينهم مبادئ الكتابة والقراءة وحفظ القرآن الكريم في الكتاب.

فهذا مالك بن أنس رحمه الله تحدثت كتب التراجم أن أمه وجهته إلى الكتاب فحفظ القرآن الكريم على الإمام نافع رحمه الله، وكان نافع ينعت بـ "مؤدب مالك ابن أنس" ²¹.

واستمر الكتاب على هذه الوتيرة حتى لا يكاد أحد يشتهر بالعلم إلا تعلم في الكتاب، وتراجم العلماء تنبئك عن ذلك إلى العصر الحديث إذ كان كل مشاهير علماء المغرب قد مروا بالكتاب أمثال المختار السوسي وعبد الله كنون ومحمد المنوني ²² وغيرهم كثير.

ولم يتأثر هذا النظام التعليمي إلا مع بداية الغزو الاستعماري لبلاد الإسلام

20- صحيح البخاري، كتاب الديات، باب من استعان عبدا أو صبيبا.

21- شرف الطالب بأسنى المطالب، لابن قنفذ ص 34 عن قراءة الإمام نافع للدكتور عبد الهادي حميتو ج 203/1.

22- تحدث الشيخ المنوني في سيرته الذاتية عن مرحلة التلقي فذكر أنه دخل الكتاب وعمره أربع سنوات، وتدرج في ثلاثة كتاتيب حتى أتقن حفظ القرآن الكريم. انظر: العلامة محمد المنوني-جمع وتعليق محمد بن عبد الله آل رشيد ص 33 فما بعد.

إذ فرض نظاما آخر للتعليم زاحم نظام الكتاب فحدث لأول مرة في تاريخ المسلمين أن يكون من أبنائهم من أتموا دراستهم دون أن يدخلوا قط الكتاب القرآني ودون أن يحفظوا شيئا من القرآن الكريم، وروي لأول مرة طلبة دخلوا الجامعة دون أن يحفظوا سورة الفاتحة.

الشاهد الثاني:

أن الكتب التاريخية طافحة بأسماء الكتاتيب وأسماء أصحابها، فهذا كتاب تاريخ المدينة المنورة لابن شيبه مثلا قد أورد أسماء لكتاتيب منتشرة في المدينة في القرن الثاني الهجري²³ وكانت هذه الكتاتيب هي المؤسسات التعليمية لعموم أبناء المسلمين إلى جانب المساجد التي كانت من أشهر الأماكن لتحفيظ القرآن الكريم وتدريس علومه²⁴.

كما تدل على ذلك الروايات التاريخية الصحيحة، كالرواية التي أوردتها الإمام مسلم في صحيحه بسنده إلى أبي إسحاق قال: رأيت رجلا سأل الأسود بن يزيد، وهو يعلم القرآن في المسجد، فقال: كيف تقرأ هذه الآية: ﴿فهل من مذكر﴾²⁵، أдалا أم ذالا؟ قال بل دالا، سمعت عبد الله بن مسعود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "مذكر" دالا²⁶.

23- أورد منها د. عبد الهادي حميتو: كتاب أبي زبآن، وكتاب ابن الخصيب وكتاب إسحاق الأعرج، وكتاب النصر، انظر قراءة الإمام نافع عند المغاربة، ج1/205.

24- وما روى عن مالك أنه سئل عن تعليم الصبيان في المسجد، قال: لا أرى ذلك يجوز لأنهم لا يحفظون عن النجاسة... الخ رسالة المتعلمين لابن سحنون ص65 محمول على ما إذا كان الأطفال في سن لا يعرفون فيها حرمة المسجد كما توضح ذلك رواية أخرى عن ابن القاسم قال: سئل مالك عن الرجل يأتي بالصبي إلى المسجد، أتستحب ذلك قال: إن كان قد بلغ موضع الأدب، وعرف ذلك ولا يعبث في المسجد فلا أرى بأسا، وإن كان صغيرا لا يقر فيه ويعبث فلا أحب ذلك " السابق ص 163-164.

25- من الآية 17 من سورة القمر.

26- صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين باب ما يتعلق بالقراءات.

العامل التربوي:

كان التزود بقدر من التربية من أهم عوامل انتشار الكتابات القرآنية، وقد لا يتاح لكل من دخل تلك الكتابات أن يتم حفظ القرآن الكريم فلا أقل من أن تعلق به بصمات تربوية ثمرة لوجوده في الكتاب في مرحلة طفولته ربما تصحبه طيلة عمره، ولا أقل من أن يشدو سورا وآيات قرآنية يؤدي بها الضروري من دينه، ويقيم بها علاقات دائمة مع القرآن الكريم.

وقد أكد علماء التربية المسلمون أن أول ما ينبغي تلقينه للأجيال هو القرآن الكريم وما يقرب الناس إليه، فقد نص ابن أبي زيد القيرواني في مقدمة رسالته على أن "أولى ما عني به الناصحون ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها، وتنبيههم على معالم الديانة وحدود الشريعة ليراضوا عليها، وما عليهم أن تعتقده قلوبهم وتعمل به جوارحهم، فإنه روي أن تعلم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله، وإن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر"²⁷.

وما دعا إليه ابن أبي زيد قاصدا به التذكير كان معمولا به عند المسلمين كما يدل عليه قول القابسي: "ما زال المسلمون وهم يرغبون في تعليم أبنائهم القرآن، وعلى ذلك يربونهم، وبه يتدوّنهم وهم أطفال لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا يعلمون إلا ما علمهم آبائهم"²⁸. وقوله أيضا: "وقد مضى أمر المسلمين أنهم يعلمون أولادهم القرآن، ويأتونهم بالمعلمين ويجتهدون في ذلك...."²⁹.

وإذا اقتضى الأمر أن يدفع ولي أمر الطفل أجرة على تعليمه القرآن الكريم

27- الرسالة، لابن أبي زيد القيرواني بشرح كفاية الطالب الرباني وحاشية العدوي، ج 30/1.

28- الرسالة المفصلة للقابسي، ص 23.

29- السابق، ص 127.

فلا يتوانى في ذلك "إلا والد جاف لا رغبة له في الخير"³⁰.

ويؤكد الفقهاء وعلماء التربية على السواء أن دخول الكتاب حق مكفول لكل الأطفال، وألزموا الأباء إدخال أبنائهم إلى الكتاب، حتى إن الفقيه الشوشاوي نقل عن القابسي قوله: "وينكل بمن امتنع من تسليم ولده إلى المكتب ويجبر على ما ينوبه من أجره المعلم ومن أبى طرد ونفي إن قدر عليه لهدمه ركنا من أركان الدين، ولا تجوز شهادته ويؤدب أدبا وجيعا"³¹.

فإن كان للطفل مال فعلى أبيه أو وصيه أن يؤجر المعلم على تعليمه القرآن من ماله الخاص، فإن لم يكن للطفل وصي فعلى حاكم المسلمين أن ينظر في أمره وأن يسير في تعليمه سيرة أبيه أو وصيه³².

وأجازوا للمعلم أن يأخذ أجرته على تعليم القرآن على ما استقر عليه رأيهم بعد خلاف سابق³³. بل إن بعض الفقهاء نظرا منهم إلى أهمية حفظ القرآن الكريم من قبل الأجيال ذهبوا إلى جواز أخذ الأجرة على ذلك ولو من المعروفين بعدم تحري الحلال، فهذا محمد ابن سحنون - قال بعد أن ساق الخلاف في ذلك - في أجوبته: "قال محمد: وأنا أقول: يسوغ لهذا العالم أن يعلم القرآن والشرعية ولا يبالي من أي شيء أخذ أجرته، إن كان المال حلالا أخذ منه أجرته حلالا، وإن كان المال حبيثا أخذ منه أجرته حلالا، وضمانه وإثمه على جاييه، فنفس واحدة إذا علمها القرآن والسنة وعلمها حقيقة دينها أكرم عند الله من ذهب الدنيا كلها وفضتها..."³⁴.

30- الرسالة المفصلة للقابسي، ص 128.

31- الفوائد الجميلة للشوشاوي، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ص 191-192 ولعل هذه الفتوى منقولة عن القابسي في كتاب آخر، ولم أجدها في رسالته المفصلة.

32- انظر الرسالة المفصلة، للقابسي ص 129.

33- انظر آراء الفقهاء في مسألة الأجرة على تعليم القرآن مثلا: الرسالة المفصلة للقابسي، ص 134 وما بعدها والفوائد الجميلة للشوشاوي، ص 281 فما بعد.

34- أجوبة محمد ابن سحنون 2/ 367-368 "مرقون" تحقيق د الحسن أشفري.

العامل الاجتماعي:

كانت نظرة المجتمعات الإسلامية إلى الكتابات القرآنية معروفة بالتقدير لما يشاهد من آثارها الإيجابية في حياة المتعلمين بها دينيا ودنيويا، فكانت رغبة عموم الناشئين في تحصيل المكانة الاجتماعية من أهم دوافع انتسابهم إلى الكتاب، لما يرمز إليه من الانتماء للطبقة المتعلمة عامة، ولما يحققه معظم الذين يلتحقون بالكتاب ويتخرجون منه من مطامح في مستقبلهم خاصة.

وقد يكون هذا وجها من أوجه تفسير كون معظم القراء من الموالي وليسوا من العرب³⁵، فالإمام نافع مثلا مشهور بالإقراء وهو مولى، وكان توليه للإقراء في الكتاب بعد تعلمه فيه قد أهله ليحفظ القرآن الكريم مشاهير أئمة العلم والهدى في المدينة المنورة أمثال مالك بن أنس.

وقد استفاد الموالي أيما استفادة من نظرة عموم الناس التقديرية للقرآن الكريم ولحملته منذ عهد الصحابة، فكان الموالي يتولون مناصب سامية لم يؤهلهم لها إلا القرآن الكريم. ومن أدلة ذلك ما روى مسلم في صحيحه أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي؟³⁶ فقال: ابن أبزى، قال "ومن ابن أبزى قال: مولى من موالينا قال: فاستخلفت عليهم مولى قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين³⁷.

35- قال الإمام الشاطبي رحمه الله بعد ذكره للقراء السبعة:

أبو عمرو هم واليحصبي ابن عامر صريح وباقيهم أحاط به الولا

حرز الأماني، المقدمة.

36- يعني أهل مكة.

37- صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين باب فضل من يقوم بالقرآن.

المبحث الثاني: عوارض الإخفاق للكتاتيب القرآنية

الغرض من هذا المبحث هو إثارة انتباه صادقي النيات المشفقين على مصير الكتاتيب القرآنية كي يتعاونوا جميعاً على تجنبها الآثار السيئة لعوارض الإخفاق التي تعرض لها.

ويمكن تقسيم المشكلات التي تعترض الكتاتيب القرآنية إلى أنواع:

النوع الأول:

مشكلات تتعلق بالمدرسين، وهي إما مشكلات خلقية وإما مشكلات ثقافية وعلمية، وإما مشكلات تربوية، مع ملاحظة الترابط بين المشاكل الخلقية وبين المشاكل التربوية.

فمن أهم المشكلات الخلقية التي يعانيها بعض المدرسين:

أ- مشكل رداءة المزاج وحفاء الطبع بالغلظة والقسوة وسرعة الغضب والمبالغة في ضرب التلاميذ، وهذا المشكل ينعكس على نفسيات التلاميذ وينبت فيها عقدا تنامي بمرور الزمن إلى أن تصبح متجذرة يصعب اقتلاعها، وربما تسكن فيهم طيلة حياتهم.

ولا شك أن هذا المشكل ليس ناتجاً عن سوء نية المدرس، فالمدرس لا يقبل على التدريس إلا عن حسن نية وأمل في الثواب ورغبة جامحة في تقدم تلاميذه في الحفظ، وإنما ينتج في الغالب عن عدم الإلمام بالطرق التربوية أو عن ترسبات في الطبع يصعب التغلب عليها، أو عن فلسفة لا تستند إلى أسس معتبرة. وقد أخبرني ثقة أن مدرساً مخلصاً نحسبه كذلك اتخذ لنفسه عادة لا تتخلف عنده أبداً وهي أن التلميذ يذهب إليه لأول مرة للشروع في حفظ القرآن الكريم لا بد أن يقوم بضربه ضرباً مبرحاً، سواء أحفظ أم لم يحفظ، أصاب أم أخطأ،

أحسن أم أساء، لا بد من استقباله بفروض الضرب، من أجل أن يتأكد المدرس -زعم- من استعداد هذا التلميذ لتحمل أعباء الطريق وتحمل الأذى من أجل الوصول إلى غاية حفظ القرآن الكريم، وإلا فليفسح المجال لغيره ولا يضيع للمدرس ولا للتلاميذ أوقاتهم.

ب- مشكل الشتم واستعمال الألفاظ البذيئة المحطمة لمعنويات التلاميذ، وقد يكون المدرس متوهماً أن هذا الأسلوب يحفز هم التلاميذ على الإقبال على الحفظ وقد تلاشت حظوظ أنفسهم فلا يبالون بما يلاقونه من الشتم والإهانة، ناسياً أن هذا مخالف للمنهج الإسلامي في التربية من جهة، ومعرقل لسير التلاميذ في طريق حفظهم للقرآن الكريم من جهة ثانية.

وقد كره علماء التربية المسلمون شتم المتعلمين وسب أعراضهم، فلا يخاطب طفلاً بقوله "يا مسخ، يا قرد" إلا من لا يعرف لأطفال المؤمنين حقاً³⁸.

وقد أورد الإمام الغزالي من وظائف المعلم "أن يزرع المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن، ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ"³⁹...

ج- مشكل الغرور، فقد يصاب بعض المدرسين بالغرور الناتج عن تضخيم مجهودهم، وثناء الناس عليهم، والتأدب البالغ للتلاميذ أمامهم، وينشأ عن الغرور عدم تقبل أي ملاحظة أو نقد أو نصيحة أو توجيه.

وهذه الأخلاق تسري في نفوس التلاميذ سريان التيار في السلك، لاسيما وأن التلاميذ ينظرون إلى أخلاق وتصرفات المدرس نظرة اقتداء، فينشأ عندهم من الأخلاق والطباع ما قد نشأ عنده، وقد روي أن عمر بن عتبة قال لمعلم

38- الرسالة المفصلة للقايسي، ص 151.
39- إحياء علوم الدين، ج 1/ 63، ط مصطفى الحلبي.

ولده: "ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقبيح عندهم ما تركت"⁴⁰.

ومن أهم المشكلات الثقافية والعلمية:

1- مشكل الجهل وعدم توفر أي نصيب من التفقه، فكثير من المدرسين لا يتوفرون إلا على حفظ القرآن الكريم حفظا حرفيا مجردا عن أي فهم لأي معنى، ولا يشك أحد أن حفظ القرآن الكريم في حد ذاته يعد منقبة عظيمة لصاحبه، ولست ممن يقول: إن حفاظ القرآن الكريم ليسوا سوى أدوات تسجيل تحمل مصاحف، ولكن الحفظ وحده لا يمكن من إنشاء جيل قرآني مولع بالكتاب والسنة.

فلا أقل من أن يكون المدرس ملما بقدر من قواعد اللغة العربية، وبقدر من تفسير القرآن الكريم، وبقدر من السنة والسيرة النبويتين، وبمبادئ في الفقه، وهذا القدر ربما لا يكون المدرس معذورا بعدم تحصيله إن أراد أن يكون لتدريسه أثر في نفوس التلاميذ.

وإذا رجعنا إلى التاريخ الإسلامي فسنجد أن أغلب القراء المدرسين كانت لهم مشاركات علمية إلى جانب ما يتخصصون فيه من قراءة وإقراء.

وتتفرع عن هذه المشكلة مشكلات أخرى كمشكلة عدم متابعة الأحداث، والانقطاع عن المطالعة والقراءة التي تمكن من التحسين المستمر للمستوى التربوي والخلقي والعلمي للتلاميذ.

نعم قد نكون في حاجة إلى مدرس لا يتوفر إلا على حفظ القرآن الكريم، وفي هذه الحالة يمكن أن يعمل مدرسا مساعدا أو معيدا تحت إشراف مدرس

40- العقد الفريد، ج1/363.

آخر توافرت لديه المؤهلات العلمية.

2- مشكل الجهل بقواعد التلاوة، فمن المدرسين من يقرأون القرآن هذا كهذا الشعر، لا يعرفون قاعدة ولا يحترمون مقياسا، ويقرئ كما يقرأ فينشأ التلاميذ وغايتهم إتقان حفظ الحروف دون معرفة لأدنى قواعد التجويد وهذه مشكلة تعانيها بلادنا منذ زمن، مع أن القراء المغاربة يعدون من أساتذة القراءات عبر التاريخ المجيد لهذا الفن، إلى أن أصاب الانحطاط والتدهور جميع المجالات في الأمة ومنها مجال القراءات، والحمد لله أن الحفظ موفور لم يصب بأي نقص.

وقد نشأ من هذا تقابل في العصر الحاضر بين المغاربة والمشاركة من حيث إن المشاركة يهتمون بإتقان التلاوة أكثر مما يهتمون بالحفظ، والمغاربة على العكس منهم يهتمون بإتقان الحفظ أكثر مما يهتمون بإتقان التلاوة، وما أحسن الحفظ وإتقان التلاوة إذا اجتماعا.

ومن أهم المشكلات التربوية البيداغوجية:

أ-عدم تقدير مدارك التلاميذ وملكاتهم في الحفظ والاستيعاب، فكثيرا ما يكلف المدرس التلاميذ أكثر من طاقتهم رغبة منه في الإسراع في الحفظ، وربما يغتر بالحفظ السريع المؤقت الذي يتلاشى مع مرور الأيام، فيؤدي ذلك إلى ملل التلاميذ وربما إلى إعراضهم نهائيا عن الحفظ.

وفي كثير من الحالات لا يمكن التلاميذ من فرصة الاستراحة التي تجدد النشاط الذهني وتخلص النفس من الملل.⁴¹

41- والاستراحة تتخذ أشكالا متعددة كالتوقف تماما عن مواصلة الحفظ لمدة قصيرة، وذلك في حالة ما إذا كان التلاميذ مرهقين نتيجة لمواصلتهم للحفظ لمدة طويلة دون توقف، وكالاتقال إلى نشاط آخر مكمل كسرد شيء من كتب التفسير أو الحديث أو الأدب، على أن يكون مجرد سرد من المدرس، والتلاميذ ينصتون، ويشرح لهم المعنى العام في جو من الانبساط.

وعلى العكس نرى بعض المدرسين لا يستغلون طاقات التلاميذ بل يتركون نسبة كبيرة من الطاقات تضيع سدى، وقد يقضي التلميذ سنوات في الكتاتيب القرآنية دون أن يحفظ إلا النزر اليسير، وهذا من سوء التقدير للأعمار.

ب- عدم الانضباط في التحفيظ، وهذا من أهم المشكلات التربوية فحين تنقطع الحصص التدريسية لتكرر غياب المدرس أو لكثرة أسفاره، دون أن يقوم أحد مقامه للتسيير بنفس الوتيرة التي يسير بها المدرس، يشعر التلميذ بالارتقاء والكسل، وتضعف حصيلتهم في الحفظ والإتقان.

ج- عدم تأثير تدريس القرآن الكريم في أحوال بعض المدرسين حين ينعدم الانسجام بين حال المدرس وما يدعو إليه القرآن الكريم من الإخلاص لله تعالى والوقوف عند حدوده كما رسمها القرآن الكريم، والزهد في زخرف الحياة الدنيا، والصدق والأمانة والتواضع والحياء.

وهذا مشكل تربوي وخلقي معا، وهو مشكل يتسرب إلى التلاميذ الذين يتربون على يد المدرس وينظرون بتقدير شديد إلى أحوال المدرس.

وقد عانى عدد من الكتاتيب القرآنية والمدارس العلمية هذا المشكل بصورة حادة وانعكست آثاره على المجتمع بشكل عام وعلى المترددين على الكتاتيب بشكل خاص.

د- عدم الربط بين تحفيظ القرآن الكريم وبين التأديب بآداب الإسلام، وهذا المشكل مرتبط بالذي قبله أو هو نتيجة له، فالمدرس حين يفقد تمثل القرآن الكريم في خاصة نفسه فلن يربط بين تحفيظ القرآن الكريم للتلاميذ وبين تأديبهم بآداب الإسلام.

وقد اهتم علماء التربية المسلمون بهذا الموضوع حين أكدوا أن "من أهم ما

يبادر به اللبيب شرح شبابه، ويدأب نفسه في تحصيله واكتسابه حسن الأدب... وإن أحق الناس بهذه الخصلة الجميلة وأولاهم بحيازة هذه المرتبة الجليلة أهل العلم"⁴².

قال مخلص بن الحسين ت 191 لابن المبارك: "نحن إلى كثير من الأدب أحوج منها إلى كثير من الحديث"⁴³.

وقد يتولد عن هذا المشكل والذي قبله اضطراب العلاقة بين التلميذ ومدرسه، بل قد يهجره حين يبلغ ويدرك حلاوة ما كان يفقده في صغره أو مرارة ما علق به في صغره احتجاجا على تقصير المدرس في جعله من أهل القرآن الكريم حقيقة، وقد رأيت حالات من الهجر بسبب ما ذكرته.

النوع الثاني: مشكلات تتعلق بالطلبة والتلاميذ

ومن أهم هذه المشكلات:

أ- عدم التفرغ الكامل لحفظ القرآن الكريم، فالتلميذ لا يسرع في الحفظ ولا يتقنه إلا إذا كان متفرغا كامل التفرغ لهذه المهمة، وشغل التلميذ بأي شغل آخر خارج الكتاب أو داخله يعد عائقا كبيرا يحول دون التقدم في الحفظ.

ومن مظاهر هذا المشكل مزج الحفظ بأشياء أخرى قد تبيل الفكر وتشتت الذهن وتؤدي إلى التعثر في الحفظ أو الإعراض عنه بالكلية.

وهذا المزج قد يكون داخل الكتاب بمطالبة التلميذ بتحصيل معلومات أخرى يستغرق تحصيلها وقتا طويلا، والتجربة أثبتت أن التلميذ في صغره ينبغي استثمار أكبر أوقاته في الحفظ، وإذا فرضت معه أمور أخرى فلتكن بالقدر الذي

42- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة الكندي، ت 733/ص 1 و2.

43- السابق ص3.

لا يحول دون المهمة الكبرى وهي الحفظ، وقد يكون خارج الكتاب بتكليف التلميذ من قبل أوليائه بالقيام بأعمال تافهة بالمقارنة مع الحفظ.

هذا إذا كان التلميذ متفرغا للحفظ، أما إذا كان يدرس بالمدارس الحكومية أو الخاصة فيمكن تنظيم باقي أوقاته ليحصل بشكل جيد مقادير مناسبة من الآيات القرآنية بحيث يرسم له منهج يجمع بين مواصلة الدراسة في المدرسة النظامية وبين تحصيل الحفظ في الكتاب مع مراعاة قدراته في الجمع بين المهمتين.

ب- مشكل التفاوت الكبير في السن، ويتمثل هذا المشكل في شعور الكبير بحرج حين يحفظ إلى جانب الصغار، وفي شعور الصغير بهيبة أو خوف حين يحفظ إلى جانب الكبار، وإذا لم يمكن الاقتصار على الجمع بين المتقاربين في السن والفصل بين المتفاوتين بسبب ضيق المكان، أو بسبب عدم توفر الإمكانيات المادية لتوظيف مدرس للكبار وآخر للصغار، فمن براعة المدرس أن يحل بحكمته مشكل التفاوت هذا بزرع روح التنافس الشريف بين الجميع وبغرس الاحترام بين الصغار والكبار، وبإشعار التلاميذ أنهم جميعا يستهدفون هدفا ساميا وهو تحصيل حفظ كتاب الله الموصل إلى مرضاة الله.

ج- بروز بعض الأخلاق السيئة والعادات القبيحة التي ينشرها بعض الطلبة الذين يحملون أمراضا خلقية ناجمة عن تفاعلات اجتماعية معينة كفرط الغنى أو فرط الفقر أو الاحتكاك بقرناء السوء أو الانفلات من مراقبة الأولياء.

وهذا المشكل يحرج التلاميذ الذين لم تعرف إليهم هذه الأخلاق السيئة سبيلا من قبل، كما يحرج آباءهم تخوفا من علوق بعض تلك العادات السيئة بأبنائهم.

ولمعالجة هذا المشكل لا بد من التعاون الدائم بين المدرس وتلاميذه

وأوليائهم، والمشرفين على الكتاتيب القرآنية حتى تترسخ لدى الجميع العادات والأخلاق التي يجب أن تسود في الكتاتيب القرآنية والتي تناسب مكانة القرآن العظيم.

النوع الثالث: مشكلات تتعلق بالإشراف العلمي والتسيير الإداري

وهي مشكلات ذوات عدد، وأهمها:

أ-مشكل النقص المالي الحاد، وهذا أكبر المشاكل المادية، فقد يكون الجانب التسييري النظري جيدا لدى المشرفين، لكن أياديهم مكتوفة نظرا لانعدام الرصيد المالي الكافي لتنفيذ الخطط المرسومة.

وأول ما تبدو فيه مظاهر هذا المشكل بناية الكتاب نفسها، فقد يضطر المشرفون إلى كراء منزل ضيق مظلم لا يتسع لاستقبال كل الرواد ولا يساعد التلاميذ على الإقبال على الكتاب، وبعض الكتاتيب القرآنية يستفحل فيها هذا المشكل حتى إنها لا تجد ما تسدد به قيمة الكراء أو فواتير الماء والكهرباء أو أجرة المدرس الزهيدة أصلا، وتضطر لاستجداء بعض المحسنين.

ولهذا المشكل ظلال قائمة على كل شؤون الكتاتيب القرآنية، إذ يجرمها من القيام بأهم وظائفها من تحفيظ القرآن الكريم ومن تعليم مبادئ العلوم الإسلامية، ومن اقتناء الكتب التي يحتاج إليها الرواد، ومن التكافل العلمي بين المسلمين بما تقدمه من الخدمات التعليمية لأبناء الطبقات الفقيرة، ومن رعاية اجتماعية علمية للأيتام والأرامل والفقراء.

وأسباب هذا المشكل فيما يبدو لي أربعة:

1- ضعف الرباط الذي يربط القاعدة الشعبية بالكتاتيب القرآنية تمويلا ورعاية وتعميرا وتعلima، والتعليم الإسلامي في الكتاتيب والمدارس العلمية مرتبط

في مختلف المراحل التاريخية بالقاعدة الشعبية ويقوى ويضعف بقوة وضعف الارتباط بتلك القاعدة.

2- قلة وعي المواطنين بأثر الكتابات القرآنية في حماية أجيالهم من الضياع والتسيب التربوي، ومن أجل ذلك فلا يجودون عليها بما يضمن مواصلة سيرها. ويشهد نقصان هذا الوعي لدى بعض الأثرياء الذين يبدون أموالاً ضخمة في أمور ثانوية، ويقتررون في الإنفاق على مراكز التحفيظ والتعليم.

3- كثرة الكتابات القرآنية في محيط متقارب، فتشتت الجهود التمويلية بينها كما تشتت جهود المؤطرين الذين يشعرون بضغط العمل في أماكن كثيرة، فلا يقدرّون على إتقان عملهم في التأطير ولا على الاستجابة لجميع الرغبات في مختلف الكتابات في ذلك المحيط فيصير المنفقون والمؤطرون كالمثبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، ولو تجمعت جهود هؤلاء المؤطرين والمنفقين حول كتاب واحد في المحيط الواحد لكان الأثر أظهر ولكانت النتيجة أعظم.

صحيح أن تباعد الكتابات القرآنية يحرم كثيراً من الشباب الراغبين في حفظ القرآن الكريم، كما يحرم كثيراً من العائلات من تحفيظ أبنائهم القرآن الكريم. ولكن يمكن حل هذا المشكل بأن يكون في المحيط الواحد كتاب واحد يكون أصلاً لكتاتيب صغيرة، يتلقى فيها الأطفال الصغار مبادئ التعليم، حتى إذا عقلوا انتقلوا إلى الكتاب الأم.

4- تقصير الجهات المسؤولة عن التعليم في الإنفاق على الكتابات القرآنية، فقد تنفق بسخاء على مراكز ومؤسسات قد لا تحقق مصالح معتبرة للأمة كتلك التي تحققها الكتابات، بينما تهمل إهمالاً شديداً هذه الكتابات لأسباب ليس هذا محل شرحها.

ب- مشكل غياب تخطيط محكم بعيد المدى يحدد معدل المدة اللازمة لحفظ القرآن الكريم، وعدد التلاميذ الذين يتقنون حفظ القرآن الكريم في سنوات محددة.

ويجب تفادي أي إخلال بمضمون هذا التخطيط إلا في حالات نادرة توجبها ظروف طارئة لم تكن في الحسبان.

وهذا التخطيط لا يرسم إلا بعد دراسات متأنية يقوم بها المشرفون على الكتاتيب، وتتم مراجعته بعد كل مدة للتأكد من مدى سلامته ومن قدرة الكتاتيب على تنفيذ جميع فقراته.

وما حل هذه المشكلات التي ذكرت وغيرها مما لم يذكر بعزير على الحريصين على الكتاتيب القرآنية الذين يسعدهم أن يكابدوا كؤود العقبات حتى يحولوا الكتاتيب إلى محاضن طيبة تخرج منها كتائب تحمل راية القرآن الكريم، عدتها الإيمان والعمل المتواصل، والاستمساك بالسنة النبوية الشريفة، وذلك هو أملنا جميعا، ونرجوا أن يتحقق بفضل الله.

دور الكتاب القرآني في الحفاظ على القرآن الكريم بالمغرب

محمد حافظ

رئيس المجلس العلمي المحلي ببني ملال

تمهيد

ارتبط وجود القرآن الكريم بالمغرب بالفتح الإسلامي، إذ القرآن الكريم هو الأصل الأول من أصول التشريع الإسلامي، حيث الأصول الأخرى تأتي بعده اتباعا حسب المراتب.

ولا غرو أن عمد الفاتح عقبة بن نافع رضي الله عنه عندما فتح المغرب سنة 62هـ إلى إسناد مهمة تحفيظ القرآن الكريم إلى بعض العلماء، من أمثال شاكر بن عبد الله الأزدي صاحب الرباط المشهور. ومنذ ذلك التاريخ إلى اليوم توثقت الصلة بين المغاربة والقرآن الكريم بفتح صدورهم لهذا الكتاب الكريم، وسلكوا من أجل حفظه وإتقانه جميع السبل في الحواضر والبوادي، فعمت نعمة القرآن السهول والوهاد، والجبال ترد أصدااء تلاوة القرآن الكريم بأصوات مرتفعة، فكان في كل مدشر مسجد أو كتاب، وفي كل ناحية مدرسة أو زاوية لحفظ القرآن أو ترتيله، فعرف المغاربة بحفظة القرآن الكريم.

فإذا كانت الغاية قد تحققت فماذا عسانا أن نفعل الآن لاستمرار الكتاب والمسجد في أداء هذه المهمة النبيلة؟

لا يجادل أحد في المهمة النبيلة والدور التربوي الأصيل الذي أداه الكتاب القرآني في الماضي البعيد والقريب، وما سيؤديه في الحاضر والمستقبل من تكوين الفرد المغربي المسلم تكوينا أصيلا جعله في مأمن من الزيغ العقدي والتيه المذهبي،

وجعل هذا التكوين الأصيل من المغربي عملة نادرة قبله للتداول في جميع أنحاء الدنيا، قابلة للاندماج في أي محيط إنساني، كما ساهم هذا التكوين الأصيل - على الصعيد الداخلي - في الحفاظ على وحدة الأمة في عقيدتها وعبادتها، مما أهلها للاستقرار والاستمرار في نسق بين مكونات الأمة دون شذوذ أو انشاز. وعلى هذا الأساس فالوسيلة التربوية التي أعطت هذه النتائج جديرة بالبعث والإحياء.

وإحياء هذا الإرث الحضاري التربوي الذي يمتاز به المغرب ينبغي أن يكتسي صبغة استعجالية، لاسيما والعهد لا يزال قريباً، قبل أن تندثر الفلول الباقية ممن تلقوا هذا التعليم ومارسوه من حفظة القرآن الكريم، الذين تعلموه وعلموه بالطريقة التقليدية وبالمشافهة والمباشرة من أفواه الشيوخ المغاربة، الذين تلقوه بدورهم مشافهة عن شيوخهم بالدور والتسلسل إلى النبي ﷺ.

إذن فالاستمرارية تقتضي مواصلة التجربة، والحفاظ على المكتسبات التي سيضاف إليها ما تدعو الضرورة إليه من إيجابيات تطور العصر والتقدم الحاصل في الحياة، واستغلاله لصالح المستفيدين كاختزال المدة الزمنية، كما سيأتي ذلك بالتفصيل في آخر العرض.

ومما يتطلبه الطابع الاستعجالي إضافة هذه الدرة الغالية من عقد حسنات العهد الجديد إلى جواهر المنجزات العظيمة التي يقف أمير المؤمنين جلالة الملك سيدنا محمد السادس على إنجازها وتتبعها برصد الجوائز والمحفزات للفائزين من المشرفين على الكتابات القرآنية إلى جائزة أصغر حافظ ليلة القدر من كل سنة.

أضف إلى ذلك الإقبال التلقائي على القرآن الكريم، وتعطش المغاربة من مختلف الأعمار للرجوع إلى النبع الصافي، إلى كتاب الله العزيز، وهذه المؤشرات

كلها تؤذن بنجاح العودة إلى الكتاب القرآني مرة أخرى.

وبعد هذه التوطئة، أخلص إلى أن الموضوع سيكون عصارة تجربة مكتسبة أملتھا ظروف عاشھا كاتب الموضوع داخل الكتاتیب القرآنیة والمساجد والزوايا زمن الطلب والحفظ بجميع المراحل، وفي معظم مناطق المغرب وانتھاء بمدرسة سيدي الزوين الشهيرة.

وسأحاول حصر حديثي في الموضوع حول الوسائل والطرق الناجعة المعتمدة عند المغاربة في تحفيظ القرآن الكريم وإتقان رسمه بالتفصيل، باعتماد الإشارة والتركيز على:

- البرنامج
- الآلات والطرق والوسائل الفعالة
- بعض الخصوصيات المغربية المساعدة
- الأنشطة الموازية
- خلاصة واستنتاج واقتراح

البرنامج

فالفقيه أو الطالب، حسب التعبير الشائع في المغرب، فحبذا لو اقتصرنا على استعمال الفقيه أو الطالب بدل المدرر لكون الفقيه لا يتعامل في الكتاب أو المسجد مع الصبيان وحدهم، بل يوجد إلى جانب الصبيان يافعون وبالغون وشباب في المراحل النهائية من الحفظ قبيل التخرج والاعتراف بالتأهيل للإمامة ومزاولة التحفيظ.

وبعد تحديد مفهوم المصطلح انطلاقا من نوعية الفئات العمرية المستفيدة من

عمل الفقيه، ننتقل إلى التعريف بالبرنامج، وهو كيفية استعمال الفقيه للزمن، وتختلف برامج الفقهاء معلمي الكتابات حسب المناطق، ويمكن تقسيم الحديث عن البرنامج على الشكل التالي:

1. البرنامج اليومي

2. البرنامج الأسبوعي

3. البرنامج السنوي

والبرامج لا أتحدث عنها كنماذج تحتذى الآن، وإنما من أجل استنطاق ذاكرة الكتاب لنحتفظ بالجانب الإيجابي منها، ونتجنب الجانب السلبي مساهمة ظروف العصر واستغلال الزمن لصالح المستفيد لتكوينه في هذا الميدان ، كعنصر بشري يجب استثمار تجربته في بناء هذا الوطن في جانبه الروحي ، والتربية على المواطنة الأصيلة.

- **فالبرنامج اليومي** في أماكن تحفيظ القرآن الكريم سواء تعلق الأمر بالمسجد أو الزاوية أو بعض الكتابات يبدأ العمل قبل أذان الفجر، وهذا ما يعرف بـ"السروية" في عرف أهل الاختصاص، وهذا الاستيقاظ باكرا للمراجعة الفردية لما حفظه المتعلم بتكراره بالتتابع يوميا قبل صلاة الصبح وبعد صلاة الصبح وقراءة الحزب الراتب يشرع المتعلمون في قراءة الألواح إما على ضوء الشموع أو على ضوء نار يلتف المتعلمون حولها إلى طلوع الشمس حيث عرض الألواح على الفقيه الذي له وحده الصلاحية -بعد تقويم عملية الحفظ- أن يأمر بالحو أو بمزيد من التكرار إلى وقت الضحى أو تؤجل إلى الغد إذا كان الحفظ غير متقن، وغالبا ما ينخرط الجميع في عملية الكتابة قبيل الذهاب إلى تناول الإفطار أو بعده.

وتتم عملية الكتابة حسب درجات المتعلمين وأعمارهم، فالفقيه أو من ينوب عنه من كبار تلاميذه يقوم بكتابة ألواح الصبيان الصغار.

والطبقة الثانية التي يرى الفقيه أنها مؤهلة لتعلم مهارة الكتابة يقوم الفقيه برسم الكلمات بواسطة يراعه القصبي بدون صمغ أو بواسطة قلم الرصاص أحيانا فيقوم المتعلم باتباع كتابة الحروف على خطى الفقيه وهو ما يسمى بالرشم أو "التحناش"، ثم يملئ عليه كلمة أو كلمتين بدون تحناش اختبارا لمهارته، وقد تطول أو تقصر هذه العملية حسب قدرات التلميذ.

والطبقة الثالثة وهي الفئة التي تستطيع الكتابة وتلتف حول الفقيه تستمليه فيملئ على كل واحد بالتناوب كلمتين أو ثلاث كلمات وتسمى هذه العملية بـ "الإفتاء" وهو غير الإفتاء الشرعي المعروف وإنما هي إملاء.

والطبقة الرابعة طبقة الحافظين الذين يكتبون من حفظهم وغالبا ما يتعدون عن الفقيه شيئا ما بقدر ما يمكن أن يلاحظهم ويراقب عملهم لكي لا يكتبوا الألواح من المصاحف.

وبعد انتهاء عملية الكتابة يقوم الفقيه بتصحيح الألواح وتنبيه المتعلمين إلى الأخطاء التي قد يرتكبونها في المتن أو الرسم، وغالبا ما يتم التعليق على ذلك بكتابة الكلمة الصحيحة بخط واضح أسفل اللوح أو أعلاه ما بين السطر الأول والبسملة، وغالبا ما يكون التعليق بواسطة النص أو بذكر مثيلات للكلمة المصححة.

ثم يقوم الفقيه بسلك الألواح مع المتعلمين من أجل تثبيتهم على الأداء الجيد من ناحية المتن والصوت فإذا تمت هذه العملية كانت بمثابة الضوء الأخضر لحفظ ما كتب في اللوح على أساس أنه أداء كامل للقرآن الكريم صوتا وأداء

ورسماً، ثم يتفرق المتعلمون في أركان المسجد أو الكتاب كل يتلو لوحه ويحفظ ما كتب له من "الأنصاف" أسفل اللوح ومن حين لآخر تسمع أحدهم يندد بهذا النص أوذاك من أجل التكرار والحفظ وربما ترويحاً عن النفس.

ومن العمل اليومي للمتعلم تكرار الجزء من القرآن الكريم الذي محاه ذلك اليوم (تمحيث) سواء كان ذلك ثمن الحزب أو الربع أو النصف يكرره بعد الحو مباشرة، في الوقت الذي ينتظر فيه نشف اللوح تحت أشعة الشمس وإعداد الدواة والقلم للكتابة، لأن الفقيه في المسجد أو الكتاب يوصي المتعلمين بعدم هدر الوقت واستغلال الزمن بقراءة (الحية) أو (تمحيث) والخامسة الجديدة في الطريق في الذهاب والعودة من تناول الوجبات الغذائية.

وغالبا ما ينتهي عمل الفترة الصباحية في الساعة الحادية عشرة، ليستأنف العمل بعد صلاة الظهر إلى بعد صلاة العصر، لتستمر عملية قراءة المحفوظ وتكراره عن ظهر قلب إما فرادى أو جماعات إلى قبيل صلاة المغرب، حيث تقرأ الألواح إلى أن يؤذن المؤذن أو أحد التلاميذ لصلاة المغرب ثم بعد قراءة الحزب الراتب تقرأ الألواح على ضوء نار توقد لهذا الغرض ويسمي الفقهاء ومتعلمون هذه القراءة بـ (أعاد) في مناطق سوس والأطلس الكبير ودادس بإقليم ورزازات. هذا ما كان قبل، أما الآن فيمكن استغلال الكهرباء، وبهذه العملية ينتهي العمل اليومي في الكتاب بالنسبة للفقهاء المخلصين في عملهم.

البرنامج الأسبوعي فيبدأ العمل بالكتاب بعد صلاة الجمعة أو بعد صلاة الظهر إذا كان الكتاب تابعا لمسجد لا تقام به صلاة الجمعة، ليتوقف العمل عشية الأربعاء ويوم الخميس وصباح الجمعة في غالبية المساجد. أما إذا كان الغرباء الأفاقون (المسافرية) يوجدون ضمن المتعلمين بالمسجد فإنهم يكتفون بقراءة المحفوظ (الأسوار)، أو حفظ بعض المتون، أو الإخلاص إلى الراحة وقضاء بعض المآرب.

البرنامج السنوي، فهو عبارة عن عمل متواصل تتخلله وقفات واستراحات (العواشر) بمناسبة الأعياد والمناسبات الدينية، وبعض الأفاقين من كبار المتعلمين تلجئهم الحاجة لمغادرة المسجد في الصيف سعياً وراء جلب البلغة عن طريق (أدوال) استعداداً لاستئناف الحفظ والدراسة في بداية الخريف.

والرجاء مأمول في المسؤولين في الوزارة أن يتم تفادي مثل هذه العوائق في الكتاب، لتتجه همم المتعلمين إلى الحفظ والتحصيل دون انقطاع، ليتم الحفظ الكامل من قبل المتعلمين في زمن أقل مما كان عليه الأمر في الماضي.

ولنتنقل إلى بعض الوسائل المعينة على الحفظ والإتقان عند المغاربة

الآلات والطرق والوسائل الفعالة

سأحاول الحديث حول جميع الوسائل الناجعة التي أعطت ثمارها وأدت إلى الهدف المنشود: "حفظ القرآن وإتقانه حسب أصول المدرسة المغربية"، سواء كانت هذه الوسائل مادية أو معنوية، وسأبدأ بالوسائل المعتمدة والآلات المستعملة.

اللوحة وجميع الوسائل المادية اللازمة الأخرى الضرورية لاستعمال اللوح كالصمغ والصلصال والقلم القصبي.

فاستعمال اللوح يساعد على تفكيك الجزء المراد حفظه من القرآن الكريم كما تنص على ذلك نظم التربية الحديثة من الانطلاق بالمتعلم من الجزئي إلى الكلي، فلواعتمد المغاربة طريقة الحفظ المباشر من المصحف لكان ذلك مدعاة لخلق الإحباط واليأس في نفسية المتعلم الصغير حين يرى أمامه وبين يديه كتاباً ضخماً مليئة بصفحاته بالكتابة، وهو عارف أنه مطلوب منه حفظ هذا الكتاب عن آخره في نهاية المطاف، وربما يختلط عليه الأمر من أين يبدأ؟ وأين ينتهي؟

ومتى سيحفظ هذا الكتاب الضخم؟ بخلاف استعمال اللوح والسير بمهل على حساب قدرات المتعلم وسنه، حيث يبدأ بحفظ آيتين إلى ربع الحزب يوميا، وبهذا يكون فقهاؤنا أول من استعمل الانتقال من السهل إلى الصعب ومن الجزئي إلى الكلي، أضف إلى ذلك ما يحكى عن سر استعمال اللوح في حفظ القرآن الكريم .

يحكى أن فقيها لديه متعلم ضرير يكتب له قدرا من القرآن الكريم في اللوح حسب قدراته، يقرأ الفقيه والضرير يستمع قراءة أولية، ثم يكلف الفقيه أحد المتعلمين المتمرنين لإعادة القراءة مع الضرير عدة مرات يشرح الضرير في تكرار ما سمع مستعينا بزملائه من المتعلمين المبصرين إلى أن يتم حفظ اللوح، فيضيف هذا الجزء إلى محفوظه ورصيده من القرآن الكريم وهكذا.... وذات يوم تبين للفقيه أن لاجدوى من كتابة لوح الضرير مادام حفظه معتمدا على حاسة السمع، فسلم الفقيه اللوح فارغا من الكتابة للضرير، وقرأ عليه الجزء المعتاد، لكن الضرير حينما انفرد بنفسه وأراد إعادة ما سمع استعصى عليه تذكر ولو آية، فشكا أمره إلى الفقيه باضطراب رؤيته القلبية بعدم القدرة على تكرار ما يسمع كعادته، وإذ ذاك أدرك الفقيه سر اللوح فكتب للضرير من جديد.

ومن الوسائل الناجعة في تحفيظ القرآن الكريم في المغرب علاقة الفقيه المباشرة مع المتعلم، بالإشراف عليه ومراقبة حفظه ومعرفة الأجزاء والأحزاب التي تحتاج إلى بذل مزيد من الجهد والعناية لحفظها، وتقويم قدرات المتعلم في الرسم والأداء.

وهذا الإشراف المباشر بدون وسيط يجعل المتعلم مستفيدا من التقويم والتقييم كعملية إجرائية تستهدف موضع الخلل مباشرة، عندما تختل عملية الحفظ في جزء أو حزب معين، أولا يزال المتعلم محتاجا إلى إتقان الأداء والرسم

بصفة عامة، وهناك يلتجئ إلى معالجة الموضوع وتدارك الموقف حسب ما يتطلب ذلك من تدابير.

بعض الخصوصيات المغربية المساعدة على تحفيظ القرآن الكريم وإجادة إتقان رسمه وأدائه

منها جميع التدابير والاحتياطات المشار إليها سابقا ضمن البرنامج اليومي للفقيه مع المتعلمين بصفة عامة، وهناك بعض الطرق المساعدة على الحفظ والإتقان من صميم المدرسة القرآنية المغربية، ومنها:

الأنصاف: جمع نص، وهي عبارة عن قواعد شعبية اصطلاح عليها عند أهل الاختصاص (بالأنصاف) قلت: قواعد شعبية لتمييزها عن منظومات أهل القراءات كالشاطبي وابن بري وغيرهما.

والأنصاف عبارة عن نظم حظه من الفصاحة يسير، وربما بالدارجة أو باللهجات الأمازيغية غرضه تعليمي أنتجه فقهاء حافظون لكتاب الله موجه إلى شريحة تجهل قواعد النحو، هدف الناظم ترسيخ الكلمة أو الجزء من الكلمة القرآنية في ذهن المتعلم كما كتبت في المصحف العثماني وكما نقلها هو عن شيخ وتلقاها شيخ عن شيخ إلى النبي ﷺ، وهنا ننطلق على أن الرسم توقيفي، لأن مناقشة الموضوع سيؤدي بنا إلى الإطالة ولأن الهدف ذكر بعض المعينات على إتقان الحفظ والرسم عند المغاربة.

الجانب الوظيفي للأنصاف:

سأركز على هذا الجانب لتبيان الدور الذي تؤديه هذه الأنصاف على مستوى الحفظ والرسم، مع ذكر أنواعها بالإضافة إلى ذكر قواعد أخرى غير منظومة.

أ. أنواع الأنصاف من حيث وظيفتها:

1) النوع الخاص بالمساعدة على حفظ المتن أن النص القرآني دون تحريف بالزيادة أو النقص. ذلك أن بعض السور من القرآن الكريم تتكرر فيها قصص بعض الأنبياء مع أهمهم السابقة لاسيما في القرآن المكي، وذلك لأخذ العبرة مما لحق هذه الأمم من عقاب جزاء عنتهم وعنادهم، ولكي لا تتشابه هذه السور بذكر الألفاظ نفسها بالترتيب نفسه، يلجأ الحق منزل القرآن الكريم إلى تنويع الخطاب من حيث الألفاظ بالتقديم والتأخير والزيادة والنقص، فيصعب على المتعلم التمييز بين الألفاظ في كل سورة على حدة مع أن الموضوع واحد.

مثلا قصة موسى وسحرة فرعون في كل من "الأعراف" و"طه" و"الشعراء".

إذ ذاك يأتي الفقيه الحافظ ليضع نصا للمتعلم ليفرق بين ألفاظ القرآن بترتيبها المختلف في هذه السور فقال:

واترك إذا وابعث من الأعراف بسحره أيضا بلا خلاف

واترك وفرعون وثم وبه في طه والشعراء يا إخواني

بمعنى لا تذكر أيها القارئ الكلمات الآتية في سورة الأعراف وهي: "إذا" "وابعث" "بسحره"، ثم لا تذكر في سورة الشعراء وسورة طه الكلمات الآتية: "فرعون" "ثم" "به".

حيث ذكر القرآن الكريم قصة موسى مع سحرة فرعون في السور الثلاث مع اختلاف في ترتيب الألفاظ، فجاء النص ليرفع الالتباس على القارئ والحافظ المبتدئ، ليقرأ كل سورة كما نزلت على سيدنا محمد ﷺ.

ولولا الإطالة لأدرجت الجوانب المتداخلة من هذه السورة هنا، ومن

الأفضل لمن أراد أن يتأكد أن يرجع إلى المصحف الشريف ويقف بنفسه على الموضوع.

ومن الأنصاف المساعدة للقارئ الحافظ على ترتيب المتن أو النص القرآني كما أنزل على نبينا الكريم، حيث في أواخر سورة الرسائل تكرر (ويل يومئذ للمكذبين) عدة مرات، فجاء نظم النص لمساعدة القارئ على ترتيب الآيات بقوله:

ألم ألم يا محمد انطلقوا هذا هذا مقيدا
إن المتقين كلوا وإذا فبأي حديث لا مزييدا

فهذا النص يساعد القارئ على اتباع ترتيب الآيات بعد ويل للمكذبين ابتداء من الآية 15 من سورة الرسائل فالكلمة التي تلي ويل يومئذ للمكذبين الأولى هي:

- «ألم نهلك الأولين»

- «ألم نخلقكم»

- «ألم نجعل الأرض كفاتا»

- «انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون»

- «هذا يوم لا ينطقون»

- «هذا يوم الفصل»

- «إن المتقين في ضلال»

- «كلوا وتمتعوا قليلا»

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾

- ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (الآية الأخيرة من سورة المرسلات)

فإذا تأملنا الكلمات العشر الأولى نجد أنها هي التي تأتي مباشرة بعد ويل يومئذ للمكذبين، وجمعها الناظم مرتبة في النص لتيسير عملية القراءة بدون خلط أو التباس، ولا بأس بإعادة النص للتأمل والتطبيق:

أَلَمْ أَلَمْ أَلَمْ يَا مُحَمَّدَا انطلقوا هذا هذا مقيدا

إِنَّ الْمُتَّقِينَ كُلُوا وَإِذَا فَبَإْي حَدِيث لَا مَزَايِدَا

فإذا استثنينا الكلمات التي استعان بها الناظم لضرورة النظم وليستقيم الوزن "محمدًا" و"مقيدًا" و"لامزايدا"، فإن سواها من الكلمات (ألم، ألم، ألم، ألم، انطلقوا... إلى آخره) هي مفاتيح الآيات العشر التي تلي (ويل يومئذ للمكذبين) بالترتيب في هذا الثمن من القرآن الكريم.

ومن الأنصاف المستعان بها في سلامة ترتيب التشابه اللفظي في القرآن الكريم، والمساعدة على عدم التقديم أو التأخير اللذين من شأنهما أن يحدثا تغييرا في ترتيب ألفاظ القرآن الكريم كما أنزلت على سيدنا محمد ﷺ، قول بعضهم:

سَبِّحْ لَكُمْ وَخَرِّبْ بِهِ فِي لِنِ تَنَالِ اترك لكم سَبِّحْ بِهِ فِي الْأَنْفَالِ

في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾، [آل عمران:126] تفاديا لترتيب آية الأنفال التي سبق فيها لفظ "به" لفظ "قلوبكم"، ولم يذكر فيها لفظ "لكم" بتاتا في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال:10]. وأهمية النص هنا بادية للعيان.

- ومن الأنصاف المتعلقة بتنبيه المتعلم إلى الوقف والوصل حول بعض

الكلمات المتشابهة لفظا ككلمة "بينهما"، لأن عملية الوقف أو الوصل تساعدان على ذكر ما يليهما بالتعود على ذلك.

فذكر صاحب النص أن بينهما بالوقف في القرآن ثمانية في قوله:

والمخصنات اثنان في أخذ الله نبذناه وعندهم ولما

جاء عيسى تقدم وعم بينهما بالوقف قل ثمانية

- ومن الأنصاف المساعدة على تمكين المتعلم من نص القرآن الكريم، التنصيص على أماكن فيها (في الأرض) و(لا في السماء)، لئلا يختلط الأمر على القارئ بين (السموات) و(الأرض) وغيرها من المتشابه اللفظي في القرآن من هذا القبيل، كما في قول الناظم :

ألم الله وضرا وبدلوا ووصينا في ولا أرض ولا في السما أربع

هذه الأماكن الأربع التي ذكر في (الأرض ولا في السماء)، ومعرفة ذلك واجب لكي لا يقع الخلط بين الألفاظ المتشابهة في القرآن الكريم حفاظا على سلامته.

2) ومن الجانب الوظيفي للأنصاف أيضا كيفية كتابة (الكلمة) القرآنية حرصا على سلامة كتابتها كما كانت في المصحف العثماني، مثل (في ما) فقد وردت (فيما) في القرآن الكريم متصلة ووردت منفصلة (في ما) في أماكن بعينها في القرآن الكريم ، ويصعب معرفتها بدون التنصيص عليها كما في قول الناظم :

ياسائلا عن (في ما) في المردودي إحدى عشر في جملة القرآن

والوالدات¹ يأيها² الرسول قد خسر³ الدين قل تعالوا⁴

وذا النون⁵ أفحسبتم⁶ يا أخي قالوا أنؤمن⁷ أولم يسيروا⁸

وعندهم⁹ زدهم فمن¹⁰ أظلم ووقعت¹¹ تكمل المردودي

هذه الأماكن التي ورد فيها "في ما" بانفصال "في" عن "ما"، حيث ورد متصلا في غيرها. وقد تعود حملة القرآن في المغرب عند القراءة الجماعية أن ينبه بعضهم إلى تغيير النبرة الصوتية عند النطق بـ "في ما" المردود أو بإشارة بإصبعه إلى ذلك.

وإليك الكلمات بعينها في أماكنها :

ر.ت	الكلمة	الربع	السورة	رقم الآية
1	في ما فعلن في أنفسهن	والوالدات	البقرة	240
2	ليبلوكم في ما ءاتاكم فاستبقوا الخيرات	يأيها الرسول لا يحزنك	المائدة	48
3	قل لا أجد في ما أوحى	قد خسر	الأنعام	145
4	ليبلوكم في ما ءاتاكم إن ربك سريع العقاب	قل تعالوا	الأنعام	165
5	وهم في ما اشتتت أنفسهم	وذا النون	الأنبياء	102
6	لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم	أفحسبتم	النور	14

7	أتركون في ما هاهنا آمين	قالوا أنومن	الشعراء	146
8	شركاء في ما رزقناكم	أو لم يسيروا	الروم	28
9	إن الله... في ما هم فيه يختلفون	وعندهم	الزمر	3
10	تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون	فمن اظلم	الزمر	46
11	وننشكم في ما لا تعلمون	إذا وقعت	الواقعة	61

وقد تكون الكلمة غريبة في القرآن الكريم، بمعنى لم تذكر إلا مرة واحدة فيشار إليها كيف تكتب، كما في هذه الألفاظ الأربعة التي بالإثبات والإمالة وهي:

عصاني تولاه هداي ومثواي ثقاته مع تترا بالثب والإمالة

يعني أن هذه الألفاظ محسوبة على أنها تكتب ثابتة الألف تحته إمالة، والإمالة (صوتا) إمالة النطق بالفتح إلى الكسر، و(خطا) نقطة كبيرة توضع تحت الحرف الممال، ويصعب النطق بها عند المبتدئين. والبحث في الإمالة مستفيض عند علماء القراءات لا داعي للخوض في ذلك الآن.

ولصعوبة النطق بالحرف الممال قال بعضهم:

ولا تكسر الحرف الممال بل الزمن له الفتح إذ علم الإمالة في القبر

يعني بذلك ذهاب الذين يحسنون أداء الحرف الممال صوتا إلى جانب الصوتيات الأخرى التي لا يستقيم الأداء إلا بإتقانها كالإشمام والروم والإضجاع

وبين بين وأنواع المد وغيرها من المباحث الأخرى التي لها صلة بعلوم القرآن والقراءات.

ومما يذكره الفقهاء الأمازيغ بصدد إمالة تترا السابق الذكر من أجل ترسيخ القاعدة في ذهن المتعلم.

تثبات تترا

ثمالة تترا

توقف تترا

اور إضهير ماترا تترا

بمعنى أن لفظ "تترا"¹ ثابتة الألف وممالة الراء ويقف القارئ عليها حسب وقف المبطي.

ثم تساءل ماذا تريد "تترا" بعد كل هذا مورّياً بلفظ "ترا" الذي يعني "تريد" القريب من كلمة "تترا".

ومن اختلاق القصص والنوادر لتكون سبباً لإخراج أنصاف لتثبيت رسم الكلمة القرآنية كما هي في المصحف العثماني قول أحدهم:

يا غادي للغرب ولمكناس بلغ سلامنا لإهل فاس

وقل مَلَّيْهِمْ لهم قد حولت همزته تحت ياء قد طرحت

لأن مَلَّيْهِمْ تكتب هكذا عند المغاربة المحققين للرسم العثماني، ولذا أشار صاحب النص إلى أن همزة مَلَّيْهِمْ طرحت تحت الياء كما ترى، ذلك

1- (ثم أرسلنا رسلنا تترا) الآية من سورة المؤمنون.

لأن بعض المصاحف كتبت فيها هكذا مَلَّأَ بكتابة الهمزة تحت (لام الألف) ووضع الدارة على الألف هكذا: (مَلَّأَ هـ)، أما عند المغاربة وكما تلقيناها عن شيوخنا فإنها تكتب هكذا مَلَّأَ بِبطرح الهمز تحت الياء بتوسط نقطتي الياء، والهيئة الأخيرة معززة للكلمة بكونها مكتوبة في بعض المصاحف وتؤديها الرواية الشفوية مع التنصيص عليها في المشار إليه والذي يشير صاحبه ضمناً إلى وجود نوع من الخلاف في كتابة الكلمة، ثم أشار إلى الوجه الذي اختاره المغاربة مَلَّأَ بِ. ويعزز التحقق من المسألة كون لغة الناظم فصيحة لا سيما في البيت الثاني الذي هو بيت القصيد:

وقل مَلَّأَ بِ بِهم قد حولت همزته تحت ياء قد طرحت

3- ومن القواعد المضبوطة التي يستعين بها المغاربة في إتقان رسم القرآن الكريم قاعدة الرمز العادي الذي يستعمله حفظة ورش: مثل ضبط حركة النون في "ابن" التابع لعيسى بن مريم، والرمز هو: "يَنَ" "عِنُ" "وَنَ" "بِنَ"

- يعيسى بن مريم

- عيسى بن مريم

- وعيسى بن مريم

- بعيسى بن مريم

قد يقول قائل إن "ابن" وصف تابع للاسم العلم في إعرابه، وفي النداء تابع للمحل كما في المثال الأول.

ولكن هذه القواعد أغلبها من نظم حفاظ كتاب الله ليست لهم علاقة بالنحو، والخطاب فيها موجه لشريحة من المتعلمين يجهلون النحو والإعراب.

ومن أمثلة تمكن المغاربة من إحصاء وضع الكلمات القرآنية بجوار بعضها.
مثل:

غضبوا هم يغفرون فغلبوا هنالك

ليس في القرآن سوى هاتين الحالتين، الباء المضمومة أمامها واوالجمع أمامه
ألف فوقه سكون أمامه هاء بضممة : "غضبوا هم" و "فغلبوا هنالك".

كما ليس في القرآن سوى ميمين مفتوحتين أمامهما صاد بكسرة:

المستقيم صراط قدم صدق

هذا دليل على عناية المغاربة بالقرآن الكريم في حفظه وإتقانه وإحصاء كيفية
كتابة كلماته.

4) **الحزب الراتب:** من الوسائل المساعدة على حفظ القرآن الكريم بالنسبة
للمغاربة مداومة الحفاظ والمتعلمين على قراءة الحزب الراتب بعد صلاة الصبح،
وبعد صلاة المغرب. هذا الحزب الذي لا تزال أصدااء أصوات قرائه تعانق
السماء في الجبال والوهاد والسهول والقرى والمدن في المغرب والحمد لله على
ذلك، رغم دعوة الضالين إلى ترك هذه المنة الإلهية على هذا البلد الأمين.

وإمعانا في إتقان الحفظ فإن المتعلمين يقرؤون هذا الحزب ثلاث مرات قبل
التوقيت وأثناءه وبعده يوميا، كما أن المغاربة في القرى يشترطون على الفقيه
قراءة الحزب.

4. الأنشطة الموازية والترفيهية ودور المجتمع المدني:

في أي نشاط جسمي أو عقلي متواصل، من الطبيعي أن يشعر صاحبه بالملل
إذا لم تتخلل هذا النشاط المتواصل فترات للراحة لتجديد القوة لمواصلة العمل.

هذا ما ينطبق على العمل في الكتاب أو المسجد من أجل حفظ القرآن الكريم وتحفيظه، بفضل تلك الواحات الترفيهية -رغم بساطتها- التي تعد متنفسا ومحطات يتزود منها الفقهاء والمتعلمون بالطاقات الجديدة لمواصلة السير.

ومن هذه الأنشطة الترفيهية ما كان ينظمه بعض أفراد القبيلة من ولائم، إما بمناسبة تتعلق بختمة قرآنية من طرف أحد التلاميذ، فيكرم الفقيه وتلاميذه من قبل أب التلميذ ويتوج الحفل بإركاب التلميذ الخاتم على الفرس والطواف به في المداشير المجاورة، إكراما له وتحفيزا لأمثاله، أو بمناسبة أخرى يكسر الفقيه وتلاميذه رتابة العمل اليومي بوجبة جماعية داخل بيت من بيوت أحد الأعيان، وبوجود حفظة القرآن في المنطقة فتشتد المنافسة بقراءة القرآن وإنشاد الأنصاف وبأنواع الرجز حسب عادة فقهاء كل منطقة، فيجد المتعلمون الكبار منهم فرصة للتعبير عما حفظوه من الأنصاف والأذكار التي تستسيغ الجماعة سماعها، ربما يجود بعض الأفراد ببعض المال ليقسمه حفظة القرآن بينهم بالتساوي.

وللمجتمع المدني دور فعال في المساهمة في حفظ القرآن الكريم وتحفيظه بما يسديه أفراد الجماعة والقبائل من معروف حسب عادة كل منطقة.

- كجمع الأعشار والزكاوات والتبرع بها على بعض الزوايا التي تهتم بتحفيظ القرآن ودراسة العلم.

- وكنظام التربية وهونوع من التضامن الاجتماعي، حيث تقوم بعض العائلات بإطعام التلاميذ الغرباء عن القرية المنقطعين لحفظ القرآن الكريم.

5. استنتاج واقتراحات:

هذه الإشارات الواردة في هذا العرض المتواضع كلها ساهمت مساهمة مباشرة في تشجيع المغاربة على حفظ القرآن الكريم، فعلى الوزارة الوصية على

قطاع الكتاتيب القرآنية والمساجد والزوايا أن تأخذ بجملة من التدابير الأساسية لاستمرار الظاهرة القرآنية على الطريقة المغربية وذلك بـ :

- الاحتفاظ على الجوانب الإيجابية في التحفيظ.

- تشجيع الفقهاء والمتعلمين بتوفير الوسائل الضرورية لاستمرار عملية الحفظ والتحفيظ:

بتحديد الأجرة الكافية للفقهاء والعناية بأحواله المادية والمعنوية.

بتوفير الوسائل الضرورية للمتعلمين المنقطعين للقرآن الكريم.

- تشجيع المجتمع المدني على الاستمرار في ميدان التضامن القرآني.

- بفتح المجال أمام الحافظين من المتعلمين لولوج معاهد التعليم العتيق أوالتعليم الأصيل دون تحديد سقف السن.

- الالتزام التام بقراءة نافع برواية ورش ووقف الهبطي المعمول به واعتماد المصاحف المطبوعة في المغرب.

إن إحياء دور الكتاب والمسجد على الطريقة المغربية لهووجه من أوجه المبادرة الوطنية للتنمية البشرية في إطار التكوين التربوي الأصيل الذي يتماشى مع الثوابت الوطنية.

الكتاتيب القرآنية بين الموجود والمقصود

سبل تطويرها مع الحفاظ على خصوصياتها

أحمد العمراني

أستاذ بكلية الآداب بالجديدة

تقديم

الحمد لله رب العالمين القائل في محكم التنزيل: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [العلق: 1-2-3] والصلاة والسلام على محمد النبي الأمين القائل في صحيح سننه: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"¹، وعلى آله وأصحابه الذين ورثوا علمه، وشهدوا أموره، وبلغوها لمن كان غائبا لحظتها، وعلى أتباعه ومن تحملها بعدهم وعلينا إلى يوم الدين.

وبعد:

إذا كان قد قيل على لسان الأستاذ محمد إقبال رحمه الله: "إن التعليم -الغربي- هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي، ثم يكون كما شاء، وأن هذا الحامض هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيماوية"².

فإني أقول بأن: الكتاتيب القرآنية هي خط الدفاع الأول عن هذا الكائن الحي، والمحافظ الأول على فطرته.

1- صحيح البخاري رقم: 4739.

2- بواسطة كتاب: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، للنودي.

نعم، إنها الحقيقة التاريخية التي لا تُنكر، حقيقة دور الكتاب القرآني في الأمة الإسلامية بصفة عامة، والأمة المغربية في كل مدنها وقرائها بصفة خاصة.

أولاً: الكتابات القرآنية بالمغرب، دواعي الوجود وتجلياته

لا يستطيع أحد أن ينكر وجود هذه الكتابات وانتشارها انتشاراً أفقياً وعمودياً في كل أرض المغرب الحبيب، وقد تحدث السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور أحمد التوفيق يوم الأربعاء 28 ذوالقعدة 1424/موافق 2004/01/21، في قبة البرلمان عن عددها، وهو يجيب السائلين عن ذلك من نواب الأمة، فقال: يبلغ عدد مؤسسات الكتابات القرآنية ما يناهز (16400) كتاباً قرآنياً، حسب إحصاء مؤقت تتوفر عليه الوزارة، وأنها قد تكون أكثر من ذلك بزيادة ثلاثين في المائة، وأن الوزارة مهتمة حالياً بإحصاء جديد ودقيق لهذه الكتابات. وذكر سيادته أن (3600) كتاب منها تابعة لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، من حيث الإنفاق والإشراف المباشر عليها، بينما يتكفل الخواص والجماعات بنحو اثني عشر ألفاً وثمانمائة (12800) كتاب قرآني³.

— كما لا يمكننا أن ننكر دور الدولة وخاصة الوزارة المعنية في الاهتمام بهذا المجال المعرفي الهام من حيث التمويل والعناية والتسيير.

بل واهتمام أمير المؤمنين بها وبإحيائها والتشجيع على تجديدها، حيث أحدثت جائزة محمد السادس للكتابات القرآنية باعتبارها من مؤسسات التعليم العتيق بتاريخ 2002/07/23. تشمل منهجية التلقين، وطرق التسيير، ومردودية التعليم.

3- نشرة الأئمة العدد السادس 2004/1424 ص/28.

ونظرا لهذا الاهتمام الأصيل في بلدنا ومسؤوليه، ونظرا لأهمية هذه المؤسسات التي تزخر بها بلادنا، ارتأيت أن أقدم للحضور الكرام، دراسة نظرية تعتمد على الموجود، وتبحث عن المقصود منها في واقعنا المتغير والمتطور، لعلّي أسهم بذلك إن شاء الله في تطويرها وتجديدها.

فالنظر في تاريخ أمتنا يعلم بكل وضوح اهتمام أصول الأمة ومصادرها التشريعية بالوسائل الأولى للعلم والمعرفة، أي القراءة والكتابة، ثم اهتمام الأمة بخلق المؤسسات التي تُسير وتؤطر هذه الوسائل خدمة لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

• فهذه أوائل آيات نزلن من القرآن الكريم يشيد الحق فيها بالقلم وما يعلم الله عباده بوساطة القلم إذ يقول جلت حكمته في أول ما أنزل على سيدنا محمد من الوحي: «اقرأ باسم ربك الذي خلق» إلى أن قال: «اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم».

• وهذه سورة (ن) يقسم العلي الأعلى فيها بالقلم وما يسطرون إذ يقول: «والقلم وما يسحرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون» [ن/1-2].

• وهذا رسول الله يدفع أصحابه دفعا إلى أن يتعلموا الخط ويحذقوا الكتابة ويهيء لهم السبل. حتى لقد ورد أن المسلمين في غزوة بدر أسروا ستين مشركا فكان مما يقبل الرسول في فداء الواحد منهم أن يعلم عشرة من أصحابه الكتابة والخط⁴.

• ليستمر تعليم أبناء المسلمين وتشجيعهم على ذلك بالحث والترغيب انطلاقا من عشرات النصوص المبشرة والمحدرة لا يسع المجال التذكير بها.

4 - مناهل العرفان، 252/1.

• كما أعطى النبي ﷺ بنفسه لأبناء أمته النموذج الذي يجب أن يحتذى به في طريقة الحفظ، وهو السماع من الغير وتكرار التلاوة والعرض على الغير. حيث أخرج الامام أحمد في مسنده عن ابن عباس قال: "كان رسول الله ﷺ يعرض الكتاب على جبريل عليه السلام في كل رمضان فإذا أصبح رسول الله ﷺ من الليلة التي يعرض فيها ما يعرض أصبح وهو أجود من الريح المرسلة لا يسأل عن شيء إلا أعطاه فلما كان في الشهر الذي هلك بعده عرض عليه عرضتين"⁵.

• لينتقل الأمر من العرض والتلاوة إلى البحث عن المعاني وتدبرها، حيث يروى عن مجاهد بن جبر قال: "لقد عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية أسأله فيم أنزلت وفيم كانت..."⁶.

• ليستمر تعليم القرآن وتحفيظه في الأمة على مر الأيام والسنين.

- وفي المغرب الأقصى، بلدنا الحبيب، كان حفظ القرآن منذ أن استقبل دين الاسلام بالأحضان يسير بخطى ثابتة، فقد عشق المغاربة قراءة القرآن وحفظه، وتعلمه وتعليمه، بدءاً: لأنه أول العلم عندهم، بل وعند السلف جملة، كما روي عن ابن عبد البر: "طلب العلم درجات ورتب لا ينبغي تعديها، ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله، فأول العلم حفظ كتاب الله عز وجل وتفهمه.." وثانياً: لما يمنحه من فضل وثواب كريم، بل وامتازوا بحفظه وإتقانه على سائر البلدان والأمصار إلى اليوم، وخاصة من حيث إتقان القراءات السبع والعشر، ومن حيث اختيارهم لرواية ورش التي يتميزون بها عن غيرهم من القراء والبلاد، أو من حيث الوقف الخاص (وقف الهبطي) رحمه الله .

ويعود هذا الاهتمام بالقرآن الكريم قراءة وتدبراً وتحفيظاً وتدويناً، لأسباب

5- مسند أحمد بن حنبل، 2042/230/1.

6 - سنن الدارمي، 1120/273/1. قال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

كثيرة نحملها فيما يلي:

- الأمر الإلهي بقراءته: وهي أوامر صريحة وضمنية، فتارة بمنح تاليه عطاء غير مجذوذ كما في قوله تعالى: ﴿... إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور﴾. [فاطر: 29-30]. وتارة بالدعوة إلى عدم هجره، في قوله تعالى: ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾. [الفرقان: 30]. ومن هجره هجر قراءته. وتارة بالدعوة إلى تدبره بقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾. [محمد: 24]. وتارة بالدعوة إلى قراءة ما تيسر منه كما في قوله تعالى: ﴿فاقرءوا ما تيسر من القرآن﴾. [المزمل: 20]. أو بالدعوة إلى الاستماع إليه والإنصات للحصول على الرحمات كما في قوله تعالى: ﴿إذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾. [الأعراف: 204].

- وصية الرسول ﷺ بالقراءة:

حيث روى طلحة قال: "سألت عبد الله بن أبي أوفى أوصى النبي ﷺ؟ فقال لا، فقلت: كيف كتب على الناس الوصية أمروا بها ولم يوص؟ قال أوصى بكتاب الله".⁷

- وعن سهل بن سعد قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن ويقرئه بعضنا بعضاً فقال: "الحمد لله كتاب الله واحد فيكم الأسود والأحمر، اقرءوا القرآن اقرءوا القرآن اقرءوا القرآن قبل أن يأتي أقوام يقرأون القرآن يقيمون حروفه كما يقام السهم لا يجاوز تراقيهم يتعجلون أجره ولا يتأجلونه".⁸

7- صحيح ابن ماجه: 2686.
8- المعجم الكبير للطبراني، 6/206/رقم: 6021.

86

وإن القصد من هذا العرض الموجز لواقع الكتاتيب القرآنية بين الوجود والمقصود، هو محاولة لتقديم وسائل معينة على تطوير الكتاب القرآني ليستطيع من خلالها وبها مواكبة تطور العصر وتطور الإنسان.

وهذا لن يتم إلا بالنظر السديد في مكوناته الست الأساسية، بقصد النظر فيها والسعي لتطويرها مع الحفاظ على خصوصيتها.

وتتمثل هذه المكونات الست في:

1. الفضاء الذي تتم فيه الدراسة.
2. الزمان الذي يختار للتدريس.
3. الأشخاص (من أطفال وشباب) الذين يختارون هذا النوع من التعليم.
4. المنهج الذي يتم التدريس به.
5. المدرس الذي يؤطر بالمنهج الفضاء والمكان والأشخاص.
6. الهيئة الساهرة على هذه الكتاتيب تسييرا وتدبيرا.

1- واقع الفضاء التعليمي:

إذا انطلقنا من التقرير الذي أعدته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية عن عدد الكتاتيب والجوائز التي تقدمها تشجيعا لهذه المؤسسات وأهلها، تبين لنا أن الكتاتيب موجودة في حياتنا وحياة المغاربة، وأن أثرها واقع على شريحة كبيرة، إن لم نقل على قسم كبير منهم.

وهي عبارة عن بيوت هيئت أو أفرغت لهذا الغرض، أو المساجد نفسها يؤخذ منها محل تابع لها، أو مكان الصلاة نفسه في غير وقت الصلاة وخصوصا في بعض البوادي. أو بيوت المعلمين أنفسهم في بعض الأحيان، فهي إذن أماكن

قد تكون صالحة لتلقي العلم والمعارف وقد لا تكون. وفي الوقت الحالي، بدأ النظر يتغير إلى هذا الموضوع، حيث بدأ يتم بناء الكليات القرآنية مع بناء المساجد الجديدة خصوصا التي تبني من طرف المحسنين.

2- واقع الزمن التعليمي:

وهو الوقت المعروف منذ القديم، بحسب كل بيئة وكل منطقة، فقد يأخذ اليوم كله، ويبتدئ من بعد صلاة الصبح إلى صلاة العصر وتنعقد في كل أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة، وفي بعض القرى ما عدا يوم التسوق، قد يكون يوم الأحد أو غيره. وكذا أيام المناسبات الوطنية والدينية.

والذي يلاحظ هو طول الفترة الدراسية خلال اليوم، فهي تستمر ساعات طويلة لا يتخللها شيء من وقت الراحة إلا ما أخذ لوجبة الغذاء، أو للصلاة، أو لمحو اللوحة الخشبية قصد تجديد الكتابة عليها.

وهو نظام قد يناسب البعض دون آخرين، ونظام أيضا قد يكون مناسبا لزمان غير زمننا، إذ يأخذ من التلميذ جل وقته، دون أن يستطيع الاستفادة من شيء آخر في حياته، أو يستفاد منه.

3- واقع المتعلمين:

أغلبهم من الأطفال الصغار، اختار لهم آباؤهم هذا الطريق بإرادتهم أم بدونها، اختيار له ما يبرره واقعا ومستقبلا، فمن حيث الواقع، فلأن هذه الرغبة نابعة من صميم ذوات الأسر وعميق إيمانهم. ومستقبلا لأن قارئ القرآن وحافظه، مهما صعبت الظروف، له المكانة المحترمة في حواضرنا وقرانا.

وبالتأكيد أن ما يتعلم في الصغر يبقى هو الأساس في تكوين الفرد المسلم وقديما قال الشاعر:

حَرَّضَ بَنِيكَ عَلَى الْآدَابِ فِي الصَّغَرِ كَيْمَا تَقْرَهُمْ عَيْنَاكَ فِي الْكِبَرِ

وَإِنَّمَا مِثْلُ الْآدَابِ تَجْمَعُهَا فِي عَنَفْوَانِ الصَّبَا كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ

هِيَ الْكَنُوزُ الَّتِي تَنْمُو ذَخَائِرُهَا وَلَا يَخَافُ عَلَيْهَا حَادِثُ الْغَيْرِ¹²

وقد يكونون أيضا من الشباب الذين تأخروا في اختيار هذا المسار، فيتوجهون إليه بعد أن يكونوا قد تجاوزوا سن العاشرة أو أكثر، وهذا أحيانا يكون باختيارهم وإرادتهم، وهو منتشر بقوة في بلدنا.

ومما يلاحظ في هذا الجانب، بُعد الفتاة عن هذا الفن من التعليم إلا ما ندر، إضافة إلى الانقطاع الذي يحصل لعدد لا يستهان به من هؤلاء المتعلمين عن مواصلة الدراسة لعدة أسباب، منها: عدم استغناء الأسرة عن خدمات البعض منهم في كثير من أعمال الزراعة والرعي والسقي، كما هو الشأن في البوادي، أو الخروج للبحث عن العمل ومساعدة الأهل في لقمة العيش.

4-واقع منهج التلقين:

يختلف من كتاب إلى آخر، بحسب البيئة ومستوى ثقافة الملقن.

- حيث يجلس المعلم على الأرض في مواجهة المتعلمين الذين يجلسون أمامه في صفوف منتظمة على شكل حلقات يختلف حجم الواحد منها عن الأخرى، يتجمع التلاميذ المبتدئون على مسافة قريبة من المعلم حيث يقوم مساعد له بإرشادهم في التلاوة، بينما يكون التلاميذ الآخرون مع المعلم نفسه يعين لتلميذ سورة أو مجموعة من السور لقراءتها خلال ذلك اليوم ويتلوها مرة أولى أمامه، ويحاول عند تلاوة المعلم تتبع تلاوته بالإشارة إلى الكلمات في النص الموجود أمامه.

12- مجمع الحكم والأمثال لأحمد قبش.

وبعدما ينتهي المعلم من التلاوة يذهب التلميذ إلى مكانه ليقرأ سورته تلك مرارا وتكرارا، وبين الحين والآخر ينادي عليه المعلم ليعيد عليه ما قرأ ويصحح له أخطاءه إذا ما دعت الحاجة لذلك.

- وغالبا ما يعتمد التحفيظ على وسائل معروفة، من ألواح خشبية وأقلام، وعندما ينتهي التلميذ من حفظ ما كتب يؤذن له بمحو "البالية" الوجه القديم، ويكتب "الجديدة". ما كتب جديدا ولم يقرأ بعد أو يحفظ، وهي وسائل أصيلة خدمت القرآن وخدمت الانسان .

- أما نظام العقوبات، فالتلاميذ هم أبناء المعلم، لهذا فإن له الحرية المطلقة في التصرف في تربيتهم وتأديبهم وذلك ناتج، كما قلنا سابقا، عن الثقة الكاملة في تربية المعلم وفقهه وعلمه.

وكثيرا ما سمعنا من آباء قالوا لمعلمي آبائهم: "أنت تقتل وأنا أدفن".

وعندما يلاحظ المعلم بعض التلاميذ غير المنتبهين فإنه يحذرهم أولا، فإن لم يجد التحذير والعتاب كانت العصا هي العلاج، فيضربهم على ظهورهم فيتعلم التلاميذ من أخطائهم السابقة حتى لا يقعوا فيها خوفا من العقاب. وكذلك في حال تأخر التلميذ في الحفظ أو تهاونه في ذلك فإنه يعرض نفسه للعقاب بالضرب أو باستبقائه في المسجد أو الكتاب وقتا من الأوقات.

ولعل التربية بالعصا قد بدأت تقل لتأثر المدرسين بالواقع المتغير، لكنهم ما استعملوها إلا لما يعلمون من أهميتها وأثرها في الإعداد التربوي، وكأنهم كانوا يستحضرون بعض الأقوال وبعض الآيات الشعرية التي كان يرددها الأقدمون من آبائهم. "العصا من الجنة" وقول قائلهم: "العصا لمن عصا". وقول القائل:

فاضْرِبْ وَلِيَدِكَ وَادْلُلْهُ عَلَى رَشْدٍ وَلَا تَقُلْ هُوَ طِفْلٌ غَيْرُ مُحْتَلِمٍ

وَرُبَّ شَيْءٍ بِرَأْسٍ جَرَّ مَنْفَعَةً وَقَسَّ عَلَى نَفْعِ شَيْءٍ الرَّأْسِ فِي الْقَلَمِ¹³

ومما يحكى من نوادر المعلمين في هذا الباب ما حكاها الجاحظ قال: "مررت بمعلم صبيان وعنده عصا طويلة وعصا قصيرة وصولجان وكرة وطبل وبوق، فقلت: ما هذه؟ فقال: عندي صغار أوباش فأقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفر لي بضربة فأضربه بالعصا القصيرة، فيتأخر فأضربه بالعصا الطويلة، فيفر من بين يدي فأضع الكرة في الصولجان وأضربه فأشجه فتقوم إلي الصغار كلهم بالألواح فأجعل الطبل في عنقي والبوق في فمي وأضرب الطبل وأنفخ في البوق فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون إلي ويخلصوني منهم"¹⁴.

وبالتأكيد أن فقهاء يومنا ومعلمي كتاتيبنا بعيدون عن مثل هذا النوع من العقاب، لكن العقاب كان موجودا ولا يزال، ترك آثاره السلبية في نفوس كثير من القراء والحفاظ.

ومن الأمور التي تؤخذ على هذا المنهج، قيامه على وسائل تقليدية تقوم على الحفظ دون الفهم والممارسة، مما يقيم قطيعة بين تلاوة القرآن وتدبره، ويلغي البعد العملي في تعاليم الاسلام، ويهمل أبعادا متعددة من كيان المتعلم كلها، كالبعد النفسي والخلقي والاجتماعي والاقتصادي.

- إضافة إلى النقص الملاحظ في تنوع المواد المدرسة، فالنص القرآني وحده لا يكفي لتحقيق تكوين شامل ومتوازن لدى الناشئة.

- ويضاف إلى كل هذا انفصال التعليم بالكتاتيب عن العمل المنتج والحياة المهنية.

- ولا ننسى الانفصام التام الموجود بين هذه الكتاتيب والتعليم النظامي

13- مجمع الحكم والأمثال، لأحمد قيش والشعر للمعري.

14- المستطرف في كل فن مستظرف للأشبيهي، 519/2-520.

الحديث الذي أثر في وجودها وصيرورتها.

5- واقع المدرسين:

هم في الأعم الأغلب أئمة المساجد نفسها، أو حفاظ يتفرغون لهذا العلم وراثته عن الأجداد والآباء، أو متطوعون "بالشرط" يكون من مهامهم القيام بتعليم أبناء الحي أو أبناء الدوار أو المدشر، يساعدهم في ذلك أبناءهم أو أحد التلاميذ المتفوقين...

وهذا يعني أنهم لا يكادون يأخذون مقابل عملهم إلا الكفاف من العيش والقليل من العوض، "كالحدية" أو "الأربعية" كما في شمال المغرب، وهو عوض مالي قليل، يتسلمه الفقيه من التلاميذ يوم الأربعاء والأحد، وكذا ما قد يحصل عليه في بعض المناسبات الدينية وهي ضئيلة، ومن بعض الهدايا البسيطة في بعض المناسبات الخاصة كحفل ختم القرآن.

مع أخذنا بعين الاعتبار المؤسسات التابعة لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، التي تدر على الكتاتيب التابعة لها بعض المنح التشجيعية غير الكافية بالطبع.

ولا ننسى أن عددا من هؤلاء المعلمين يتمتعون بكل الحب والاحترام من قبل المتعلمين وأهاليهم، خصوصا إذا كان المدرس من أهل العلم والصلاح، وكان متضلعا في الفقه والفتوى...

- ومما يلاحظ على بعض من انبرى للتعليم بهذا الميدان، ضعف تكوينهم علميا ومنهجيا، فأكثرهم لا يزيد على حفظ نص القرآن -إن حفظه- دون إلمام كاف باللغة العربية أو بعض العلوم الإسلامية، فضلا عن المعارف العصرية، أو مناهج التدريس وعلوم النفس والتربية، وإذا كان المعلم قليل العلم مختل المنهج أو منعدمه

فإن ذلك سينعكس ولا ريب سلبا على أساليب التدريس ومضامينه ونتائجه.

6- واقع التسيير والتدبير:

تقوم الكتابات القرآنية في أغلب الأحوال على مبدأي التطوع والكفاف في التمويل والتسيير، بحيث لا تحتاج في أداء مهمتها إلا إلى أبسط حد ممكن من التجهيزات المادية. وهي تجهيزات قد توجد ملتصقة بالمساجد سواء في الحواضر أم البوادي، أو قد يوفرها المجتمع المعني تطوعا واختيارا، لكن هذا لا يفي بالغرض المطلوب والمرغوب في زمننا، عصر الفضائيات والشبكة العنكبوتية التي اقتحمت كل بيت أينما بعد أو قرب، وعصر تنامي الأفكار وتلاقحها، وانتشار القرض والقضيب والغث والسمين من الأفكار والتوجهات التي أثرت سلبا على كثير من خريجي الكتابات القرآنية، باعتبارهم من حملة القرآن الكريم.

وهذا يبين حاجة هذه المؤسسات لمن يأخذ بيدها قبل فوات الأوان، وقبل أن تفعل فيها موجة العولمة عولمتها، فتحصل المنافسة غير المتكافئة بين إدارة وتسيير عفويين، وبين واقع يدار بتدبير وتخطيط.

ثالثا: آفاق الكتابات القرآنية (المقصود):

إن الحديث عن الآفاق هو حديث عن الإحياء والتجديد اللازمين لهذه المؤسسات بكل مكوناتها الست، وهذا لا يتم إلا بالحديث المفصل بعض الشيء عما يلزم كل مكون من هذه المكونات داخل المنظومة التعليمية ببلدنا، وتحديد الهدف - وإن لم يكن - التفكير في وضعه والبناء عليه.

1- آفاق الفضاء التعليمي:

هو المكان الذي يجلس فيه المتعلمون ساعات طويلة ليتلقوا القرآن الكريم حفظا وفهما وسلوكا، وهو مكان إن لم تتوفر فيه شروط السلامة والصحة،

وكذا وسائل الترغيب في البقاء فيه لحين إدراك المرغوب، فإن الملل سيكون رفيق كل متعلم، خصوصاً والأمر لم يعد كما كان قديماً، فالطفل يحتاج -إضافة إلى تلقي المعارف في صغره- إلى اللعب واللهو، وهي مرحلة إن تجاوزت أضرت بالمرحل التي قد تأتي بعد.

وأذكر هنا المنشور الوزاري الذي أصدرته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الذي يتضمن الوثائق والشروط المطلوبة للحصول على فتح كتاب قرآني، ويهمنا منها ما يتعلق بالمكان، حيث طلب المنشور: إحضار شهادة صلاحية المحل المعد لذلك، مسلمة من لدن المصالح الصحية المختصة بالإقليم.

ولكن ما ينبغي الانتباه له الآن، هو كيف نعرف الموجود فنضبطه، وهذا أمر ليس بالسهل، إذ يحتاج إلى خريطة دقيقة بالموجود، ووضع سترجة "استراتيجية" وطنية شاملة تعرف بالموجود ومشاكله.

وليكن في تصورنا أن نوجد مثلاً كتاباً في كل قرية، نحرص على دعمه ومراقبته متابعته، وذلك بترميم المكان وتطويره.

وإن كان الموجود غير كاف أو أن هناك نقصاً ما في أماكن معينة، فبإنشاء كتاتيب جديدة وتوزيعها توزيعاً جيداً.

2-آفاق الزمن التعليمي:

وهو أيضاً يحتاج إلى نظر وتحديد، تراعى فيه خصوصية كل منطقة، وخصوصية الأشخاص المتعلمين وحاجياتهم.

إذ لا بد من وضع برنامج يصلح لكل فئة تعليمية، ولكل منطقة، يناسب أحوال الناس وأسرهم وحاجاتهم، حتى لا يستهلك وقت المتعلمين فقط في تلقينهم للعلوم النظرية، دون استفادة أسرهم منهم، واستفادتهم هم أيضاً من

الوقت لأعمال أخرى أو معارف أو صنعة أخرى قد تنفعهم في حياتهم المهنية. ولم لا مثلاً، اختيار وقت الصباح كله للدراسة، وتفريغ المتعلمين بعد ذلك... وهذا سيسمح لكثير من الأطفال ولوج هذه الأقسام باعتبارها تمنحهم ما يستطيعون من خلاله تلبية حاجيات أخرى لهم ولأسرهم... ولم لا امتهان حرفة أو مهنة...

3- آفاق المتعلمين:

وبدون وجودهم لن تكون عندنا كتاتيب، ولا عملية تعليمية، فتشجيعهم على اقتحام هذا المجال، وتوفير الشروط الضرورية لذلك أمر واجب اليوم على المديرية المعنية، فإذا وفرنا الفضاء والمؤطر والمنهج والتسيير، يبقى علينا توفير المتعلمين، وهم في الأعم الأغلب أبناء القرى والبوادي.

نعم، إن رغبة الآباء قوية من أجل الدفع بأبنائهم للكتاتيب سواء بالمدن أو بالقرى، لكن هناك أمور تعيق نجاح هذا التوجه، منه على سبيل المثال ما يتعلق بأبناء البوادي، وعلى رأسه: مشكل التوقيت الذي يستغرق كل يوم المتعلم، وهذا أمر يمكن تدارسه داخل كل منطقة على حدة، مما يقتضي توفير إدارة أو مراقبين يحرصون على مثل هذا الفعل.

أما داخل المدن، فما نشاهده هو رغبة الآباء في هذا النوع من التعليم، لكن الوقت أيضاً لا يسمح بذلك، وقد تغلب على هذه الصعوبة بنوع من الاجتهاد والتنظيم، حيث تم الاتفاق في بعض المدن وبعض المساجد وبعض المؤطرين على أن يكون التعليم بالكتاب ساعة فراغ الأبناء من الدراسة النظامية، وذلك كل يوم أربعاء مساءً، ويوم السبت والأحد صباحاً، صحيح أن هذا الوقت غير كاف لتحقيق المطلوب، لكنه معين على تنشئة الأبناء التنشئة المطلوبة، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

4-آفاق منهج التلقين:

أ-طرق التلقين: وهي ما سميتها قبل قليل بالطرق البيداغوجية، كما يشمل الوسائل المعينة على حسن تلقي التلقين.

-فطريقة التلقين والتحفيز تحتاج إلى تحديد ونظر، فاللوحة الخشبية أعطت الكثير لأبناء الكتاتيب، ولن يتوقف عطاؤها كما لن تقف صلاحيتها، لكن يمكن الاستعانة والاستفادة من وسائل معاصرة؛ كالسبورة المتحركة، أو الدفاتر والكراريس بأقلام جد متوفرة تعين التلميذ على اكتساب الخط، وتعلم الكتابة. وطبعاً بحسب المكان والزمان والامكانيات.

فحيث أمكن فعل هذا يكون أحسن، وحيث امتنع يبحث عن السبل الكفيلة لتحقيقه.

إذ وسائل تلقي المعارف والعلوم قد تطورت، فلماذا يكتفى بالوسائل القديمة وإن أثبتت صلاحيتها واستمراريتها وصمودها؟ ولا يبحث عن الارتقاء بها، كما تم الارتقاء بذلك في المدارس النظامية.

- وفي هذا يمكن الاستعانة بكل ما أنجز من برامج معينة في الموضوع، وأقراص ومطبوعات، وكلها متوفرة في الأسواق، وبُذل فيها جهد لا يستهان به. - ولا ننسى المحافظة على تلقي الرسم والكتابة القرآنية من طرف الفقيه وتصحيحها والحفاظ عليها، وهو علم بدأ يقل ويندرس، بل ويهمل في واقعنا، خصوصاً عند الحفاظ عن طريق الصحف والكتب.

بل ويجب أن لا يهمل ما عاداته الإهمال في كتابتيننا، وهو حسن ترتيل القرآن، وكذا تعليم قواعد التجويد في الكتاتيب، إذ عادة ما يلاحظ على غالبية الحفاظ المتخرجين منها ضعف حسهم التجويدي، وعدم حسن إتقانهم لمخارج الحروف.

مع أن علم التجويد والقراءات أصيل في بلدنا، وفي معاهدنا، ينبغي أن يتدارك لأن عشرات النصوص الشرعية قد حثت على ذلك وشجعت عليه أذكر منها قوله تعالى: ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ [المزمل:4] وقوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾ [البقرة:121].

- وعن أبي مليكة عن يعلى بن مملك أنه سأل أم سلمة عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاته قالت: "ما لكم وصلاته ثم نعتت قراءته فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً"¹⁵.

- وعن وداعة السهمي عن حفصة أنها قالت: "ما رأيت رسول الله ﷺ صلى في سبحته قاعداً حتى كان قبل وفاته بعام فكان يصلي في سبحته قاعداً وكان يقرأ بالسورة فيرتها حتى تكون أطول من أطول منها"¹⁶.

- وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال له: "يا أبا موسى لقد أوتيت زمماراً من زمامر آل داود"¹⁷. وزاد البرقاني قال: قلت يا رسول الله لو علمت أنك تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيراً"¹⁸.

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: "لم يأذن الله لشيء ما أذن لبي أن يتغن بالقرآن" وفي رواية "لبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به" وفي رواية "يتغن بالقرآن ويجهر به"¹⁹.

- وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "ليس منا من لم يتغن بالقرآن". وزاد غيره (يجهر به)²⁰.

15- سنن الترمذي، رقم 2923 النسائي برقم 1022.

16- صحيح مسلم، برقم 733 وسنن الترمذي، رقم 373.

17- متفق عليه.

18- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، 390/10 والبخاري في شرح السنة 429.

19- البخاري، برقم 5023 ومسلم برقم 792.

20- البخاري، برقم 7527 ابوداود برقم 469 أحمد 1479.

- وعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: "أبطأت على عهد رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء ثم جئت فقال: أين كنت قلت كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد قالت: فقام وقمت معه حتى استمع له ثم التفت إلي فقال: هذا سالم مولى أبي حذيفة الحمد لله الذي جعل في أمي مثل هذا".²¹

- ويمكن الاستعانة على كل هذا بالكثير من الوسائل السمعية والبصرية التي يستخدمها اليوم مدرسو القرآن الكريم في العالم الإسلامي، في مختلف مراحل التعليم مثل:

- الأشرطة المسجلة (التلاوة المرتلة/المصحف المعلم).

- تسجيل صوتي لتلاوة فردية، تتبعها قراءة جماعية، ويقوم الطلاب بالترديد معهم من أجل تعويد اللسان على النطق السليم، والتلاوة الجيدة والفهم الشامل لكتاب الله تعالى.

- التسجيل الصوتي المسموع والمرئي في آن واحد، ليتابع الطلاب التلاوة.
- التسجيل الصوتي الذي تنتجه بعض المدارس بأصوات الطلاب المجيدين، حيث إنه أكثر أثراً في زملائهم وأسرع في تعلمهم القرآن الكريم.
ويمكن أن يشارك معلمو مدارس تحفيظ القرآن الكريم في إنتاج هذه الوسائل.

ب - ضرورة ربط العلم بالعمل:

وهذا من التجديد، وهو مما يعاب على أغلب خريجي الكتاتيب القرآنية، إذ

21- أحمد برقم 2479 ابن ماجة برقم 1337.

الهدف في نظر معلمهم، وفي نظر آبائهم، هو الحفظ ثم الحفظ، وهذا غير كاف، إذ ينبغي تغيير الأهداف المسطرة في الكتاتيب وعند القائمين بأمورها، فالحفظ دون تدبر أو دون فهم وتطبيق وممارسة، هو صب الماء في صحراء قاحلة، وقد بين النبي ﷺ من خلال حديث جامع الفرق بين أصناف المستلقين، حيث روى لنا أبو موسى عن النبي ﷺ قال: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به".²²

فقد شبه الرسول ﷺ الهدى والعلم بالمطر، والناس بالأرض والناس يتفاوتون في قبول الهدى والعلم كالأرض، فالأرض الخصبة تقبل الغيث وتنفع به، فيخرج نباتها بإذن ربها وبعض الأرض تمسك الماء وتحتفظ به، فيستفيد منه الناس، وقسم ثالث لا تنتفع به ولا تمسكه، وهكذا الناس.

فالقسم الأول: من الأرض مضروب للمؤمنين العلماء الفقهاء، الذين يستفيدون من علمهم وينفعون الناس.

والقسم الثاني: مضروب للمؤمنين المهتدين الحفظة للدين وفقههم قليل.

والقسم الثالث مضروب للذين رفضوا الهدى والعلم.

وحفظة كتاب الله في الكتاتيب يحتاجون لأن يكونوا من الصنف الأول أو الثاني على الأقل، ولن يتحقق ذلك إلا بالفهم والعمل.

22- صحيح البخاري، 79/42/1، وصحيح مسلم، في الفضائل: 2282.

وقد روي عن عطاء عن أبي عبد الرحمن قال: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ: "إنهم كانوا يقتربون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل".²³

بهذا نستطيع أن نبني أمتنا من خلال بناء أبنائنا داخل هذه المؤسسة الصغيرة، الكبيرة في واقعنا وفي آثارها الإيجابية.

وبدون ربط المتعلمين بالعمل بما تعلموه، سيفرز لنا هذا التعليم أفرادا يحفظون أمورا يخالفونها تطبيقا وممارسة، وأوضحها قلة اكتراثهم بالشعائر التعبدية وبالمسجد.

ج- تدبر المحفوظ وتفسيره

وهذا موضوع لا يجب الاستهانة به، إذ لا يعقل أن يتخرج شاب أو حافظ لكتاب الله حفظا متقنا دون أن يكون له علم بآياته وشرح لمعانيه. وهذا ما يدفعنا إلى القول بضرورة تدخل المديرية المعنية بفرض تفسير معين على جميع الكتاتيب القرآنية وعلى مؤطريها، ولما لا يكون تفسير الشيخ العلامة المكي الناصري، فهو سهل ميسر يتتبع المغاربة سماعه كل يوم عبر الاذاعة ويفهمونه لبساطته وسهولة مأخذه.

أو ينجز تفسير لهذا الغرض يتفرغ له الأكفاء من أبناء أمتنا وعلمائنا الأفاضل. وهذا أمر إن تم سيخرج لنا رجالا يفهمون ما يحفظون، وسيسهل عليهم العمل بما يفهمون، بل وحسن تبليغه إن فتح لهم مجال التبليغ أو اقتحموه.

ولا أنسى أن أذكر بضرورة أن يساير المعلم تلاميذه أثناء حفظ القرآن بما

23 - مسند أحمد بن حنبل 5/410/23529. تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن من أجل عطاء.

يلزم من معرفة، كمتن أو منظومة ابن بري في قراءة نافع، وبعض المنظومات في رسم القرآن...

د- توحيد المنهج العقدي:

فالمغرب والله الحمد والمنة، امتاز بوحدة مذهبه الفقهي، ونهجه العقدي وسلوكه التربوي، كما تعلمنا من متن ابن عاشر:

وبعد فالعون من الله الحيد في نظم أبيات للآمي تفيد

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك

وهذه الإشارة في هذا الباب أثيرها قصداً، لما يحصل من التأثير بالمنهاج الأخرى داخل الكتابات القرآنية، وهي غير ضارة في حد ذاتها، بقدر ما تنتج لنا من أناس يختلفون مع غيرهم فيما تعلموه وتربوا عليه في البلد الواحد.

إذ تلقى الرأي الآخر، ومعرفة الخلاف العالي، وباقي المذاهب لا يضر مع مستقبل الأيام، لكن في هذه المراحل الأولية من التعليم بالكتاتيب، يُحتاج إلى توحيد الرأي والمذهب والفقهاء أثناء الشرح والتوجيه. مما يقتضي توفر الكتابات على مؤطرين لهم نفس التوجه الفكري والعقدي، فالتعليم بالقدوة له أكبر الأثر في نفسية المتلقي، فإن غاب الأمر عن المقتدى به فلا يمكننا انتظاره من المقتدي.

هـ- الحرص على تعليم اللغة العربية مع حفظ القرآن

مما يلاحظ على مؤطرينا أنهم لا يستعملون اللغة العربية للتخاطب والتحدث بها بين المتعلمين أنفسهم فضلاً عن بقية المجتمع، بل يضطر المعلم أن يشرح في كثير من الأحيان، أو يوجه باللهجات المحلية لتلاميذه! كما أنه من بين أسباب ضعف اللغة الاقتصار على تعلم النحو والصرف غالباً -دون دراسة الأدب والبلاغة والتعبير-، مما يخرج طالباً قارئاً كاتباً فقط!

فتقويم لسان الأطفال داخل الكتاب أمر أساسي، والحفظ يمنح بعض هذا، ولكن لا يمنحه كاملاً، لهذا يبقى دور الفقيه والمعلم أساسياً في هذا الأمر، ولعل مما يعين عليه، التحدث بها داخل الكتاب، وحسن توجيههم نحو فهمها والقراءة بها.

ويستحسن أن يرفق تعليم القرآن بتعليم وحفظ متن الأجرومية في النحو، ولامية ابن الوردي في الأدب...

وهذا يدفعني إلى القول والسؤال لماذا لا يتم تنظيم هذه الكتاتيب في إطار يجمعها ويحدد منهجها، ويضعها في درج سلم معين، من ارتقاه وصل إلى ما يليه.

و- التدرج في التعليم

وهذا منهج فريد تميزت به شريعة الرحمان، بحيث يلزم اتباعه حين الرغبة في إيصال المعارف والعلوم، إذ لا يعقل أن يلقي العلم أو تعطى المعارف جملة أو طفرة واحدة، بل لابد من التدرج في إملاء العلوم وتلقينها، وخصوصاً تحفيظ القرآن، فإملاؤه على المتعلمين يكون بحسب معرفة مداركهم وقوة حفظهم ومدى استيعابهم، وكذا سائر العلوم التي يحتاجها الحافظ لكتاب الله من تفسير ولغة وبيان...

وفي ذلك يقول ابن خلدون رحمه الله: "اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً، وقليلًا قليلًا يلقي عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسأله، ثم يرجع به إلى

الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته، ثم يرجع به وقد شد فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقا إلا وضحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته. هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه، وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفاداته ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها وقبل أن يستعد لفهمها، فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجا ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال والأمثال الحسنة ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن وإذا ألقيت عليه الغايات في البدئات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه، وإنما إلى ذلك من سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئا كان أو منتهيا ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى

يعيه من أوله إلى آخره ويحصل أغراضه ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره، لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويئس من التحصيل وهجر العلم و التعليم و الله يهدي من يشاء...²⁴.

إن التدرج في التعليم له ما له من إيجابيات، بحيث يستطيع المعلم اكتشاف قدرات مريديه، فيميز بين المتفوق منهم والبسيط في الفهم، فيبني على ذلك حلقاته وتوجيهاته.

ز- التربية العقابية

لن نبدع بالتأكيد في مسألة العقاب، ووسائله، ولكني أقدم هذه الأسئلة لتجيب عن نفسها في الموضوع.

لماذا الضرب في حد ذاته؟ وهل أعطى ثماره في السابقين؟

ألا يحتاج الأمر بعض الاستقراء وبعض الحوارات مع من تخلوا عن الدراسات بالكتاب بسبب الضرب الشديد الذي تلقوه على يد الفقيه؟

بل ألا يحتاج الأمر الاستفسار عمن انحرفوا بعد الحفظ بسبب هذا النوع من العقاب؟

نعم، إنها أسئلة، ولكني أجيب باختصار، بأن زمن الضرب قد ولى، واقتحم عليه المجال زمن الحوار والافهام والتواصل بشتى أنواعه، كما حل محله زمن الترغيب والمسابقات والمباريات...

24- تاريخ ابن خلدون، 1/734/ الفصل السابع والثلاثون : في وجه الصواب في تعليم العلوم و طريق إقافته.

ويجب أيضا على معلمي الكتاتيب كما يبدعون في وسائل التعليم وتحبيب المواد المدرسة، أن يبدعوا في وسائل العقاب الايجابية، بدل السلبية التي لا تثمر شيئا سوى الحقد والكراهية وحب الانتقام مع توالي الأيام، أما الوسائل العقابية الايجابية فهي تثمر التحفيز والرغبة والمسارة نحو تجاوز الأخطاء والتقدم على الأقران...

وهذا لا يعني أبدا ترك الحبل على الغارب، بل يعني ضمن ما يعنيه الحزم من غير فضاضة والرفق دون هزل كما قال الشاعر:

فقسا ليزجره ومن يك حازماً فليقس أحيانا على من يرحم²⁵

5-آفاق المدرسين

وهم من أقطاب العملية التربوية والتعليمية، وينبغي الاهتمام بوضعيتهم، ومكانتهم، ومؤهلاتهم.

ولن يتم ذلك إلا بما يلي:

أ-إحصاء المدرسين بكتاتيبهم.

ب-وضع ملف علمي لكل معلم بالكتاتيب، لمعرفة الموجود كما يلزم للانطلاق إلى المقصود.

ج-توحيد الشواهد التي ينبغي توفرها في معلم الكتاب. وأستحضر هنا كلمة السيد الوزير السيد أحمد التوفيق أمام البرلمان: "حيث أوضح سيادته أن من شروط تحفيظ القرآن الكريم الحصول على شهادة تمنحها المجالس العلمية الجهوية فضلا عن شهادة حسن السيرة المأخوذة من السجل العدلي.

25- الوافي في الوفيات، 903/1.

د- وهذا جيد في حد ذاته، وخطوة أولى في المسار الصحيح، لكن يحتاج هؤلاء المعلمون إلى تأطير خاص، تعد له الوزارة المعنية ولو جهويا أو بجمع الجهات المتقاربة- كما حصل في شهر مارس من سنة 2006 بإقليم دكالة، من اختيار سبعة أفراد من خمس جهات يدرسون بالمدارس العتيقة، بحيث تبادلوا المعارف والتجارب، كما تلقوا توجيهات وتدريبات موحدة ستعمل بكل تأكيد على تجديد نظرهم للتعليم العتيق-. وهذا إن حصل سيكون له أكبر الأثر في الدفع بمسار التعليم بالكتاتيب القرآنية ببلدنا.

وأقترح هنا:

- أن يكون اختيار معلمي الكتاتيب اختيارا دقيقا، حيث يكونون ذوي أهلية علمية، وخبرة عملية، وهمة وبصيرة دعوية، ليكون تأثيرهم أكثر وأنفع.

- عقد دورات تدريبية لمدرسي الكتاتيب يحضرها ويؤطرها المتخصصون، وتكون تحت عناية ونظر المديرية المعنية.

وأقترح أن يشمل هذا البرنامج ثلاث نقاط:

أ- طرق التحفيظ: من أجل النظر فيها، وتحديد ما يمكن تجديده فيها، وتجنب ما ينبغي تجنبه فيها.

ب- الطرق البيداغوجية: من أجل تبني الصالح منها، وتصحيح السلي أو المتجاوز منها، وهذا ليس عيبا، بل هو عين الحقيقة وعين الواقع، فلكل زمان منهجه ونهجه التربوي، وقديما قيل: "لا تكرهوا أولادكم على آثاركم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم".²⁶

فقديما كان التحفيظ من أجل التحفيظ، واليوم ينبغي أن يحدد الهدف من

26- إغاثة اللفهان: 265/2. والممل والنحل للشهرستاني: 82/2.

التحفيظ، والهدف الأكبر الذي يطمح للوصول إليه.

فالكتاب هو من يصنع الناشئة، وهو من يعمل على تكوينها التكوين الاسلامي النقي الطاهر، وهو من يعلمهم المبادئ الأولية للكتابة والخط، وهذا يعني: أن الانطلاقة الصحيحة تكون من الكتاب كما أن الانطلاقة السيئة قد تكون منه أيضا. فالمنهج الوسط يتلقى في الصغر، والمنهج الخطأ كذلك يتلقى في الصغر، والأمة محتاجة لمن ينظر بعين البناء للأشياء لا بعين الهدم، وهذا ما يجب أن يتعلمه أبناؤنا في مراحلهم التربوية الأولى.

ومهما اختلفت مناهج التلقين، فإن وضع الرجل المناسب في المكان المناسب معين على تجاوز صعوبات المنهج، واختلاف الطرق التربوية...

6- آفاق التسيير والتدبير

وهذا موضوع لا يجب الاستهانة به، فالتنظيم هو أساس كل تنمية، وعملية الكتاتيب هي عملية تنمية للموارد البشرية، وتنظيمها وحسن إدارتها هو إسهام في التنمية البشرية وضبطها...

فكما هو معلوم فـ "لا عقل كالتدبير"²⁷. وتدبير الأشياء عامل في نجاحها، وحافظ لها مما قد يلم بها... واعتمادا على التقرير الذي قدمه السيد الوزير، فالكتاتيب لحد الآن تسيير بنفسها في أكثر من ثلثي عددها، وهذا لا اعتراض عليه، ولكني أقترح أمورا من أجل تصحيح مسار الكتاتيب، تحتاج إلى تدبير الموجود تدبيرا إداريا، بحثا عن النتيجة المرجوة، وتحقيقا للمنهج الوسط الذي يسهم في تحقيق التنمية البشرية التي نادى بها أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس راعي القراء والمقرئين، والساھر على حمى الملة والدين.

27 - سنن ابن ماجه، 4218/1410/2، والمعجم الكبير، 1651/157/2، ومجمع الزوائد، 7113/392/4، وصحيح ابن حبان، 361/76/2. وضعفه الألباني في الضعيفة.. 1910/382/4.

وقد قدمت بعض هذه الاقتراحات حين معالجة المكونات الست التي تقوم عليها الكتابات القرآنية، وأضيف إليها الآن أمرين اثنين:

أ- بعد إحصاء الموجود من الكتابات إحصاء دقيقاً، ووضع أرشيف للمؤثرين، ومستواهم العلمي، يتم إعداد دليل علمي عليه يسير الجميع، مع مراقبة تنفيذ هذه الإجراءات من طرف المجالس العلمية وفروعها، بتنسيق مع مندوبيات الشؤون الإسلامية.

ب- وهذا أمر يجب الانتباه إليه ووضع في الحسبان، ويتمثل في أسئلة أساسية ينبغي وضعها، تبعاً لهذا الاهتمام، وتتمثل الأسئلة في:

- ما هو مستقبل خريجي الكتابات القرآنية؟

- وكيف يمكن التنسيق بين الموجود من الكتابات والمعاهد الإسلامية مثل: جامع القرويين بفاس، ومعهد البعث الإسلامي بوحدة، والمدرسة القرآنية التابعة لمسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء، ومعهد ابن عطية الديني بطنجة، والمعهد الديني بأرغود والمعهد العلمي بكلميم وغيرها.

وكيف يمكن التنسيق أيضاً بين الكتابات والمدارس القرآنية والعتيقة مثل: مدرسة سيدي الزوين بمراكش، ومدرسة الحسن الثاني للقراءات بتارودانت، ومدرسة زهيري للقراءات، ودار القرآن بالرباط، ومركز القراءات بتطوان ومراكز التربية الدينية، وصولاً إلى الجامعات فدار الحديث الحسنية؟ وغيرها مما لم أذكره.

- وما هي علاقة هذا التعليم كله بالتعليم الأصيل الذي شهد إصلاحات جوهرية بداية من شهر شتنبر 2005، حيث أحدثت مدارس خاصة بالتعليم الأصيل تستوعب التعليم العام إضافة إلى العلوم الإسلامية من حفظ وتفسير وحديث وفقه؟

بالتأكيد أن هذا الموضوع يحتاج إلى تدبير إداري وعلمي، إذا رغبتنا في السير قدماً بالتعليم الديني والعتيق في بلدنا، وذلك ب:

- ربط الصلة بين هذه المؤسسات جميعها ربطاً محكمًا، بحيث تصب كل واحدة في الأخرى، فمثلاً:

يبدأ الطفل في الكتاتيب فيحفظ القرآن وبعض المتون التي قد نسميها كما سماها الأقدمون المرتبة الأولى في التعليم، أو **المبتدي**. فإذا أنهى مدة دراسته فيها وقد تستغرق ثلاث سنوات إلى خمس، يتخرج التلميذ منها بشهادة تمنح له من طرف المجالس العلمية بعد اختبار أو مباراة، ليسمح له بولوج المدارس العتيقة القريبة منه، فيتعلم فيها البرنامج الثاني الذي يسمى عند أهل الفن "**الوسطى**"، فإذا نجح فيها وتلقى فيها المعارف المطلوبة، ارتقى بعد امتحان أو مباراة للولوج إلى المعاهد الدينية، ليدرس البرنامج الثالث والمسمى "**بالمتهى**"، أو يلج المعاهد الأصيلة قصد الحصول على شهادة البكالوريا التي تخوله الالتحاق فيما بعد بدار الحديث الحسنية أو غيرها ...

- وأمر آخر يجب أن لا ينسى أو يهمل، ويتمثل في البحث عن كيفية استفادة المتعلمين بالكتاتيب من قناة محمد السادس للقرآن الكريم؟ وكذا الدروس التي تعدها وزارة الأوقاف للأئمة في المساجد؟

هذه إذن إشارات وددت بها تقديم اقتراحات في موضوع الكتاتيب، إسهاماً مني في التنمية البشرية التي يسير في ضوئها بلدنا الحبيب في جميع الميادين، والرغبة في العمل شيء إيجابي، يحتاج من بعد إلى إتقان العمل المطلوب، حتى لا يضيع الوقت ويضيع الجهد، فرقي الأمم اليوم يقاس بمدى استغلالها للجهد والوقت والعاطفة، وهو ما بينه الرسول الكريم في

سننه حيث قال: " إن الله يحب إذا عمل العبد عملاً أن يتقنه " ²⁸.

خلاصة:

هذه هي التنمية البشرية التي نسعى إليها، والإنسان هو محورها وهو نواتها، وهو أصلها وقاعدتها، فبدون الإنسان الصالح، وبدون (أولاد الناس) لن نستطيع أن نخلق تنمية ولا أن نبني حضارة، ولا أن نشيد صرحاً.

هذا ما يجب أن يفهمه الخاص والعام من أبنائنا، ويعمل الجميع من أجله، وربنا يقول: ﴿وَقُلْ لْعَمَلِكُمْ فِى الدُّنْيَا حَسْرَةٌ وَالْأَعْمَالُ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُؤْتَوْنَ﴾. سورة [التوبة:105].

فإما أن نعمل لنكون، وإما أن الحضارة ستتجاوزنا، والركب سيسبقنا، ولن يكون النادم غيرنا، فحي على العمل حتى نحقق للتنمية تنميتها.

28- المعجم الكبير، 306/24، وصححه الألباني في الصحيحة: 106/3.

الكتاتيب القرآنية : الواقع والآفاق

آليات وطرق تحسين أولئها ومروويتها

عبد الفتاح الفريسي

أستاذ بدار القرآن مؤسسة عبد الحميد احساين بالرباط

مقدمة

لقد كان نزول القرآن الكريم إعلاما بميلاد الأمة الإسلامية، وإيدانا ببروزها، فعلى أصوله نشأت، ومن أحكامه وأخلاقه استمدت مكوناتها العقدية والفكرية والحضارية، وكانت الكلمة القرآنية بالنسبة للمسلمين ركيزة جهادهم، ومنهل أدبهم، ومصدر عطائهم الثقافي والحضاري، من خلالها حددوا معالم عقيدتهم وعبادتهم، ورسموا خطوط أخلاقهم وتصوراتهم عن الحياة والكون والإنسان، وتشكلت ثقافتهم وفنونهم وذوقهم، فكانوا بذلك خير أمة أخرجت للناس.

ولقد حظي تعليم القرآن الكريم من قبل المغاربة على اختلاف عصورهم وأزمانهم بعناية عظمى، باعتباره من أوجب الواجبات الشرعية، واجتهدوا في ابتكار الطرق والمناهج التي تضمن نشره وتحقيق أهدافه، وابتكروا فيه وطوره، حفظا وفهما، رواية ودراية، واعتنوا بعلومه وفنونه، حيث أقاموا الكتاتيب القرآنية والمعاهد والمدارس وأسسوا الأوقاف، ورتبوا المدرسين والمعلمين والمدرسين، علماً منهم بأن دعم تعليم القرآن الكريم وتشجيع مدارس وإصلاح مناهجه وبرامجه سبب قوي من أسباب مواجهة المصاعب والمحن واستتباب الأمن الروحي والمادي.

ولا يجادل أحد في أن المسلمين في هذا العصر يواجهون تحديات كثيرة،

ومتاعب عديدة، الشيء الذي يجعل من البحث عن البدائل الصالحة والحلول الناجحة أمرا ضروريا إن أرادوا أن يدافعوا غيرهم ويثبتوا وجودهم في عالم لا مكان فيه لضعيف، لذا نعتقد أن علينا أن نبذل ما نستطيع من جهد في سبيل إثارة اهتمام مؤسساتنا الرسمية والشعبية نحو قضية التربية والتعليم، وخصوصا ما يتعلق منها بتعليم الصغار، بوصفها الأكثر فاعلية في تشكيل ملامح جيل جديد، في أفق تنمية بشرية واعدة لا يمكنها أن تتحقق بغير قراءة متبصرة لتراثنا واستشراف للمستقبل وفق منهج علمي يفقه الماضي ويستوعبه ويدع أساليب جديدة في المناهج والأساليب.

ولا شك أن مناهج التربية عموما وما يتعلق منها بالتعليم الديني على وجه الخصوص قد تعرضت إلى موجة من التحديات يمكن إجمالها في نوعين:

أولاً: موجة التغريب الثقافي باعتماد النظريات الوافدة والنماذج المستوردة في صياغة المناهج التعليمية تحت ضغوط مباشرة أحيانا وغير مباشرة أحيانا أخرى، أمسى معها كل إصلاح مشوبا بالمخاطر والمعوقات، في ظل ازدواجية في المناهج التعليمية، وتضارب في المشارب، وتشتت في المرجعيات، مما انعكس سلبا على أهداف العملية التربوية وفلسفتها، وأثر على صياغة البرامج العلمية والمناهج التربوية.

الثاني: موجة الجمود والتفوق، وتقديس الذات بالذوبان في مناهج السابقين، أمسى معه الانغلاق ظاهرة تصبغ مناهج التعليم الديني في كثير من مدارسه ومعاهده، الشيء الذي أثر سلبا في فاعلية هذا النوع من التعليم، تسبب بالتالي في تهميشه وعزله، وانعكس ذلك كله على حضور الخطاب الديني حضور فاعل مؤثر ومشارك في صياغة أساليب الحياة والناس.

والحق أن الحديث عن الكتابات القرآنية واقعا وآفاقا يتسم بسمات خاصة

منها ضالة المعلومات وقلة الإحصاءات وضعف الثقة في كثير من المتاح منها، ورغم ما أجري من دراسات حول ذلك في المغرب إلا أن كثيراً منها دون المستوى المطلوب، والمتاح منها للباحثين قليل كحال كثير من الدراسات العلمية في عالمنا الإسلامي.

وسنسعى في هذه الورقة إلى إعطاء فكرة ولحة عامة وموجزة حول الكتابات القرآنية وموقعها ضمن خارطة التعليم الإسلامي في بلادنا، مع الإشارة إلى بعض المشاكل والتحديات التي تقف في وجه نهوضها وتطورها، مع ذكر بعض الآليات والحلول التي نراها كفيلة بالنهوض بمستواها ومردوديتها.

ورأينا أن نهد هذه الورقة بذكر جملة من المقدمات يمكنها أن تساعدنا على فقه السياق الواقعي والجو العام الذي له علاقة في فهم موضوع ندوتنا، وهي كما يلي:

أولاً: إن فهم الإسلام وتحديد الخطاب الديني لا يمكنه أن يتم من غير امتلاك درجة جيدة من الرقي الفكري والثقافي والوجداني، وهذه أمور يصعب التعامل معها من غير وسيط ثقافي ومعرفي يوفره التعليم الديني، إذ العلاقة بين تأثير الأمية الدينية ودرجة التعليم في ضعف فهم حقيقة الدين ومستوى الالتزام به علاقة قوية لا جدال فيها، وبالتالي فالاهتمام بالكتاتيب والمدارس الدينية اهتمام بصلب الخطاب الديني وطريق قوي في سبيل نشر ثقافة إسلامية تقوم على التبصر والحضور.

ثانياً: إن التقدم في مجال العلوم والتربية والتعليم، خصوصاً ما يتعلق منها بجوانب الهوية والذات صار شرطاً من شروط كل نهضة وتنمية، وأصبحت قدرة الأمم على تجاوز مشكلاتها الداخلية وتمكنها من المنافسة في الأسواق العالمية رهيناً بمدى قدرتها على استيعاب مهارات التعليم والثقافة، و"هذا كله يعني أن

الأمم التي تعلم وتربي وتدرّب بطريقة أفضل هي الأمم المرشحة لأن تتبوأ القمة، وهذا نشاهده اليوم في حياتنا، فمعظم الأمم ذات الدخل الاقتصادي المرتفع لم يتحسن اقتصادها بسبب ما تملك من ثروات، وإنما بسبب توظيف العلم والمعرفة وتقديم الصناعة"¹.

ثالثاً: لا بد ونحن نتحدث عن الكتابات القرآنية وهي أصل أصيل للخطاب الديني أن نتساءل عن مدى صحة الجدل القائم حول التعليم الديني عموماً وصلته بالتطرف والإرهاب، أ طرح هذا السؤال في هذا الوقت الخاص، فهذا السؤال هو واحد من بين الأسئلة الكثيرة المطروقة لجواب واضح مقنع، وهو سؤال من المفروض أن يشكل أرضية للنقاش العلمي والموضوعي في عالمنا العربي والإسلامي، بل إن الأمر قد تعدى مساحة الحوار والنقاش في بعض البلدان حيث اتخذت مجموعة من القرارات بشأن التعليم الديني عموماً والكتابات القرآنية على وجه الخصوص فتم تقليص ساعات مقرر المواد الدينية أو إلغاؤها في بعض مراحل التعليم العصري أو دمجها بمواد أخرى، والغريب في الأمر في هذا الموضوع أن كتابات الكثيرين من القائمين على الثقافة والإعلام خصوصاً أصحاب الثقافة الشمولية الموروثة عن أنماط التفكير المغلق والإقصائي الذي ينظر إلى الأمور بحسب ما تمليه بنية التفكير المغلقة – إذ استغلوا الموضوع ليطرحوا رؤى هي من التطرف بما يكفل صناعة إرهاب جديد، ومن ذلك الدعوة الصريحة لإلغاء مقررات التربية الدينية من برامج ومناهج التعليم أو دمجها ضمن مقررات أخرى وتقليص حصصها أو على أقل تقدير تغيير مضمونها ليناسب في زعمهم المتعارف المكتسبات الإنسانية والأسس الحداثية والمعارف العصرية في إطار مشروع يقوم على أساس قراءة القرآن قراءة جديدة تقوم على أدوات

1- أنظر: بناء الأجيال، د عبد الكريم بكار، ص:7، سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي، الطبعة الأولى، 1423-2002م.

ومناهج جديدة.

رابعاً: لا يجادل أحد في أن حال مقررات ومناهج الكتاتيب القرآنية يحتاج إلى مزيد من الدعم والاهتمام باعتباره تعليماً يعهد له الكتابة على صفحة الطفل الجديدة، فهو الأقل أهمية واعتباراً في أوساط الناس والمجتمع، ومدرسه هم الأقل تكويناً وكفاءة واحتراماً، مما ينعكس حتماً على مردودية الكتاتيب القرآنية وتفاعل المجتمع معها، خصوصاً في ظل المتغيرات العلمية الحديثة و تعدد الوسائط التربوية.

ولا خيار أمام أمتنا وهي تحاول أن تنهض من جديد في وجوب إعادة تأهيل تعليمها الشرعي وكتاتيبها القرآنية التي تعتبر أول لبنة من لبنات بناء الشخصية المسلمة حتى نستشرف المستقبل على أسس ثابتة وخطوات واعية، مساهمة في تحقيق الوعي الحضاري والتحصين الثقافي والفكري، وفك أغلال التبعية والاستيلاء والقابلية للذوبان في الآخر، حتى يكون إصلاح الخطاب المنشود إصلاحاً واعياً مبنيّاً على أسس متينة ونتمكن بذلك من استئناف دورنا في التدافع الحضاري في عالم (العولمة والنظام الدولي الجديد) الذي لا يعترف بمن لا علم له ولا قوة، مستثمرين إمكانياتنا العلمية والحضارية، مع فهم وإدراك لمتغيرات العصر من حولنا. ولا أجد في ختام هذا التقديم ما أحتم به خيراً مما قاله جلالة الملك محمد السادس نصره الله وهو يؤكد وجوب الاهتمام بالشأن الديني وبجانب التعليم الديني على وجه الخصوص، باعتباره المحدد والمؤطر لكل عملية بناء وإصلاح، يقول جلالتة: "مواصلة للجهود الرائدة التي بذلها والدنا المنعم جلالة الملك الحسن الثاني، قدس الله روحه، نصدر تعليماتنا لحكومتنا قصد اتخاذ التدابير اللازمة بأناة وتبصر، لعقلنة وتحديث وتوحيد التربية الإسلامية والتكوين المتين في العلوم الإسلامية كلها في نطاق مدرسة وطنية موحدة، وفي هذا السياق

حرصنا على تأهيل المدارس العتيقة وصيانة تحفيظ القرآن، وتحسينها من كل استغلال أو انحراف يمس بالهوية المغربية، مع توفير مسالك وبرامج للتكوين، تدمج طلبتها في المنظومة التربوية الوطنية، وتجنب تخريج الفكر المغلق، وتشجع الانفتاح على الثقافات"².

أسئلة الدراسة وإشكالاتها

إن المتأمل في مناهج التعليم في واقع الكتابيب القرآنية بالمغرب يجد نفسه محاصرا بعدد من الأسئلة تتعلق بالنجاعة والقيم ونوعية الكفاءات العلمية والمعرفية التي يمكن لهذا النوع من التعليم أن يخلقه وينتجه، ويمكننا أن نمثل لهذه الأسئلة بما يلي:

هل الحاجة إلى الكتابيب القرآنية لا زالت تفرض نفسها في ظل الحديث عن تحديث أنماط التعليم والتكوين والتربية؟ وهو سؤال طالما طُرح على بعض المنابر وعبر بعض وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة، لذا من الضروري جدا أن نبحث المسألة بعيدا عن كل تشنج وتعصب وبكل عمق وروية.

• ألا يمكن للكتابيب أن تعرف نوعا من التحديث دون أن يخل ذلك بجوهرها وأسس وجودها؟

• ما هي الأسس النظرية والعملية التي ينبغي أن تحدد رؤيتنا إلى مناهج التعليم في الكتابيب القرآنية؟

• ما نوع الدور التي يجب أن تضطلع به الكتابيب القرآنية في التنمية البشرية المنشودة؟

2- من خطاب جلالة الملك محمد السادس نصره الله 30 أبريل 2004 بالقصر الملكي بالدار البيضاء أمام أعضاء المجلس العلمي الأعلى ورؤساء المجالس العلمية بالمملكة، نقلا عن مجلة: دعوة الحق، العدد 379 جمادى الأولى والثانية 1425 هـ الموافق يوليوز 2004.

إن هذه الأسئلة لا يمكن الإجابة عنها في غياب تصور واضح، ورؤية واقعية، بعيدة عن الارتجال في الرأي ومغازلة الذات، لا يفتح معها الطموح حتى يصبح حلما، ولا ينغلق أمامها الأفق حتى يمسي مستحيلا، الأمر الذي يتطلب توظيف الجهود في اتجاه واحد لا بديل له طبقا لمعيارية محورية تنطلق من عدة منطلقات:

✓ إعادة قراءة تاريخ التعليم الديني عموما والكتاتيب والقرآنية على وجه الخصوص من منظور بناء جسور الثقة بالذات والقدرات دون الغلو في المباهاة والتفاخر، والتحول من ثقافة القول إلى ثقافة الفعل.

✓ الاعتراف بحالة بعض التردّي الذي تعاني منه الكتاتيب القرآنية، والعمل على تجاوزه ومعالجته معالجة تقوم على العلم والبحث الرصين والتأني.

✓ الإيمان بأن دوام الحال من المحال، وأن الأزمة التي تعاني منها الكتاتيب القرآنية ما هي إلا انعكاس طبيعي للأزمة التي تعيشها الأمة جمعاء، وأن الخروج منها ممكن إذا صدقت النيات وعلت الهمم.

✓ الاهتمام بوضع شروط ومعايير علمية دقيقة وعملية في البحث عن حلول ناجعة، في سبيل إحياء هذا النوع من التعليم يقوم على أساس التجديد من منظور عصري متجدد يأخذ بعين الاعتبار المستجدات والمتغيرات التي عرفها العصر، الأمر الذي يتطلب جهودا كبيرة متكاثفة تنهض على قيمة المرونة والحضور.

وهنا لا بد من أن نذكر أن الدعوة إلى مراجعة وتحيين التعليم بالكتاتيب القرآنية ليست قضية جديدة قد يعتبرها البعض رضوخا للإملاءات الغربية في إطار (حربها على الإرهاب)، فالتجديد سنة من سنن ديننا، وهو سبيل من سبل

التطور ومواكبة العصر، ولذلك كان العلماء في دعوتهم إلى الإصلاح والنهضة يؤكّدون ضرورة فهم نصوص الدين فهما يقوم على قراءة منهجية لنصوص الوحي والرسالة، وما كتبه (محمد راغب الطباخ) في بلاد الشام، أو (محمد عبده) في مصر أو (محمد الطاهر بن عاشور) في تونس أو (علال الفاسي والمختار السوسي) في المغرب حول ضرورة الاهتمام بفهم سليم للوحي لا يمكنه أن يتحقق إلا بإصلاح لمجال التعليم الديني وطرق تدريسه.

الفصل الأول: الكتابات القرآنية: الأسس والوظائف

حين نتحدث عن موضوع الكتابات القرآنية بالمغرب فنحن نتحدث عن تاريخ بأكمله، تاريخ يتكون من حقب ومراحل عدة تختلف في ثقافتها وسياساتها، وتتنوع في أوضاعها الفكرية والعقدية والاقتصادية، وتختلف في نظرتها الحضارية، ولكنها تتوحد في شيء واحد، وهو حرصها على المحافظة على القرآن الكريم وعلومه ونشر ثقافته وفنونه.

والكتابات القرآنية تعد اللبنة الأولى من لبنات التعليم الإسلامي، فهي أساسه وركيزته، حيث يعد الكتاب أسبق أنواع المؤسسات العلمية ظهورا في تاريخ المسلمين، وذهب الإمام الونشريسي إلى أن دور الكتاب محدد في تعليم القرآن الكريم حفظا وقراءة، والشكل والمجاء والخط وأحكام الوضوء والصلاة من فرائض وسنن³، وقال غيره اسم الكتاب يعود أصله على معنى تعليم الأطفال التكتيب أي الكتابة⁴ وهي الوظيفة الأولى والأساس في الكتاب القرآني⁵.

وقد اختلف دور الكتاب القرآني باختلاف البيئات وأصول الناس وطبقات

3- أبو العباس أحمد الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب على فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، ج 8، ص19، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، الرباط 1981.

4 - L. Brunot : L'Ecole Coranique dans le monde musulman : B.E.P.M vol n.102 fev. 1932; p.82.

5- محمد بن تلويت ومحمد الصادق عفيفي، الأدب المغربي، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت 1960.

الأطفال، فهو في الدول العربية يجعل من تحفيظ القرآن الكريم محور منهجه، في حين يقتصر في البيئات غير العربية على تعليم مبادئ العربية وأصول العبادات وما تيسر من أبجديات الفقه والمعرفة الدينية.

وقد اختلفت تسمية الكتاب القرآني عند المغاربة من منطقة إلى أخرى، فهو في طنجة ومراكش وقبائل الشاوية يحمل اسم "الجامع" وفي مدن الرباط وسلا وفاس ومكناس يسمى "المسيد" وهي كلمة أصلها مشتق من "المسجد"، أما مناطق سوس فإنها تطلق على الكتاب القرآني اسم "أخريش"⁶.

هذا وقد عرف المغاربة الكتاب القرآني منذ عرفوا الإسلام، إذ وجد منذ الفتح الإسلامي، و"كان منذ النصف الأول من القرن الأول عبارة عن خيمة من جملة الخيام قبل أن تمصر الأمصار، وكان جيش الفتح يصطحب معه خطباءه وشعراءه ومعلميه"⁷.

فالكتابيات القرآنية من أول أنماط التعليم في المغرب وأشهرها، وهي أبسط مؤسسات التعليم، وتركز في منهاجها الدراسي على تعليم مبادئ القراءة والكتابة، بالإضافة إلى حفظ القرآن الكريم، وهي في الغالب تتمركز في المساجد، أو في بناية ملحقة به.

ويتم التعليم بالكتابيات بصورة تقليدية حيث يمثل المعلم قطب رحى العملية العلمية، ويفتقر في الغالب إلى إعداد وتأهيل بيداغوجي، حيث يكفي إتقانه لتلاوة القرآن الكريم وتمكنه من حفظه واستظهار بعض متون العلوم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكتاب القرآني ظل في أغلب الأوقات عبارة عن مدرسة متواضعة تتم بمبادرة من المحسنين وأهل الخير، يتعلم فيها الأطفال

6- المختار السوسي، مدارس سوس العتيقة، ص1، طنجة، طبعة 1987.

7- محمد بن تايوت ومحمد الصادق عفيفي، الأدب المغربي، ص80.

الضروري من المعارف تؤهلهم إلى بداية حياتهم العلمية ومستقبلهم المعرفي، "فمنذ أن نشأت الكتاتيب، وإلى عهد قريب كان الهدف الأساس من وجودها تحفيظ الصبيان القرآن الكريم، وتعليمهم القراءة والكتابة، وبعض النحو، والعربية والحساب، وشيئا من الشعر الحسن"⁸، وكانت بعض العائلات الميسورة تخصص جناحا خاصا في بيوتها لتعليم أطفالها، وتعين لهم معلما "فقيها"⁹، كما كان التلاميذ يتلقون بعض الآداب والأخلاق الإسلامية التي يحتاجها الصبي لتقويم نفسه وسلوكه، بالإضافة إلى ذلك "هناك هدف هام من أهداف التعليم في هذه المؤسسة، هو تأهيل الطلاب لمواصلة تعليمهم في المرحلة التالية"¹⁰، وكانت الدراسة في الكتاب لها نظامها الخاص بها، وبرامج متعارف عليها، وتوزيع للمواد خاص بها، وعطلة أسبوعية¹¹ وأخرى بمناسبة الأعياد الدينية لفترة أسبوع أو أسبوعين حسب التقاليد والأعراف.

أهداف الكتاتيب القرآنية ومناهجها وبرامجها:

لا شك أن الهدف الأول من إنشاء الكتاتيب القرآنية بالمغرب كان هو تحفيظ القرآن الكريم كله أو بعضه، حيث كان مذهب المغاربة يقتصر على تعليم القرآن الكريم ولا يخلطونه بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه خلافا لأهل المشرق والأندلس، فقد كانت الكتاتيب في المشرق تهتم بالجمع بين تحفيظ القرآن وتعليم مبادئ العربية والمجاء والإملاء والخط في آن واحد، وأما أهل الأندلس فقد كانوا يهتمون بتعليم الأطفال بالإضافة إلى أبجديات القراءة والكتابة الشعر والآداب، فإذا أتقن الطفل ذلك انتقلوا به إلى حفظ القرآن الكريم.

8- أحمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام، ص11، دار المعارف.

9- G.Demombynes; Op.cit, p.19.

10- د.فاروق عبد المجيد السمراي، أهداف وخصائص التعليم الإسلامي، ص62، دار النفائس، الأردن، طبعة 1-1999.

11- الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا، ج1، ص204، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1980.

ومنهج المغاربة كان مبنيا على تصور تربوي خاص، يقول فيه ابن خلدون: "فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارس بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه، أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة، وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشيبه، وكذا في الكبير إذا راجع مدارس القرآن بعد طائفة من عمره، فهم بذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم"¹².

ولا شك أن لكل طريقة إيجابياتها، فإذا كانت مناهج الكتاتيب الشرقية والأندلسية أشمل، فإن طريقة المغاربة أسلم¹³، ذلك أن التلميذ كما هو متعارف عليه، يسهل عليه حفظ القرآن في السن المبكرة في حين يصعب عليه في السن المتقدمة، ولذلك وجب الاهتمام بتحفيظه القرآن الكريم في سن الصغر.

وقد قامت الكتاتيب القرآنية بدور طلائعي في خدمة المغرب، وجنبته المزالق والمهالك وحفظت له الأمن والاستقرار، فقد حقق هذا النوع من التعليم على مدى تاريخ المغرب منجزات عدة على مستويات مختلفة، دينية وفكرية ووطنية وحضارية، ومن ذلك:

12- ابن خلدون، المقدمة، فصل في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه، ج 32 من الفصل السادس من الكتاب الأول.

13- للمزيد من الإيضاح أنظر: محمد بن عبد الله، مواهب المنان في ما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

أولاً: المحافظة على دين الأمة وعقيدها:

أسهمت الكتابات القرآنية في المحافظة على الدين الإسلامي وعقيدة الأمة، كما عملت على الحفاظ على هوية المغاربة ووحدة صفهم وخصائص هويتهم العقدية والمذهبية؛ كما أنها ساهمت إلى حد كبير في إرساء أسس الاستقرار وتجنب البلاد الفتن والذوبان في الآخر والقابلية للسقوط الحضاري.

ويمكن أن نحدد معلمين كبيرين من معالم هذا الدور:

الأول: ويتمثل في المحافظة على فقه الإمام مالك بن أنس وإمام وفقه المدينة المنورة.

الثاني: المحافظة على قراءة الإمام نافع برواية ورش ومن طريق الأزرق.

وهذان الأمران في غاية في الأهمية، فالمغرب بالتزامه فقه مالك وقراءة نافع يكون قد عمل على توثيق جزء عظيم من التراث الفقهي والوحي القرآني لولا أن الله قيضه لذلك لكان هذا الموروث العلمي الكبير في عالم النسيان، ولكن إرادة الله اقتضت أن يتشرف المغاربة بهذه الميزة الرفيعة والمكانة العظيمة.

ثانياً: نشر اللغة العربية والمحافظة عليها:

اللغة العربية أساس فهم الدين الإسلامي، ومن خلالها يفهم المسلم القرآن الكريم والسنة النبوية، ويستطيع التواصل مع مصادر العلم الشرعي والثقافة الإسلامية، وتشترك مؤسسات الكتابات القرآنية بأنواعها في الاعتناء بتعليم اللغة العربية للمتمتعين إليها من خلال دروس تعليم اللغة العربية.

وقد قامت الكتابات القرآنية بدور عظيم في المحافظة على اللغة العربية لغة حية في المغرب، ونشرها في المناطق غير العربية، في قبائل سوس وجبال الأطلس والريف، فأصبح تاريخ هذه المناطق مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالعربية لغة وحضارة

الشيء الذي يبعث على التساؤل عن تاريخ هذه المناطق بمعزل عن الوثائق التاريخية المكتوبة باللغة العربية.

ثالثا: التعريف بالمغرب وحضارته:

قامت الكتابات القرآنية بدور كبير في التعريف بالمغرب وحضارته في العالم الإسلامي، وذلك عن طريق كثرة حملة القرآن الذين حفظوا القرآن الكريم حفظا متقنا، وأتقنوا متشابهه وتفننوا في مشكله ورسمه، وبرعوا في ضبط ذلك عن طريق المتون والأنصاف والتقايد.

وانتشر اختيار المغاربة في الوقف في سائر بلدان المغرب العربي، وهو المعمول به بكافة بلدانها إلى يومنا هذا، كما احتل المغاربة مكانة سامية بين الشعوب الإسلامية في إتقان وحفظ القرآن الكريم، حتى صار المثل القائل "أنزل القرآن بمكة، وحفظ بالمغرب" سائرا في الآفاق منتشرا بين الرفاق، وقد سبق ما قاله ابن خلدون عن أهل المغرب وتمكنهم في إتقان حفظ ورسم القرآن وإمامتهم في ذلك "فهم بذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم"¹⁴.

رابعا: تأهيل جيل من العلماء والوطنيين:

لقد أسهمت الكتابات القرآنية في صناعة جيل من الشباب الذين برزوا في حفظ القرآن الكريم وعلومه واستوعبوا معارف العربية والدين مما أهلهم لإتمام دراستهم بالمعاهد الدينية المتخصصة ثم التحقوا بعد ذلك بإحدى الجامعات والمدارس كالتقرويين بفاس ومدرسة ابن يوسف بمراكش وغيرهما، مما أهلهم لحمل مشعل الفكر والثقافة والسياسة والوطنية ببلاذنا.

وقد كان لهذا النوع من العلماء الأثر البالغ في صياغة مستقبل أمتهم

14- ابن خلدون، المقدمة، فصل في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه، ج32 من الفصل السادس من الكتاب الأول.

والحفاظة على تاريخ واستقرار البلاد المغربية واستقلالها، ومحاربة البدع والخرافة وإحياء الدعوة ونشرها، وفي تجديد الدين، ومحاربة التيارات الغالية والمتشددة.

خامسا: القدرة على استيعاب البيئات المختلفة:

استطاعت الكتاتيب القرآنية بجدارة التكيف مع الواقع المتنوع للمغاربة، عربيه وأمازيغيه، جباله وسهوله، واستطاعت أن تبدع من المناهج والبرامج ما يناسب فئات الناس وطرائقهم الفكرية وأساليبهم المعرفية، وبذلك ضمنت الانتشار والاستمرار، يقول الدكتور أحمد ولد الحسن: "فكان كل شعب يبدع بحسب ظروفه الثقافية والاجتماعية طرائقه الخاصة به، التي تمكن هذه المؤسسة التربوية الدينية-يعني المدرسة القرآنية- من أداء وظيفتها على أكمل الوجوه"¹⁵.

ولعل هذا هو سر استمرار هذا النوع من التعليم، كونه استطاع أن يعايش البيئات المختلفة وينساب في مفاصل المناطق المغربية، مستوعبا الظروف المتعددة والثقافات المتنوعة.

سادسا: البعد الفني والجمالي:

لا يجادل أحد في أن الكتاتيب حافظت بشكل كبير على مقومات الفنون الإسلامية بالمغرب كالخط المغربي وفن السماع والمديح وأصول الأداء في تلاوة القرآن الكريم، الشيء الذي حافظ على الطراز المغربي في هذه الفنون والصيغة المتميزة للمغاربة في ذلك كله.

وخلاصة القول في هذا الفصل، إن تاريخ الكتاتيب القرآنية بالمغرب تاريخ مجيد، يشهد بالدور التاريخي والخدمات الحضارية التي أسداها سلفنا للأجيال المتعاقبة، ويبقى السؤال المطروح بحدة: هل استطاع الخلف أن يحافظ على

15- الدكتور أحمد ولد الحسن: دليل مناهج المدارس القرآنية: ص8، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 1994/1415م.

المكتسبات العظيمة التي كسبتها الكتاتيب القرآنية، وإذا كان الجواب بالنفي فما هي السبل والوسائل للرفع من المستوى ورد الاعتبار؟

الفصل الثاني: الكتاتيب القرآنية: الواقع والتحديات

تجدر الإشارة ونحن نحاول الحديث عن واقع الكتاتيب القرآنية إلى وجوب استحضار مسألة جدية بالاهتمام، وهي أن الكتاب القرآني باعتباره كائنا اجتماعيا يؤثر ويتأثر، يسوق وينساق، في جدلية تامة مع المجتمع ومكونات الحياة، عرف ألوانا من المستويات وأنواعا من النماذج، بحسب الأزمنة والعصور التاريخية، وما يدور في المجتمع من تغيرات وأحداث، فقد عرف فترات ازدهار ونهضة، كما عرف عصور ركود وجمود.

ومع كل الخدمات الجليلة والدور الإيجابي الذي قامت وتقوم به الكتاتيب القرآنية اليوم، فإنها تشهد ألوانا من التحديات والمشاكل تحول دون تألقها والنجاح في مهمتها والاضطلاع بدورها الحضاري، ولا شك أن البحث عن أسباب الضعف والركود في واقع الكتاتيب القرآنية لا يمكن أن يفهم إلا على أساس اعتباره شرطا في كل إصلاح وتغيير، وهذه قاعدة قرآنية رفيعة القدر، جليلة المعنى، تنبني على أساس اعتبار النقد الذاتي شرطا من شروط النهضة، وسبيلا من سبل تجاوز العثرات، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا أَصَابَكُمْ مِصْبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾¹⁶.

فالتعليم في الكتاب القرآني يتم، كما رأينا، إما بإشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، عن طريق مندوبياتها الإقليمية، وعدد هذا النوع من الكتاتيب حوالي 3600 كتابا، أو عبر مبادرات فردية في الغالب، ويبلغ عدد هذا

16- سورة آل عمران، الآية: 165.

النوع من الكتابات 12800 من عمل الجماعات و 20000 للخواص¹⁷، وهذا النوع الخاص يكون إما بإشراف من وزارة الأوقاف أو من وزارة التعليم.

والكتاتيب في كل هذه الأنواع ذات إمكانيات محدودة لا يمكن أن تقارن بما يتوفر عليه التعليم الأساسي العصري ورياض الأطفال الخاصة التي ترعاها أطر متخصصة، تملك إمكانيات وأجهزة متخصصة مهما بدت متواضعة فلا تصل إلى حال الأفراد، أو مؤسسات الكتابات القرآنية.

ويظهر من هذه الإحصائية أن قريباً من (90%) من الكتابات القرآنية هي تابعة للخواص، في حين يتبع الباقي للمندوبيات التابعة لوزارة الأوقاف، مع الإشارة طبعاً إلى أن الوزارتين المعنيتين تشرفان ولو بصورة شكلية، على جميع الكتابات القرآنية وذلك عن طريق:

أولاً: منح رخص فتح الكتابات القرآنية.

ثانياً: المراقبة الدورية لبرامج ومناهج الكتابات بواسطة مفتشين يعهد إليهم بمراقبة الكتابات بين الفينة والأخرى ورفع تقارير للوزارة الوصية.

ولا بد في هذا السياق من تسجيل ملاحظتين:

الأولى: أن الشروط المطلوبة من أجل الترخيص لفتح كتاب قرآني لا تواكب المتغيرات الثقافية والفكرية، حيث تجمل الشروط المطلوبة في أمرين: **أولهما** الحصول على شهادة حفظ القرآن الكريم، مسلمة من رئيس المجلس العلمي، و**ثانيهما** شهادة صلاحية المحل المعد لذلك، مسلمة من لادن المصالح الصحية المختصة بالإقليم، هذا بالنسبة لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، أما وزارة التعليم فإنها لا تشترط سوى الحصول على مؤهل علمي لا يقل عن

17- من ملخص محضر جلسات مجلس النواب رقم 79، التاريخ: الأربعاء 28 ذي القعدة 1424 الموافق 21 يناير 2004، جدول الأعمال: مناقشة الأسئلة الشفهية المتعلقة بالقطاعات.

شهادة البكالوريا والتوفر على محل صالح.

ولا شك أن هذه الشروط لها أهميتها البالغة، لكنها تظل غير كافية لإنجاح العملية التربوية والتعليمية بالكتاب القرآني، فجهل المعلم بطرق التدريس الحديثة، ومناهج التعليم، وغياب تصور واضح لأساليب النشاط التربوي يساهم إلى حد بعيد في تأزيم هذا النوع من التعليم، الشيء الذي زهد الكثيرين في التواصل معه.

الثانية: أن المراقبة التي يقوم بها المفتشون لصالح الوزارة الوصية لا ترقى لأن تكون مراقبة مبنية على مساطر علمية ومنهجية تساهم في الرفع من مستوى العملية التعليمية بالكتاب القرآني، وذلك راجع للعدد الهائل من الكتابات، وقلة المراقبين، وعدم توفر الغالبية العظمى منهم على مؤهلات تربوية ومنهجية، مما يجعل من زيارة المراقب في غالب الأوقات زيارة مجاملة، ويجعل من التقارير المرفوعة، إن رفعت لا تتوفر على السند الأدبي والشرط البيداغوجي.

مشاكل الكتابات القرآنية

يعاني التعليم بالكتاتيب القرآنية كما سبق من مشاكل عدة لعل من أهمها:

أ: غياب فلسفة تعليمية واضحة

يستند أي نظام تعليمي إلى فلسفة تربوية واضحة محددة، تمثل إطاراً يضبط كافة عناصره وكامل أسسه، وفي غياب ذلك فسوف تتسع دائرة تأثير الاجتهادات الفردية، وتتعدد تبعاً لذلك الأهداف والأنماط وتنوع الخلفيات الثقافية والعلمية والمذهبية.

وفي تقديري، إن أهم ما يعاني منه التعليم في الكتابات القرآنية في بلادنا هو غياب هذه الرؤية الفلسفية الواضحة، وعدم القدرة على الإجابة بوضوح تام

على الأسئلة الجوهرية حول هذا المشروع الحضاري العظيم: ماذا نريد وماذا نتوقع منه؟ وكيف نتصور مستقبله؟... إلخ، وتزداد هذه الأسئلة حدة بعد الحملات المتعددة والالتزامات المتكررة للتعليم الديني بحجة أنه يفرخ الإرهاب ويصنع الفكر المتطرف.

وإننا لا نشك في النوايا الصادقة، ولا نحاكم النفوس، فلا شك أن هذا التعليم يقوم على يد من يلمس منهم الغيرة والصدق والرغبة في خدمة الدين والبلاد والعباد، إلا أنهم قد يفتقدون الرؤية الواضحة والفلسفة المحددة.

ب: ضعف المناهج

تعد المناهج التعليمية من أبرز مشكلات التعليم وأهم معالمه، فبقدر تفوق مناهج التعليم يقاس شأوه من التأهل لخوض غمار معركة التفوق الحضاري، وبقدر ضعفها وتخلفها تتجلى مظاهرها وهنها وقلة حيلتها.

والمنهج يتكون من عناصر عدة مترابطة فيما بينها، تعمل في سبيل تحقيق الأهداف عبر مجموعة من الوسائط والآليات؛ ومن ثم فإن المنهج يحتاج إلى إطار وفلسفة عامة، وأهداف، ومحتوى، وطرائق تدريس، وأنشطة، وتقنيات تعليمية، وهذه العناصر ضرورية ولا غنى عنها لأي منهج دراسي.

ولعل الباحث في واقع الكتابات القرآنية في المغرب يلاحظ بجلاء افتقار المحتوى للأهداف التربوية، وعدم مراعاته لميول التلاميذ ورغباتهم والفروق الفردية بينهم، وعدم واقعيته وشموليته، وأنه لا يواكب المستجدات الثقافية والجديد في عالم الوسائل التربوية والبيداغوجية.

كما أن من أبرز المشكلات الملحوظة في الكتابات القرآنية سلوكها مسلك الحفظ غير الواعي والسليم، مما يقيم قطيعة بين تلاوة القرآن وفهمه، ويلغي

البعد العملي والواقعي في الوحي القرآني، كما يهمل أبعادا ضرورية في العملية التربوية كالبعد النفسي والوجداني والقيمي..

ج: الإشراف الإداري والتربوي

من بين المشاكل التي يعاني منها التعليم بالكتاتيب القرآنية مشكلة فقدان نظام إداري ناضج ينظم إدارة الكتاتيب، ويسهر على شؤونها، وإذا استثنينا الكتاتيب التابعة للجهة الوصية، وهي إما وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أو وزارة التعليم فإن الكتاتيب تدار من قبل المؤسس، أو من يعينه، ويتم اختيار الموظفين الآخرين في الإطار نفسه غالباً، وبذلك يكاد يكون مفهوم الإدارة التربوي والبيداغوجي مفقوداً في الكتاتيب، وتبقى لغة الارتجال والعشوائية هي اللغة الغالبة.

ولا يخفى ما للإشراف التربوي من أهمية كبيرة في بناء العملية التعليمية، فهو عنصر من أهم العناصر في تطوير التعليم والارتقاء به، وفي متابعة سير العملية التعليمية وتحقيقها لأهدافها.

ونظراً لطبيعة الكتاتيب القرآنية واستقلالية معظمها فإن دور الإشراف التربوي نادر جداً، وحتى جانب الرقابة والتفتيش فإنه يغلب عليه الارتجال والمجاملة، فأغلب المفتشين لا يزاولون أعمالهم كاملة ولا تتوفر أغلبهم على رؤية سليمة لمهمة التوجيه والإشراف التربوي.

د: المعلمون: المستوى والتكوين

لو أتيح بناء فلسفة واضحة للتعليم بالكتاتيب القرآنية وإعداد مناهج تلائم تلك البيئة فنجاح ذلك كله يتوقف على وجود المعلم القادر على تنفيذ هذا المنهج.

لكن واقع المعلمين في الكتابات القرآنية لا يتلاءم مع حجم التحديات، وقبل أن نطرح أهم هذه المشكلات والعقبات التي يعاني منها المعلم لا بد أن نشير إلى أنها مشكلات تختلف من منطقة إلى منطقة ومن جيل إلى جيل، بل إن معالم تلك التحديات تختلف بين المدار القروي والمدار الحضري، وبالتالي فهي ليست على إطلاقها، ومن ثم يجب أن يحمل تصنيفها على نوع من التخصيص لا على التعميم.

ويمكن التمثيل لأبرز المشكلات التي يعاني منها المدرسون في الكتابات فيما يلي:

1. ضعف الإعداد:

يعاني القائمون في التعليم بالكتابات القرآنية من ضعف الإعداد في الجانب التربوي والمهني، وأحيانا حتى في الجانب العلمي خصوصا في المدار الحضري، فهناك أعداد غير يسيرة منهم تعليمهم دون المستوى الجامعي، بل إن الغالبية من المعلمين في الكتابات من ذوي المستويات الدنيا في التعليم الأكاديمي، وإذا تأملنا أوضاع المدرسة القرآنية عموما، وجدنا من أبرز مشاكلها ضعف تكوين المعلمين علميا ومنهجيا، فأكثرهم لا يزيد على حفظ نص القرآن، إن حفظه، دون إلمام كاف باللغة العربية أو العلوم الإسلامية، فضلا عن المعارف العصرية أو مناهج التدريس وعلوم النفس والتربية¹⁸، ولا ننكر وجود عدد لا بأس به من المعلمين الأكفاء خصوصا في الكتابات القروية، لكن يبقى غياب الحس التربوي والكفاءة المنهجية هي القاسم المشترك بين جل معلمي الكتابات.

وصاحب القرار في تعيين المعلم وقبول مؤهله هو وزارة الأوقاف والشؤون

18- دليل مناهج المدارس القرآنية: د. أحمد ولد الحسن، ص9، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 1994.

الإسلامية أو وزارة التعليم، وهما لا يشترطان شروطاً كثيرة، ولا مستوى علمياً عالياً لقبول المرشح الذي ينوي فتح كتاب قرآني، فيكفي أن يكون حافظاً لكتاب الله بالنسبة لوزارة الأوقاف أو شهادة البكالوريا بالنسبة لوزارة التعليم، ومتوفراً على محل للتدريس لكي يمنح رخصة ممارسة نشاطه التعليمي.

2. انعدام فرص التكوين المستمر وإعادة التأهيل:

تعني المؤسسات التربوية والتعليمية المعاصرة بإعداد العاملين فيها وتدريبهم وإعادة تكوينهم في إطار برامج التكوين المستمر والتوجيه التربوي، وتستثمر هذه المؤسسات في سبيل ذلك استثمارات معتبرة في ميدان التدريب وتنمية الفكر التربوي لدى معلميها وصقل مواهبهم، كما أنها تحيي ثمار مجهوداتها بتواتر نجاحاتها وتفوق طلابها وتلامذتها، فمجرد حصول المعلم على مؤهل ما لا يمكنه أن يؤهله للنجاح المستمر في وظيفته إلا بمزيد من التدريب والتأهيل، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار تطور الحياة وتسارع وتيرة التغيرات وكثرة المستجدات.

ومما يؤسف له أن المعلم في الكتابات القرآنية يظل خارج تغطية التكوين المستمر، ونادراً ما تتاح له فرص التدريب أثناء عمله، وإذا ما أتيحت فرصة من الفرص فإن الطابع الإلقائي التقليدي يكون فيها هو الغالب، وقلما تعنى بالتكوين العلمي وإطلاع المعلم على المستجدات الحديثة في التربية والتعليم والأداء الفعلي الناجح للمعلم.

3. ضعف الاستقرار الوظيفي:

نظراً للعوائد المالية الضعيفة التي يتلقاها المعلمون في هذه المدارس والتي لا تتناسب مع احتياجاتهم وارتفاع تكاليف المعيشة؛ ولا يمتلك الدافع والحافز نحو العطاء والاستمرار في هذه المهنة، مما يدفع المعلم إلى البحث عن سبب إضافي من

أسباب الدخل المادي إما إماما في أحد المساجد، أو مقرئاً لإحياء الحفلات والمناسبات الدينية والاجتماعية، أو ممارسة بعض المهن كالخياطة، الشيء الذي يعود بالسلب على المردودية العلمية ونشاطه التربوي.

وهذا يؤدي إلى كثرة انسحاب المعلمين وتركهم لهذه المدارس التي لا تقدم لهم رواتب ملائمة، فضلاً عن الضمان الاجتماعي والحقوق التقاعدية، وحالات الانسحاب وترك العمل ترتبط بالفرص التي تتاح له، ومن ثم فهي كثيراً ما تحصل في أثناء العام الدراسي مما يربك المدارس، وقد يضطرها للاستعانة بكفاءات أقل تأهيلاً سداً للخلل.

أما الذين يبقون في سلك التعليم فضعف العوائد التي يتلقونها تؤدي بهم إلى غياب الطموح، وتقلل من قدرتهم على الارتقاء بأنفسهم وتطوير خبراتهم؛ فأحدهم لا يجد ما يشتري به كتاباً أو مجلة، فضلاً عن التعامل مع شبكة الإنترنت، أو الالتحاق ببرامج تأهيلية وتدريبية، وحين يقارن المعلم في الكتابات القرآنية نفسه بالمعلم في رياض الأطفال فالمساحة شاسعة والبون كبير.

4. أسلوب التلقين والتحكم:

تنتشر لدى العديد من المعلمين أساليب التحكم الكامل والعقاب القاسي والتعامل الصارم مع المتعلمين، بحيث لا يُفسح المجال أمام المتعلم في بناء المعرفة، وتنمية ملكة النقد وتكوين الموقف اتجاه المضامين العلمية والأفكار الملقنة.

وهذا الأسلوب وإن قل في السنين الأخيرة، فلا زالت صدهاء تتردد في آذان الناس، فطرق المعاقبة القديمة للتلاميذ في الكتابات القرآنية، لا يمكنها بحال من الأحوال أن تنسى بسرعة، ولا زالت صورة "الفقيه" في الذاكرة الجمعية هو ذلك الرجل المتسلط الذي لا يتسم، صارم، يستعمل الأساليب القاسية والصارمة في

العقاب والتعامل...، الشيء الذي يحدث صراعاً نفسياً لدى الطفل المتعلم، وقد يمنعه من أن يتمتع بصحة نفسية جيدة وينمو نمواً سليماً متوازناً.

ولا بد أن أعود وأكرر أن هذه الأحكام ليست على إطلاقها، فقد تصدق على البعض، ولكن لا يعني ذلك أنها عامة، بدليل استمرارية الكتابات القرآنية في الوجود والتحدي.

فلقد وجد في الكتابات القرآنية فقهاء نبهاء علموا العلم، وكانوا يجمعون بين مهام التعليم وخطة العدالة والقضاء¹⁹ والدعوة والإرشاد، وقد يعترض على هذا الكلام بأن هذه الحالات شاذة والشاذ لا حكم له، ولكن الحق أن الأصل في الماضي أنه لا يتولى مهنة التعليم بالكتابات القرآنية إلا من شهد له الشيوخ والأساتذة بالتفوق والإتقان.

هـ: ضعف الطالب

لقد أدى ضعف ارتباط مستقبل التعليم بالكتابات القرآنية والتعليم الديني عموماً بالمسالك التعليمية في (التعليم العصري)، بالإضافة إلى ضعف إمكانات هذا التعليم إلى أن يقبل عليه في الغالب الطلاب ذوو الدافعية المنخفضة في التفوق والإنجاز، أو ممن ينتمون في الغالب إلى أسر فقيرة أو غير متعلمة، حتى أصبحت الكتابات مأوى للأولاد من الأسر الفقيرة الذين لا يستطيعون سداد تكاليف الدراسة برياض الأطفال ذات التكاليف المرتفعة، وكذلك مأوى للأولاد المشاغبين العاصين لأمر أوليائهم، الأمر الذي يؤثر سلباً على السير الطبيعي والنجاح المتوخى من هذا النوع من التعليم.

وإن نظرة التلميذ العابرة لأجواء الكتابات القرآنية، مقارنة مع واقع رياض

19- أنظر ذ. محمد بلخير، المنهاج التربوي بالمدرسة المغربية زمن الحماية، ص 65، دار المعرفة، 2003/1424.

الأطفال في المناهج التربوية وكفاءة المعلمين ومستوى المباني المدرسية والنظام المدرسي لتشعره في الغالب بالنظرة الدونية، ويرى أنه أقل حظاً وشأناً من الآخرين؛ مما يزيد من إهماله وضعف همته.

و: ضعف التمويل

من أكبر ما تعاني منه الكتابات القرآنية الضعف في مصادر التمويل؛ فالقليل منها هو الذي يتلقى دعماً مالياً من قبل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ولا تمثل الكتابات التي تحصل على الدعم على قلته وتواضعه سوى 11% في حين تبحث باقي الكتابات على مصادر أخرى للتمويل.

ويمكن أن نحدد مصادر تمويل الكتابات القرآنية الخاصة، غير التابعة لجهاز الوزارة الوصية فيما يلي:

1- ما يدفعه التلاميذ من رسوم الدراسة، وهي رسوم ضعيفة جداً، دراهم معدودات، ونسبة كبيرة منهم لا تلتزم بذلك؛ ولا مجال هنا بالمقارنة مع التعليم العصري في الرياض المدرسية التي يدفع التلميذ رسوماً لا مجال لمقارنتها برسوم الكتاب القرآني.

2- التبرعات النقدية من المحسنين ويتسم هذا النوع من التمويل بالقلّة وضعف الاستمرار؛ ووقوعه تحت أسر المزاجية والعاطفة الشخصية للمتبرع، فمصاريف المدارس مستمرة بصفة دورية وكثير من المتبرعين يكتفي بمبلغ مقطوع يدفعه مرة واحدة، وتجدر الإشارة هنا أن الظروف التي يعيشها العمل الخيري بعد أحداث سبتمبر أدت إلى تقلص كثير من أبواب الدعم المالي لبعض هذه الكتابات حيث أحجم الكثيرون من المحسنين عن مد يد العون والإنفاق للكتابات القرآنية خوفاً من الملاحقة الأمنية والاتهام بدعم التطرف والإرهاب.

3- الأوقاف: وهي تبرعات لا يستفيد منها كما سبق غير 11 في المائة من الكتاتيب القرآنية، وهي مع ذلك مبالغ زهيدة لا تفي بالغرض، ولا يمكنها أن تشكل دعماً حقيقياً لمشروع تربوي يمكن مواجهة التحديات والوقوف في وجه المنافسة.

ولا بد من أن نسجل هنا أن هذا الضعف في التمويل لدى الكتاتيب القرآنية قد ترك آثاراً سلبية، أهمها:

- ضعف القدرة على توظيف العناصر المتميزة والفاعلة من المعلمين والمدرسين.

- ضعف القدرة على توفير الجو الصحي والبنية التحتية الملائمة.

- ضعف القدرة على مسايرة التغيرات الاجتماعية ومتابعة الأساليب الحديثة في التربية والتكوين.

ولعل هذا السبب يظل أحد أبرز مشاكل الكتاتيب القرآنية، حيث إن حالتها المادية والمعنوية مزرية لدرجة أصبحت معها أبعد ما تكون عن العصر ومتطلباته ومسايرة روحه؛ فهي لا تتوفر فيها المرافق الحيوية والأساسية سواء من حيث البنيات أو التجهيزات الضرورية، فكيف إذا أضيف إلى ذلك مشاكل أخرى كالارتجال في التدبير والتسيير الإداري وضعف المراقبة التربوية وهشاشة التخطيط.

كما أدى هذا الوضع المتردي إلى اضطرار المدارس للجوء إلى حلول غير راقية، منها تملق بعض المعلمين إلى الناس ومجاملتهم على حساب تلامذتهم، وابتكار أنواع من الابتزاز والاستغلال في المحافل الاجتماعية والدينية مما أثر سلباً على شخصية المدرس في الذاكرة الشعبية، حيث لا يعدو "الفقيه" أن يكون إنساناً

يأخذ ولا يعطي، ويجب الموائد الشهية "الزرود"، ونسجت من أجل ذلك اللطائف والنكت والقصص الخيالية في حال معلمي القرآن ومدرري الأطفال.

الفصل الثالث: الكتابات القرآنية: الآفاق وسبل التحدي

لا يجادل عاقل في أهمية الكتابات القرآنية والدور التربوي والتعليمي الكبيرين الذي تقوم بهما هذه المؤسسات التعليمية والذي يتمثل في تكوين الناشئة تكويناً إسلامياً يركز على تعليم الأطفال المبادئ الأولية والكتابة مع تحفيظهم ما تيسر من كتاب الله العزيز وتلقينهم مبادئ الدين الإسلامي، وتنشئتهم تنشئة إسلامية رفيعة، مما يستدعي متابعة واعية وقراءة نقدية مستمرة لهذا النوع من التعليم، والبعد عن الارتجال واللامبالاة التي عانى منها ردها من الزمان.

ولهذا ينبغي التفكير بصورة جدية في آليات علمية وطرق منهجية لتحسين أداء الكتابات القرآنية ومردوديتها حفاظاً على هوية الأمة وفكرها، ومساهمة في إرساء دعائم الأمن الحسي والمعنوي في المجتمع، لأن أي معالجة لظواهر اجتماعية مثل ظاهرة التطرف الديني والعلماني وظاهرة الجريمة المنظمة وغيرها من الظواهر لا يمكن أن تعالج إلا في إطار مراجعة المنظومة الفكرية وأساليب التفكير العقلي والنمط الفلسفي الذي يهيمن على المجتمع، من هنا كان أمر مراجعة العقل الديني، وإعادة النظر في المناهج التعليمية بالكتابات القرآنية مسألة في غاية الأهمية، ليس باعتبار أنها هي تساهم في توليد التطرف الفكري كما قد يظن بعض أدعياء الفكر، بل إن إهمال الجوانب المتعلقة بها، وسوء إدارتها هو الذي ساهم في تغيب دورها وإسهامها في تحقيق التوازن الفكري المنشود، والسلم الفكري الاجتماعي الضائع.

وشيء آخر يزيد من ضرورة التعجيل بتحسين وتصحيح مسار التعليم

بالكتاباتيب القرآنية هو صدور القانون التنظيمي المتعلق بالتعليم العتيق²⁰، والذي لا يمكنه أن يحقق أهدافه إلا بعملية ضمان روافد متينة تمده بتلاميذ أتموا حفظ القرآن الكريم بإتقان وتعلموا ما تيسر من مبادئ العربية واللغة، ومن هنا نكاد نحزم أنه لا مستقبل للتعليم العتيق بغير تفعيل لدور الكتاباتيب وإبرازه.

من خلال ذلك كله نقترح بعض الآليات التي نراها صالحة للمساهمة في تحسين أداء الكتاباتيب القرآنية والرفع من مستواها العلمي وقدرتها على استيعاب المجتمع ومتغيراته، فبناء فلسفة واضحة للتعليم في الكتاباتيب القرآنية وإعداد مناهج تتلاءم مع التغيرات الاجتماعية والفكرية، ونجاح ذلك كله يتوقف على وجود المعلم أو المدرس القادر على تنفيذ هذا المنهج.

وأمام واقع المعلمين في الكتاباتيب الذي، كما سبق أن بينا لا يتلاءم في الغالب مع حجم التحديات المناطة بهذا النوع من التعليم فإننا نقترح ما يلي:

أ: العمل على الرفع من مستوى التكوين لدى المعلمين

لا يعاني المعلمون في الكتاباتيب القرآنية من ضعف الإعداد بشقيه التخصصي والمهني؛ فهناك أعداد غير يسيرة منهم لم يزد علمهم على حفظ القرآن الكريم، وليس له أي إلمام بتقنيات الدرس العلمي ومناهج التربية، مما يساهم بشكل كبير في ضعف المستوى العلمي لدى كثير منهم.

لذا فإننا نقترح أن لا يقتصر في منح رخصة فتح الكتاب القرآنية على اشتراط شهادة حفظ القرآن الكريم على أهميتها فقط، وإنما أن يكون للمعلم دراية بالأساليب العلمية الحديثة في التربية والتكوين، ويمكن للوزارة باعتبارها الجهة الوصية أن تستعين في ذلك بأفواج العاطلين من خريجي كليات الشريعة

20- إشارة إلى القانون التنظيمي رقم 01-13 والذي تم تنفيذه بظهير شريف رقم 09-02-01 صادر بتاريخ 29 يناير 2002.

والدراسات الإسلامية من حملة كتاب الله على أن يتلقوا دورات في علوم التربية تؤهلهم للقيام بمهمة التدريس على أحسن وجه.

كما يمكن المساهمة في تأهيل المعلمين الذين يمارسون وذلك عن طريق:

1. القيام بدورات تدريبية في التربية والتكوين وطرق التدريس، ويمكن لوسائل السمعي والبصري عبر إذاعة وقناة محمد السادس للقرآن الكريم أن تقوم بدور كبير في سبيل تحقيق ذلك، بإقامة محاضرات ودروس وندوات في علوم التربية والتدريس والتواصل.

2. تشجيع المعلمين ماديا ومعنويا: وقد تنبّهت الوزارة الوصية مؤخرا إلى هذه الوسيلة من خلال إحداث جائزة محمد السادس للكتاتيب القرآنية بهدف "تشجيع المشرفين على الكتاتيب القرآنية وتحفيزهم على الإبداع، وتطوير أساليب التلقين بهذه المراكز الدينية"²¹، وهي مبادرة لا يملك العاقل إلا أن يدعمها دعما يقوم على أساس استثمار هذه العملية لمزيد من التشجيع والفاعلية، حتى تؤتي الثمرات المرجوة، وتساهم في دعم حقيقي لهذا النوع من التعليم.

3. إقامة ملتقيات علمية واتحادات للكتاتيب القرآنية من شأنها المساهمة في تبادل التجارب والخبرات وتوحيد كثير من الجهود المبذولة في هذا الميدان المهم من ميادين العمل الإسلامي .

4. إصدار دليل للمعلم في الكتاب القرآني يمثل دستورا يوضح ما للمعلم من واجبات وما عليه من حقوق، فلا يمكن الحديث عن تعليم قرآني فعّال مع إغفال الحديث عن منظومة قيم أساسية ملزمة للمعلم بالكتاتيب القرآنية وضرورية

21- نشرة المنجزات 2005، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص63، مطبعة التومي، الرباط.

لتفعيل التعليم به، فالقيم لا يمكنها أن تكون ذات مصداقية "إلا إذا كانت ملزمة، فالإلزام هو مدار النظام الخلقى كله، وإذا لم يعد هناك إلزام، فلن تكون هناك مسؤولية، وبالتالي لا يمكن أن تسود العدالة وحينئذ تتفشى الفوضى في الواقع والقانون"²². يمكنه أن يكون برنامجا علميا ووثيقة تربوية تؤسس لمعرفة بعلوم التربية والتعليم²³.

5. إصدار مجلة أو جريدة علمية متخصصة في علوم التربية وطرق التدريس والمناهج والمهارات التعليمية بالكتاتيب القرآنية.

ب: بناء المناهج الهادفة والفاعلة

يتفق الكثيرون من علماء التربية على ضرورة بناء المناهج التعليمية بناء محكما، فلا يمكن الحديث عن التعليم الناجح دون التعرض إلى المنهج الفاعل والأسلوب الناجع في التربية والتكوين، وكثيرة هي الكتابات التي تتحدث عن الطفل في أدق تفاصيله، في تكوينه النفسي والوجداني والحسي، واستعداده الفطري ومؤثراته الجبلية.

ومن المعلوم أن التحاق الطفل بالكتاتيب يشكل أول حلقة في حياة الطفل لانفصاله عن أسرته ومحضنه، مما يشكل حدثا خاصا يؤثر في تربيته ونموه الجسمي والانفعالي والحركي.

وإذا كانت أهداف المناهج الدراسية في مرحلة الكتاتيب القرآنية تتحدد في تركيز قيم العقيدة الإسلامية وربطها بالجانب السلوكي العملي في حياة الطفل، فإنه من الواجب أن تصاغ المناهج في الكتاتيب في قالب له خصائص ومميزات

22- د. عثمان عبد المعز رسلان، دستور المعلمين، ص10، دار البشير للثقافة والعلوم-طنطا، الطبعة الأولى، 1420-2000م.
23- أنظر: د. خالد الصمدي، القيم الإسلامية في المناهج الدراسية، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة 2003/1424.

واضحة تقود العملية التربوية، وتساند طرق التدريس والتعليم.

فالمواد العلمية ينبغي أن تتميز بما يلي:

1. التلاؤم مع الفئة العمرية للمتعلمين ومع بيئاتهم وقدراتهم الفكرية والعملية.
2. الأخذ بعين الاعتبار الحاجة الوجدانية والسلوكية للمتعلمين.
3. تغليب جانب المهارات التطبيقية في الدرس التربوي دون إغفال الجانب المعرفي النظري.
4. الأخذ بعين الاعتبار التنوع والفروق الفردية واستعدادات التلاميذ الفطرية.
5. تنوع المعلومات والمعارف الدراسية وصياغتها صياغة تساعد على إقبال المتعلمين عليها بشغف.

ج: تعزيز دور التوجيه التربوي والتكوين المستمر

تعنى المؤسسات المعاصرة بإعداد العاملين فيها وتدريبهم، وتستثمر المؤسسات التجارية استثمارات هائلة في ميدان التدريب وتنمية العاملين، فحصول الفرد على مؤهل علمي ما لا يعتبر نهاية المطاف في ميدان التكوين والإعداد، وسيبقى بحاجة إلى مزيد من التدريب والتأهيل.

ولئن كان تطور الحياة وتسارع وتيرة التغيير عاملاً يؤكد على أهمية تدريب الموظف وتأهيله فالأمر أكثر أهمية فيما يتعلق بالمعلم.

لكن المعلم في الكتاتيب القرآنية نادراً، إن لم نقل من المستحيل، أن تتاح له فرص التدريب والتكوين المستمر أثناء الخدمة، وإذا ما أتيحت فرصة من الفرص أو دورة من الدورات فإنه يغلب عليها طابع الإلقاء والارتجال في الإعداد

والمبالغة في المحاملة والإطراء، وتجنب البوح بالمشاكل الحقيقية التي يعاني منها التعليم في الكتاب، أما الحديث عن الاتجاهات الحديثة في التربية أو آليات تطوير الأداء الفعلي للمعلم فهذا مما يندرج في مثل هذه اللقاءات.

د: توفير التمويل اللازم

رأينا في ما سبق أن من أكبر المشاكل التي تعاني منها الكتاتيب القرآنية الضعف في مصادر التمويل؛ ولا يمكن الحديث عن أي إصلاح بغير ضمان للتمويل الكافي، فالمال يشكل عصب الحياة التعليمية، وصمام أمانها واستمرارها.

ويمكن أن نقترح في هذا الصدد ما يلي:

1. الزيادة من نسبة الكتاتيب المستفيدة من دعم وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

2. التشجيع على تبني خطة للاشتراك بين الكتاتيب القرآنية وجمعيات المجتمع المدني في إطار من التعاقد الحضاري والشفافية التامة.

3. تبني المجالس البلدية والقروية لحصة من مصاريف الكتاتيب القرآنية عبر الدعم المخصص للجمعيات الثقافية النشيطة.

4. التحذير من الربط المغرض بين الفكر المتطرف والتعليم الديني الذي أحدث إرباكا كبيرا لدى الكثيرين من المحسنين حيث أحجموا عن دعم التعليم الديني والإنفاق عليه خوفا من الملاحقة الأمنية والالتزام ب(دعم التطرف والإرهاب).

وما من شك أن الاهتمام بتوفير الشرط المادي الكافي سيكون أحد أهم الوسائل للنهوض بالتعليم في الكتاتيب، الشيء الذي سترك آثاراً إيجابية لعل من أهمها:

- القدرة على توظيف العناصر المتميزة والفاعلة من المعلمين والمدرسين.
- القدرة على تفرغ المعلم للقيام بالدور التربوي وصون كرامته من مد يد الحاجة إلى الناس.
- القدرة على توفير الجو الصحي والبنية التحتية الملائمة لدراسة عملية تربوية ناجحة.
- القدرة على منافسة رياض الأطفال واستقطاب أفواج من التلاميذ.
- القدرة على مسايرة التغيرات الاجتماعية ومتابعة الأساليب الحديثة في التربية والتكوين.
- القدرة على مد التعليم العتيق بأفواج من التلاميذ، في الوقت الذي يعاني منه هذا الأخير من قلة المقبلين وندرة الراغبين.

خاتمة

وعلى الرغم من هذه الصعوبات والعقبات، ومن السلبيات والمشكلات التي يعاني منها التعليم بالكتاتيب القرآنية فسيبقى التعليم بها منارة مضيئة من منارات العمل الوطني والإسلامي حفاظا على هوية الأمة وتميزها، وسندا قويا يروم نشر الوعي الثقافي والعلم الشرعي والدعوة للإسلام وحفظه في بلادنا المستهدفة بتياري التطرف العلماني والديني من جهة وأخطار التنصير وفكر التشيع من جهة أخرى.

وتبقى كثير من مظاهر الضعف والقصور جزءاً لا يتجزأ من مظاهر قصور المنظومة التعليمية والتربوية التي تعرفها بلادنا، تسعى جاهدة كل القوى إلى تجاوزها من خلال عشرات المشاريع والمواثيق لإصلاح التعليم والتربية والتكوين، لكن ذلك كله لا يمكن أن يعطي أكله إلا بصدق مع الذات

ومكاشفة للحقيقة، وابتعاد عن ثقافة المجاملة والمداهنة التي طالما أوردتنا المهالك، ونزلت بنا أودية المتالف.

وفي ضوء هذه الرؤية لا يمكن لعاقل أن يعتبر التعليم بالكتاتيب القرآنية أمرا ماضويا تجاوزه الزمان، أو أنه منبع من منابع التطرف والغلو يجب تحجيمه وتحفيفه، بل إن المتأمل فيما سبق سيجد أن الكتاتيب مكسب تحب المحافظة عليه وإصلاح ما اعترقها من عوامل التعرية والضمور.

ومن الواضح، بعد هذا كله، أن الاهتمام بالكتاتيب القرآنية ما زال أمامه كثير من المهام ليصل إلى المستوى المطلوب، ولعل أولى هذه المهام هي كيفية إعادة إدماج الكتاب القرآني في محيطه كعامل محدد للهوية، ومنبع للرموز والتفكير والتواصل بين التاريخ والحاضر والمستقبل، من خلال إقامة العلاقة بينه وبين مختلف فروع العلوم الحديثة والمعارف المختلفة في علم التربية والبيداغوجيا ومناهج التدريس، كما أن الحاجة ماسة إلى مزيد من الاهتمام بنشر ثقافة القرآن في دائرة أوسع مما هي عليه الآن وإحياء جسور الثقة في مقوماتنا الحضارية التربوية من باب أنها صمام الأمان وضامن الوحدة وأساس الاستقرار.

الكتاتيب القرآنية بالمغرب: واقع وآفاق

مولود كويس

عضو فرع المجلس العلمي المحلي بكلميم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد، فإن موضوع الكتاتيب القرآنية الذي نحن بصدد موضوع له خطورته. فهو من ناحية يتعلق بتكوين إنسان في مرحلة من مراحل حياته لا حول له ولا قوة فيها. فأموره فيها إلى غيره. يحسن قيامه عليها فينمو ويقوى حتى يشتد ساعده، أو يهمله ويتركه فيضيع وتلقفه أيدي المفسدين فيكون معول هدم في بنيان مجتمعه وأمته. ومن ناحية أخرى، فإن رعاية هذا الإنسان ليكون صالحا وطاقا بناءة في المجتمع بحاجة إلى مبادئ توجه هذه الرعاية في كل أطوارها. لهذا فإن الكتاب القرآني له دور أساسي في تكوين الأفراد الذين يكونون لبنة المجتمع الكبير وهو الأمة، بحيث يمثل الإسلام بتعاليمه الرفيعة ومبادئه السامية: ﴿فَصَرَفَ اللَّهُ التِّي فَصَّرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْعِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. [الروم: 30]. من أجل هذا فإن دوره ينصب وبشكل علمي وجدي على بناء الإنسان المسلم الذي أعطاه الإسلام أهمية ما بعدها أهمية، إلى حد أن الله تعالى خصه بالاستخلاف في الأرض ويسر له ما يمكنه من تحقيق ذاته انطلاقا من مجال تغطية الفطرة ويطبعه العجز واللاوعي بالذات. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُحُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: 78]. ومن هنا تأتي مسؤولية الراشدين في المجتمع الإسلامي، مسؤولية تتجسد في

رعاية الأطفال وتنشئتهم تنشئة تتجاوب وروح التربية الإسلامية. فقد جاء في الأثر: "كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامس فتهلك"¹. وفي مواضع متعددة من القرآن الكريم، وفي أحاديث نبوية شريفة، نجد ما يحث على الاهتمام بتكوين أسرة قادرة على إنجاب أطفال أصحاء الجسم، وقادرة على رعايتهم وتنشئتهم تنشئة سليمة، حيث تتمكن من تلبية حاجاتهم الأولية، ومن إشباع نفوسهم بالعطف والمحبة والاطمئنان. وفي التربية وأهميتها ما أخرج به الترمذي عن جابر بن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع على المساكين". وأخرج الترمذي أيضاً عن أيوب بن موسى بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن". وغالباً ما تتدخل مؤسسة أخرى غير الأسرة، والطفل لا يزال يعيش سنواته الأولى التي تتميز بالحساسية. إنها مؤسسة الكتاب القرآني التي يدخلها الطفل وهو في حاجة أكيدة إلى دعم عمل الأسرة، وإلى استمرارية بناء قاعدة نفسية صلبة، بل وإلى رعاية شاملة تغطي جميع مناحي الشخصية، بما فيها إدخال الطفل في نظام اجتماعي أوسع، والعمل على التقليل من حدة روابطه بمجال ضيق كالأسرة، ومنها ما يتعلق بتحسيسه بنفسه وبخالقه، عبر تحسيسه بالغير والمحيط والكون، ومنها ما يتعلق بتحسيسه بمعاني الخير وقواعد الفضيلة وتوجيهه نحوها، ومنها ما يحقق تنشيط الجسم وضبط حركاته وارتزائها واتساقها، ومنها ما يتعلق بتشغيل الحواس وإيقاظها، ومنها ما يتعلق بالفتح الذهني والاجتماعي، وهي نواح تهم التركيبة الطبيعية للإنسان، تؤلف ائتلافاً مترابطاً وثيقاً، بحيث لا يتحقق توازن الفرد إذا لم يتم الاهتمام بالجسد والنفس والعقل والروح. ونظراً لأهمية الكتاب القرآني وللدور العظيم الذي قام به

1 - كتاب الكبائر للذهبي، دار الصابوني، ص. 25 والخامس هو الذي لا يحب العلم ولا يستمع إليه ولا يطلبه ولا يعلمه.

لصالح أطفالنا، فقد خصه المغاربة بالعناية الفائقة ليساير عصرنا المتطور، ويحيا فيه مؤثرا ومتأثرا، مؤثرا بقيمه الجوهرية ورسالته الدينية والأخلاقية الخالدة، ومتأثرا بإدخال تجديدات عليه تساير العصر.

I- تعريف الكتاتيب القرآنية والغرض من إنشائها:

(1) تعريف:

الكتاب أول أنواع المعاهد التعليمية وجودا في العالم الإسلامي، وقد اشتق اسمه من "التكتيب" وتعليم الكتابة. كما أن اسم الكتاب ورد بتعاريف وأوصاف متعددة، فهو المعهد الذي يتعلم فيه الصبيان القرآن الكريم والقراءة والكتابة. فقد جاء في مجلة علوم التربية لسنة 1994م الوصف التالي: "الكتاب عبارة عن بناية بسيطة، في غالب الأحيان عبارة عن حجرة دراسية واحدة ملحقة بمسجد لتتم الاستفادة من مرافقه وتجهيزاته. تفرش أرضه بحصير يجلس فوقه (المربي الفقيه) ويتحلق حوله الأطفال. وهو أيضا مؤسسة تربوية قديمة تقوم بتعليم الأطفال مبادئ القراءة والحساب وحفظ القرآن الكريم". كما ورد في المعجم الوسيط، (الجزء الثاني، الصفحة 775) الوصف التالي: "الكتاتيب هي عبارة عن حلق منظمة لتعليم القرآن الكريم، وتجويده وحفظه، وتعليم القراءة والكتابة. وتلقين الأطفال الصغار المبادئ الأساسية لدين الإسلام الحنيف". كما أن المغرب ساهم في انتشار الكتاتيب القرآنية في بلاد إفريقية جنوب الصحراء وكانت تسمى بـ "المحضرة" وهي كلمة اشتقت من الحضور.

(2) نشأة الكتاتيب القرآنية:

إن الغرض المباشر من إنشاء الكتاتيب القرآنية هو تعليم القرآن الكريم، وتحفيظه، وتعليم القراءة والكتابة، وربط الأجيال المسلمة بدينها، وترسيخ العقيدة القرآنية في نفوسها. ولأن القرآن الكريم نزل ليبقى، ولا سبيل إلى ذلك

إلا إذا أودع في الصدور وكتب في الصحف والقراطيس، كان لابد من محاربة الجهل والأمية ومقاومتها بترويج القراءة والكتابة. ولم يقتصر إنشاء الكتاتيب على المشرق العربي، بل عرف الجناح الغربي كذلك هذه المؤسسات مع انتشار الدعوة الإسلامية به، إذ بمجرد ما احتط عقبة بن نافع الفهري مدينة القيروان بتونس، حتى سارع العرب إلى بناء الدور والمساجد، ثم أخذوا في تأسيس الكتاتيب لتعليم أبنائهم كتاب الله، وما يعلم الناس دينهم، مع ما يلزم ذلك من قراءة وكتابة. وقد أورد ابن خلدون وغيره أن القائد موسى ابن نصير كان أول من رتب الفقهاء والقراء وأسس المساجد والكتاتيب بالمغرب. وذكر عبد الواحد المراكشي صاحب كتاب المعجب أن مدينة مراكش كانت تزخر في عهده (عهد الموحدين) بالكتاتيب، وأنه هونفسه انتظم فيها سنوات طفولته الأولى. وقد اقترنت نشأة الكتاب في المغرب بدخول الإسلام وبناء المساجد وذلك مع الفتوحات الإسلامية بالإضافة إلى دور البعثات الآتية من المشرق العربي وذلك بهدف تثقيف بلاد إفريقية من عرب وأمازيغ وتعليمهم أصول وتعاليم الدين الإسلامي. وبقي دوره مع مرور التاريخ متميزا.

II- الكتاتيب القرآنية عند المسلمين: الإمام الغزالي، ابن سينا وابن خلدون.

لقد كان الرسول ﷺ أول مرب اهتم بالطفل وبلعبه وبمحتاجته. وقد كتب ابن حزم عن انتشار الكتاتيب القرآنية في كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي، فأورد: "مات رسول الله ﷺ والإسلام قد انتشر وظهر في جميع جزيرة العرب، ليس منها مدينة ولا قرية ولا حلة للأعراب إلا قد قرئ فيها القرآن في الصلوات، وعلمه الصبيان والرجال والنساء" ثم يضيف: "ثم مات أبوبكر وولي عمر رضي الله عنهما، ففتحت بلاد فارس طولا وعرضا. وفتحت الشام كلها والجزيرة ومصر كلها، ولم يبق بلد إلا وبنيت فيه المساجد، ونسخت فيه

المصاحف، وقرأ الأئمة القرآن وعلمه الصبيان في المكاتب شرقا وغربا"². كما أن رسول الله ﷺ أرسل مصعب ابن عمير رضي الله عنه إلى المدينة المنورة ليعلم الناس القرآن الكريم وذلك بعد بيعة العقبة.

1) عند ابن سينا (370هـ - 428هـ):

لا يختلف منظور ابن سينا عن منظور باقي التربويين الإسلاميين في الدعوة إلى: *ضرورة توفير الأمان للطفل من أجل تربية حسنة: "الأخلاق الحسنة تابعة لصفاء المزاج والأخلاق الرديئة تابعة لسوء المزاج، وحسن الأخلاق يحفظ الصحة للنفس والبدن جميعا"³.

*التدرج في التعليم واعتماد اللعب: "وإذا انتبه الصبي من نومه فالأحرى أن يستحم ثم يخلى بينه وبين اللعب ساعة... وإذا بلغ ست سنوات، فيجب أن يقدم إلى المؤدب والمعلم ويدرج أيضا في ذلك، فلا يحمل على ملازمة الكتاب كرة واحدة"⁴.

2) عند الإمام الغزالي (450هـ - 505هـ):

اهتم الغزالي بشكل كبير بالمرحلة الأولى من الطفولة حيث كان يعتبر ذلك كالنقش على الحجر، ويتميز تفكيره التربوي بما يلي:

• "الطفل لا يولد بنفس شريرة بل كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وإن أبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، أي بالاعتیاد والتعليم تكتسب الرذائل"⁵.

• دور المدرس (المربي) هو مراعاة استعداداته الذهني: "إن وظيفة المعلم أن يقتصر بالتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغ فينفره أو يخبط عليه

2- التربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، ص 63.

3- التربية من أفواه رجالها، 1968.

4- نفسه.

5- إحياء علوم الدين - ص 60-61.

عقله" (5) (المرجع السابق)

• مراعاة الفروق الفردية في عملية التربية: "بما أن الطبيب لوعالج المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم، بل ينبغي أن ينظر في مرض المريض وفي حاله ونفسه ومزاجه (5) (المرجع السابق).

• الاهتمام باللعب عند الأطفال: "وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يميّت قلبه ويبتل ذكائه" (5) (المرجع السابق)

3) عند ابن خلدون (732هـ-808هـ):

يقول في مقدمته المشهورة: "اعلم أن تعليم الولدان شعار الدين، أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الحديث... وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبنى عليه ما يحصل بعد من المكان... وسبب ذلك أن التعليم في الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حساب الأساس وأساليبه يكون حال ما ينبنى عليه"⁶.

ومن أهم مواقف ابن خلدون التربوية:

- للتعليم غايات وأهداف نظرية وعلمية.
- تجنب الإكثار من الحفظ في التعليم وإثبات ملكة العلم في نفوس المتعلمين عن طريق المحاورة والمناظرة في مواضع العلم.
- ملائمة المادة لمقدرة الطفل العقلية بما يستدعي مراعاة المادة لنمو الطفل العقلي وملاءمتها للتدرج العقلي.

6- مقدمة ابن خلدون، ص 537.

• التدرج في التدريس بحيث ينبغي الانتقال من السهل إلى الصعب ومن البسيط إلى المعقد.

• تجنب العقاب بمختلف أشكاله لأن الشدة على المتعلمين مضرة بهم.

III- الكتاتيب القرآنية في كتابات ومخطوطات بعض المغاربة:

المختار السوسي، المساري، البلغيثي والطرناطي

بقي دور الكتاب متميزا بالمغرب، ولم ينب الجامع والمدرسة عنه في القيام بوظائفه وأدواره، ولم يلغياه، وهذا ما يوضحه مقال للدكتورة وداد القاضي المعنون ب"نبذة عن المدرسة في المغرب حتى أواخر القرن التاسع عشر الهجري، في ضوء كتاب المعيار للونشريسي"⁷.

كذلك لم تبلغ المدرسة دور الكتاتيب لأن للكتاب دورا لا تستطيع المدرسة تبنيه، فالكتاب يمثل الدراسة الأولية الضرورية، والمدرسة تمثل الدراسة العليا.

وقد وردت دراسات عن الكتاتيب القرآنية في المغرب لبعض الباحثين المغاربة والدور الذي قامت به هذه الكتاتيب في الميدان التربوي. وسأقدم بعض النماذج من تلك الدراسات:

1) الكتاتيب القرآنية في كتابات المختار السوسي (1318هـ/1898م-1383هـ/1963م)⁸:

يلتحق الطفل بالكتاب في سن الرابعة من عمره⁹. وهو سن مبكر أملتته العوائد منذ زمن ابن سحنون في البلاد المغربية. وقد دعم ذلك المختار السوسي

7- مجلة الفكر العربي، عدد 21، ص 3.

8- مجلة الإيمان، عدد خاص يناير، فبراير 1982. وقد ولد المختار السوسي سنة 1318 هـ الموافق لـ 1898م، وتوفي سنة 1383 هـ الموافق 1963م، من أهم مؤلفاته: موسوعته "المعسول" التي تتكون من 20 جزء، كتاب "مدارس سوس العتيقة: نظامها وأساليبها"، كتاب: "سوس العالمية"، سلسلة المعرفة للجميع، الخطاب التربوي بالمغرب، أحمد أهدوتن. العدد 28، شهر يناير/ فبراير 2003، منشورات رمسيس.

9- المعسول، المختار السوسي، جزء 3، ص 242.

بإيراد لأبيات شعرية للإمام الشافعي رحمه الله، عثر عليها في جل الكتابات الشرقية (مثال: "أدب الدين والدنيا للماوردي")، والمغربية (مثال: "آداب الصحة لابن عرضون"، و"الابتهاج بنور السراج للبليغي"). يقول فيها:

أراني أنسى ما تعلمت في الكبر ولست بناس ما تعلمت في الصغر

وما العلم إلا بالتعلم في الصغر وما الحلم إلا بالتحلم في الكبر¹⁰.

■ برنامج التدريس في المدرسة والكتاب:

برامج التعليم تتشكل من القرآن الكريم بالأساس مصحوبا بمبادئ القراءة والكتابة، "ولا تزال على ما كانت عليه منذ القرن العاشر الهجري، ولا يزال كلهم راضين (أهل سوس) مستبشرين بمعلوماتهم قانعين بما وجدوا عليه الآباء. وما يزال يقبل ذوالغلمة الصغار من بيوتهم فيشتغل الطالب (المعلم) بتعليمهم حروف الهجاء وبعض السور القصيرة أو تعليم الخط كل بحسبه، وتعليم الخط يجري وفق المعتاد في المغرب... والبلوى بهذا التعليم العقيم ضاربة أطناها في جميع الشرق قبل اليوم ولكن الدول الشرقية صارت كلها تتفطن..."¹¹.

وهكذا نلمس أن المختار السوسي لم يقتصر على وصف الكتاب (التعليم الأولي والابتدائي) بل قارن وانتقد طبيعة البرنامج الدراسي وبنيته سواء في كتابه "سوس العالمة" أو "مدارس سوس العتيقة"¹² أو مؤلفه "المعسول" حيث عالج الموضوع في الكثير من أجزائه، وهذا التعليم ينطبق على جميع أقطار المغرب مع بعض الاختلافات الطفيفة.

10- المعسول، المختار السوسي، جزء 3- ص 273.

11- مدارس سوس العتيقة، المختار السوسي، ص 60-61.

12- نفسه، المختار السوسي، ص 14-15.

■ العلاقات التربوية:

هذه العلاقة كما رصدها المختار السوسي هي علاقة سلطوية، "إذا جلس التلميذ إلى الطالب (المعلم) ليعرض لوحته ثم تملل فيها، فلا يجيبه إلا بلطمة أو ركلة أو قرصة... والمقرص الرسمي يكون دائما تحت الذقون. ولذلك قلما نجد تلميذا إلا له أثر في عنقه... والوالدان يقولان في ذلك متى رأوه رضي الله على الطالب فما أكثر اجتهاده... وقلما نجد من يمتنع لولده إن رأى منه مثل ذلك..."¹³.

وتبقى أشكال التأديب (العقاب) من لطم وركل خفيفة بالمقارنة مع "الزركا والفلفلة" وغيرهما من أشكال العقاب القاسية. وهكذا يتفنن المدرس في التعذيب الجسدي للصغار بقناعة أوبدعم من المحيط الاجتماعي الذي يشجعه على ذلك. حتى إن بعض الآباء كانوا يقولون للفتية بالعامية المغربية: "اقتل وأنا ندفن اذبح وأنا نسلخ"، إلا أن هذه النظرة السلبية مبالغ فيها بحيث أن العقاب كان بشكل مقبول في ذلك الزمان رغم أن هناك بعض الفقهاء - وهم قلة - كانوا يتفننون في تعذيب الأطفال.

■ منهجية التدريس:

"يكاد تعليم القرآن الكريم في جميع أنحاء المغرب يكون على وثيرة واحدة في جوهره ويسر تعلمه. فالطالب (المدرس) يوقظ قبل صلاة الفجر الصبية الصغار الذين يرقدون عنده في المسجد ليقروا ويحفظوا ما بالألواح. ويتدثون الكتابة مع طلوع الشمس... فيفطرون ويعودون مسرعين ليتابعوا الدراسة حتى منتصف النهار... منهجية التدريس ظلت تحكمها ولقرون مستويات ثلاثة: الكتابة والحفظ والاستظهار مصحوبة بالعقاب البدني"¹⁴. فلا تختلف عن المعتاد في

13- مدارس سوس العتيقة، المختار السوسي، ص 21-22.

14- نفسه، ص 13 إلى 16.

المغرب من حفظ وتكرار السور وغسل الألواح صباحا. ثم إملاء الأستاذ على التلاميذ كل واحد على حدة...

■ الوسائل التعليمية:

"اللوح والصمغ (الصمغ أو الصمق تنوع الأسماء حسب المناطق المغربية) (المصنوع من صوف محترق أو الصوف وما علق به من البعر والبول، أو ما يسيل من بعض الأشجار كشجرة البطمة بضم الباء وتسكين الطاء)، كما أنه في المناطق الصحراوية خاصة عند الرحل كان الصمغ يصنع بالطريقة التالية: يؤخذ حجر غليظ مقعر الشكل يصب فيه قليل من الماء مع علك شجر الطلح حتى يذوب ثم تؤخذ قطعة من فحم تغطس في الماء فيتم نحتها على الحجر حتى يتم الحصول على الحبر المراد فيكتب به على الألواح. والقلم (المصنوع من نخيل أوقصب) ومساطر، ثم الكرار (الكراج-التباع-الحناش الذي يستعمل للمساعدة على الحفظ)¹⁵. وسائل تعليمية ظلت حاضرة بالبلاد المغربية من القرن الثالث الهجري إلى منتصف القرن الرابع عشر الهجري، كما أننا نجد بعضها إلى الآن في بلادنا العزيزة.

صفات تكوين المدرسين:

• **صفات أخلاقية:** نادرا ما يشير إليها المختار السوسي في المعسول وفي مدارس سوس العتيقة، فهي تتمركز حول ما هو معروف في بلاد المغرب من التمسك بأخلاق القرآن وتجنب كل ما يخالف نهجه القويم.

• **صفات (تكوين) معرفية:** مدرسو التعليم الأولي والابتدائي هم طلبة من حفظة القرآن الكريم مع إمام أولي بمبادئ الدين الإسلامي واللغة العربية.

15- مدارس سوس العتيقة، المختار السوسي، ص 16-17.

والصفات المعرفية للمدرسين كما رصدها المختار السوسي لا تختلف عما هوسائد في البلاد المغاربية منذ القرن الثالث الهجري (بتونس مع ابن سحنون) مروراً بالقرن العاشر الهجري (بالمغرب مع ابن عرضون). وقد تنبه المختار السوسي إلى ذلك عندما قال: "يكاد تعليم القرآن الكريم في جميع أرجاء المغرب يكون على وتيرة واحدة"¹⁶. ذلك ما رصده - كذلك - أحمد توفيق بقوله: "المعلمون إما طلبة لا يحفظون القرآن إلا بقراءة واحدة (ورش عن نافع) أو طلبة يحفظون القرآن بعدة قراءات أو بجميع القراءات أوفقهاء يجمعون بين القراءات والعلوم الشرعية. الصنف الأول كان يعمر كتاتيب القرى الصغيرة التي لا يتعلم فيها غير التلاميذ الصغار بينما كان الصنف الثاني يعمر المدارس"¹⁷،¹⁸.

• صفات (تكوين) بيداغوجية:

السلطوية على مستوى العلاقات التربوية إلى جانب الحفظ والاستظهار على مستوى التقويم. هذا ما تؤكده بشكل صريح نصوص كثيرة واردة ضمن الفكر التربوي للمختار السوسي.

▪ اللعب والتعليم:

لا يتحدث المختار السوسي عن اللعب في علاقته بالتعليم كما هو الأمر مع الغزالي وابن عرضون، بقدر ما يصف لنا أنواع اللعب مع التمييز بين ما هو مخصص للراشدين وما هو مخصص للصبيان¹⁹. وفي هذا الإطار، يصف لنا المختار السوسي ألعاب الصبيان كما يلي: الاسداء - شلوك - الضما - طابت العصيدة - لعبة الحبل - لعبة الحمل - رماية الهدف - صيادة اليمام - لعبة الخيط

16- المعسول، المختار السوسي، جزء 1- ص 434.

17- مدارس سوس العتيقة، المختار السوسي، ص 13 ومن 75 إلى 82.

18- المجتمع المغربي في القرن 19 م، أحمد توفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الثانية، سنة 1983 ص 454.

19- المعسول - المختار السوسي- جزء 1- ص 60 والخطاب التربوي بالمغرب- أحمد أحوثن- سلسلة المعرفة للجميع- العدد " 28 " - يناير/فبراير 2003.

بحجر - لعبة الخدروف - لعبة لمضاربة بالفاطو - لمضاربة بالأحجار الصغيرة - اللعب بالكرة - المرملة بالماء يوم العنصرة... إنها أنماط من اللعب متنوعة تتفاعل مع البيئة السوسية²⁰. كما أن الذي يقابل هذه الألعاب في باقي البلاد المغربية مثلاً: لعبة العروسة (العظمة في المناطق الصحراوية)، لعبة الحبل، لعبة الكرة، لعبة الغميضة (إغلاق العينين بثوب)، لعبة التخفي (أو كاش كاش) وغيرها.

من خلال ما سبق ذكره يتبين لنا أن صور الطفل وتمثلاته كما يرويها المختار السوسي هي صور سلبية لا يمكن فصلها عن سياقها التاريخي أي عن المرحلة ما قبل علمية سيكولوجية الطفل، حيث لا وجود لا لتعامل مستقل مع موضوع الطفل ولا لمناهج مستقلة. وهكذا كان يتعامل مع الطفل كرجل مصغر.

2) الكتابات القرآنية بين المساري والبلغيثي²¹:

■ أهمية التربية المبكرة:

يقول العربي المساري:

وخير ما كان في حال الصغر فهو كما قيل كنقش في الحجر²²

وقد فصل البلغيثي هذا التصور باستحضار استشهادات كثيرة منها:

قال ابن نفطويه:

أراني أنسى ما تعلمت في الكبر وليس بناس ما تعلمت في الصغر²³

20- مدارس سوس العتيقة- المختار السوسي- ص46 إلى 49.

21- أحمد بن عبد المأمون البلغيثي، فقيه وأديب وقاضي ورحالة ولد بفاس سنة 1865م وبها توفي سنة 1929م، وقد عاش في فترة حاسمة من تاريخ المغرب، بما شهدته من أحداث وتقلبات. ومن أبرز مؤلفاته: "تنسم عبير الأزهار بتبسم ثغور الأشعار" وكتاب "الابتهاج بنور السراج".

العربي بن عبد الله المساري، فقيه درس ومارس القضاء بقبيلة مسارة وهي إحدى قبائل الريف بشمال المغرب، عمر طويلاً كما يرى البلغيثي، والأرجح أنه ولد في النصف الثاني من القرن 12 الهجري وتوفي في نهاية النصف الأول من القرن 13 هـ. (انظر الخطاب التربوي، أحمد أحنوثن، م.س.).

22- الابتهاج بنور السراج، أحمد البلغيثي- الجزء الأول ص 104.

23- نفسه.

ونسب لعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه قوله:

حرص بئك على الآداب في الصغر لكي تفر عينك بهم في الكبر

وقال الشافعي رحمه الله:

ومن فاته التعلم في زمن الصبا فكبر عليه أربعا لوفاته²⁴

وقال ابن أبي زيد القيرواني:

واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير وأرجو القلوب للخير ما لم يسبق
البشر إليه.

وقد علق البلغيثي على ما سبق: "وبالجملة فما تعودده الصبي في الصغر عليه
يتطبع في الكبر"²⁵.

ومن خلال ما سبق يتبين لنا وجود اهتمام عميق بأهمية التربية والتعليم
المبكر. وهو ما يؤسس للمساهمة في التشكل والنمو السليم لشخصية الطفل.

■ العلاقات التربوية:

يميل البلغيثي إلى تأكيد ضرورة ممارسة تربية متفهمة. وهكذا "لا ينبغي
التشديد جدا على الصبي في حال صغره حتى يورث ذلك غاية الضجر. فإن
ذلك مضر به في عقله وجسمه"²⁶.

وقد دعم البلغيثي هذا الرأي بالنصيحة التي وجهها سحنون (الأب) إلى
معلم ولده: "لا تضربه أصلا مهما صدر منه شيء أولعب" وهي نصيحة ونص
(القرن الثالث الهجري) متداول بكثافة في الكتابات التربوية المغربية، شرحه

24- الابتهاج بنور السراج، الجزء الأول، ص105.

25- نفسه، ص106.

26- نفسه.

الشيخ السنوسي بقوله: "إن كثرة الضرب والزجر مما يؤثر في نقص العقل" وأيضا رأى سحنون أن لا تأثير لضرب أوزجر في حفظ أوفهم ولا اجتهد عقلا"²⁷.

أما في إطار ما نسميه بالتحفيز النفسي والعقلي للمتعلم أثناء الدرس والذي أورده المساري (صاحب السراج) فقد دعم هذا الطرح البلغيثي (صاحب الابتهاج) وقال بأن أهم ما يحفز المتعلمين هو تلك الحكاية أو القصة أو النادرة أو النكتة من طرف المدرس. فهي من جهة تأتي في سياق الدرس وضمن بنيته "وليست بأجنبية عن الدرس" ومن جهة ثانية تأتي في إطار تحقيق أهداف الدرس "وغاية المطلوب".²⁸

■ منهجية التدريس:

انطلاقا من تحديد مفهوم التدريس، إلى مراعاة نفسية وعقلية المتعلم، إلى تبني روح المبادرة والنقد الذاتي، إلى ضرورة الإصغاء للمتعلم وأشكال معالجة أخطائه، وأشكال الشرح، إلى توضيح أهمية التمهيد (التوطية)، نقاط إلى جانب أخرى تعكس العقلانية لكل من المساري والبلغيثي في فهمهما للعمل التعليمي.

■ الإدارة التربوية:

مكان التدريس وعقد تشغيل المدرسين وتوقيت الدراسة والعطل، عناصر تربوية ثلاثة، لم يفصل فيها المساري والبلغيثي، وكأنها عناصر لم تعد تثير النقاش الذي أثارته في القرن الثالث والرابع الهجري كما ذكر ابن سحنون والقباسي. وقد اكتفيا (البلغيثي والمساري) بالتلميح إلى:

مسألة إجارة المعلم انطلاقا من كتاب المعيار للونشريسي: فقد ذكر ابن

27- الابتهاج بنور السراج،، الجزء الأول، ص106.

28- نفسه.

سحنون والقابسي وابن عرضون والطرنباطي: "كره مالك ذلك في المدونة، الإجارة على تعليم العلم. وقيل بالمنع وقيل بالاستجابة حسبما اختلف في جميع كتبه. ومذهب المدونة مقدم في النقل لكي لا يضعف العلم، لضعف أرزاق العلماء. فإن منعوا الإجارة شغلهم طلب المعيشة عن التعلم"²⁹.

مسألة أيام العطل: يقدم البلغيثي حولها معطيات تربوية وتاريخية مفيدة: "واعلم أن أصل البطالة يوم الخميس هو أمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه. بعد أن كان التعليم يغطي كل أيام الأسبوع. ثم اقتدى به بعد ذلك علماء السلف في الاستراحات المشروعة إلى يومنا هذا"³⁰. وقد فصل البلغيثي في الأهمية التربوية للاستراحة الأسبوعية في باب ما يتعلق بيوم الخميس من الآداب كالا اجتماع بالأصحاب والخروج إلى أوسع الرحاب وترويح النفس بما لا يخرج عن الصواب.

■ صفات تكوين المدرسين:

• صفات أخلاقية: يقول المساري

واقراً على شيخ ذكي ورع مهذب النفس هو اه قمع³¹

وقد شرح البلغيثي هذا البيت إلا أنه لا يفرق بين الصفات الأخلاقية للمدرسين كما هو الحال عند الطرنباطي أو الغزالي، والصفات المعرفية والتربوية.

• صفات معرفية: لا يفرق بينها وبين الصفات التربوية، بحيث يتعين على الفقيه ممارسة تربية متفهمة ينعدم فيها العقاب الجسدي إضافة لاستعمال أساليب الترغيب والتحفيز التي تحبب العلم للطلبة المتعلمين، هذا إضافة لإجادته حفظ

29-الابتهاج بنور السراج، أحمد البلغيثي، الجزء الثاني ص 62.

30- نفسه، الجزء الأول، ص 261.

31- نفسه، الجزء الثاني، ص 73.

القرآن الكريم مع تمكنه من قواعد اللغة العربية والفقه في أمور الدين.

• **صفات بيداغوجية:** من الصعب الفصل بين الصفات المعرفية والصفات البيداغوجية للمدرسين عند البلغيثي بشكل خاص وفي الفكر التربوي المغربي بشكل عام. يقول البلغيثي: "كما أنه لا يحصل الثواب على تدريس العلم إلا إن كانت في المدارس أهلية. لذلك فيحرم على الشخص أن ينتصب للتدريس حتى يكون أهلا له محققا للفن الذي يريد الخوض فيه".³² وهكذا فضرورة توافر الكفاءة والأهلية المعرفية تقابلها ضرورة ثانية وتتمثل في الأهلية والكفاءة البيداغوجية: "ومن تمام الأهلية أن يحسن صنعة التدريس وكيفية الإملاء والتقدير والتنقيح".³³

▪ اللعب والتعلم:

يفصل البلغيثي كثيرا في هذه المسألة تأسيسا على نظم المساري القائل:

ولعب الكرة ليس مذهبي إذ فيه للقتال أقوى سبب

والضام دعها للعوام تبرز ولعب الشطرنج قد يجوز³⁴

والبلغيثي يعمق نظم المساري مستشهدا بالكثير من النصوص النثرية والشعرية، مبينا أهمية لعب كرة القدم والشطرنج بالنسبة للصحة البدنية والعقلية بشكل عام، دون التمييز بين أهميتها بالنسبة للطفل والنسبة للراشد.

التغذية والتعلم:

ورد هذا العنصر التربوي بكثرة عند البلغيثي الذي يرى أن "كثرة الطعام

32- الابتهاج بنور السراج، أحمد البلغيثي، الجزء الثاني، ص 61.

33- نفسه، ص 63.

34- نفسه، الجزء الثاني، ص 283 إلى 293.

والنوم تضعف الحفظ والفهم...³⁵.

من خلال ما تقدم، يتبين لنا أن التمثيلات والصور الحاضرة حول الطفل في منظومة المساري (القرن 18 ميلادي)، وشرحها من طرف البلغيثي (القرن 19 ميلادي) تتشكل من عناصر سلبية تارة وإيجابية تارة أخرى، لطفل هوراشد مصغر تارة وهو طفل له ما يميزه عن شخصية الراشد تارة أخرى.³⁶

3) الطفل والتربية في مخطوط "بلوغ أقصى المرام في شرف العلم وما يتعلق به من أحكام" للطرباطي³⁷:

■ العلاقات التربوية:

يركز الطرباطي في "بلوغ أقصى المرام" ضرورة ممارسة أسلوب تربوي متفهم يتأسس على ثنائية الشفقة على المتعلمين الصغار والعدل فيما بينهم. وقد أورد في مخطوطه في الباب الرابع منه (في آداب المعلمين) ما نصه: "ومنها أن يكون مشفقاً على المتعلم وأن يتزله منزلة ابنه وأن يزرجه عن أخلاق السوء بطريقة التعريض لا بطريقة التصريح وبطريقة الرحمة لا بطريقة التوبيخ... ولا يقنطه إذا ظهرت منه صلابة في الفهم"³⁸.

■ منهجية التدريس:

التواصل بلغة مفهومة والشرح من خلال التكرار مع مراعاة إمكانيات المتعلم الذهنية هي عناصر أولية ضمن تصور الطرباطي لمنهجية التدريس التي

35- الابتهاج بنور السراج، الجزء الأول، ص 63 إلى 73.

36- المجتمع المغربي في القرن 19 م، أحمد توفيق- مطبعة النجاح الجديدة- الطبعة الثانية- سنة 1983 ص 461.

37- أبو عبد الله بن مسعود بن أحمد الطرباطي: فقيه من فاس ولي القضاء بسجلماسة والصويرة. توفي بفاس سنة 1214 هـ الموافق لـ 1799 م. من مؤلفاته: "إرشاد السالك إلى ألفية بن مالك" ومخطوط: "بلوغ أقصى المرام في شرف العلم وما يتعلق به من أحكام" (الخطاب التربوي، أحمد أحموش).

38- مخطوط بلوغ أقصى المرام في شرف العلم وما يتعلق به من أحكام- أبو عبد الله بن مسعود بن أحمد الطرباطي- ص 52.

يجب على المعلم اتباعها عند تعليم الصبيان: "ومنها أن يزين عباراته وأن لا يأتي بالألفاظ الغريبة التي لا يفهمها الحاضرون، بل تكون عبارات على قدر ضعافتهم فهما ليكثر الانتفاع". وعدم ممارسة هذه المنهجية يؤدي إلى ملل المتعلم "فتتعب نفسه من غير فائدة"³⁹. من خلال ما ذكر، يتبين لنا أن الطرنباطي كان يراعي الفروق الفردية بين المتعلمين لتحصل الفائدة الكبيرة.

■ التقويم التربوي:

ولتجاوز العوائق من أجل تحقيق مردودية تعليمية أفضل، يجب على المدرس ممارسة التقويم التشخيصي: "بأن يطرح على المتعلمين مسألة ليختبر مقدار علمهم به"⁴⁰. وهو تقويم مصحوب بعملية تقييم أخلاقية انطباعية: فعلى "المعلم أن يتفقد أحوال من يتعلم فلا يبذل عمله إلا لمن يتوسم فيه الخير والصلاح"⁴¹. وقد ناقش الطرنباطي عملية التقييم هذه بقوله "سؤال مشكل اضطرت فيه فتاوى العلماء" وبعد أن استحضر طرح الغزالي الذي يرى أنه من الظلم بث العلم لغير أهله. وقول مالك. "اتقوا الله وانشروا هذا العلم وعلموه" انتهى إلى رفضه لأن ذلك يؤدي إلى "انقطاع مادة العمل والتعليم"⁴². وهونفس التصور الذي نجده عند أحمد البلغيثي في كتابه الابتهاج بنور السراج.

■ الإدارة التربوية:

يجعل الطرنباطي من مسؤولية العلماء والسلطين توفير مكان التدريس وإطار التدريس "على العلماء كافة وعلى السلطين خاصة أن يرتبوا في كل قرية

39- مخطوط بلوغ أقصى المرام في شرف العلم وما يتعلق به من أحكام- أبو عبد الله بن مسعود بن أحمد الطرنباطي، ص53.

40- نفسه، ص54.

41- نفسه.

42- نفسه، ص58-60.

وفي كل مرحلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم"⁴³. أما عن مسألة عقد تشغيل المدرسين، فقد عاد الطرنباطي إلى الحديث عن إباحة إجارة المعلم أو عدم إباحة إجارته، أي عاد ليكرر الفكرة المتداولة عند ابن سحنون: "كره مالك في المدونة الإجارة على تعليم العلم (العلم الديني) وقيل بالمنع، وقيل بالإباحة حسبما اختلف في بيع كسبه، ومذهب المدونة مقدم في النقل ليلا يضيع العلم لضعف أرزاق العلماء، فإن منعوا الإجارة شغلهم طلب المعيشة عن التعليم"⁴⁴. وهذه المسألة كانت محسومة على أرض الواقع، فقد تعارف المجتمع المغاربي على إجارة وتشغيل المدرسين نقدا أو عينا منذ أيام ابن سحنون، ذلك ما يؤكده المختار السوسي في كتابه "المعسول". وقد كان ابن رشد، أكثر موضوعية عند معالجته مسألة تشغيل المدرسين بالكتاب: "وأما الاستئجار على القرآن فقد اختلفوا فيه-أيضا- وكرهه قوم وأجازه آخرون...والجعل هو الإجارة على منفعة مظنون حصولها، مثل مشارطة الطبيب على البرء والمعلم على الحداق. وقد اختلف العلماء في منعه وجوازه..."⁴⁵.

▪ صفات (تكوين المدرسين):

في التراث التربوي المغربي والمشرقي، يتم التركيز على الحديث عن صفات (تكوين) المدرسين، على الصفات الأخلاقية بالأساس ثم المعرفية ثم البيداغوجية أحيانا.

• صفات تكوين أخلاقية: على المدرس "أن يتخلق بالصفات الجميلة والخصال الحميدة والشيم المرضية التي ورد الشرع بها وحث عليها وأرشد إليها

43- مخطوط بلوغ أقصى المرام في شرف العلم وما يتعلق به من أحكام- أبو عبد الله بن مسعود بن أحمد الطرنباطي،

ص60.

44- نفسه.

45- نفسه.

من الزهد والسخاء وطلاقة البشر من غير خروج إلى حد الخلاعة والحلم والصبر عن داني الإكساب وتعظيم أبناء الدنيا بالمشي إليهم والقيام لهم ومنها مجانبة العوام ما أقل غلا لمنفعة دينية أو مرجوة من تعليم مسألة أو إرشاد إلى فعل خير. ومنها ملازمة الآداب الشرعية وملازمة الورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع"⁴⁶، وغيرها من الصفات المثالية التي يريدها الطرنباطي أن تتوفر في معلم الصبيان. وهي صفات لا يخلو نص تربوي تراثي من التأكيد عليها. وإذا كان الطرنباطي يتحدث عن "مجانبة العوام" فعمليا كان مدرس الصبيان (الفقيه = الطالب)، يعيش في "عمق العوام" بفعل ممارسته لمهام الإمامة والقضاء والتدريس.

• صفات (تكوين) معرفية وبيداغوجية: في غالب الأحيان كان هناك تداخل في الفكر التربوي التراثي حين يتم الحديث عن الصفات المعرفية والصفات البيداغوجية التي يجب أن تتوفر في المدرس. وقد ركز الطرنباطي في مخطوطه على الصفات البيداغوجية، بقوله:

- أن لا يستنكف المعلم عن التعلم عمن دونه في سن أو نسب أو شهرة.
- إذا ترك المعلم التعلم وظن أنه قد استغنى فهو أجهل.
- من شيم العالم أن يكون عارفا بزمانه.
- التواضع المعرفي بالإكثار من قول لا أدري.

وهي صفات تتمحور حول ضرورة التزام المدرس وحرصه على تحقيق تكوين مستمر. إضافة إلى ذلك، فقد فصل الطرنباطي حول مسألة أهمية توفر المدرس على "الإجازة" لممارسة التدريس:

46- مخطوط "بلوغ أقصى المرام في شرف العلم وما يتعلق به من أحكام"، أبو عبد الله بن مسعود بن أحمد الطرنباطي، ص 50 إلى 59.

"أما توقف التعليم على كتب الإجازة فلم يقلده أحد، وإنما هو كالفيتا لا تتوفر على إجازة، بل من عرف منه العلم والدين جاز أن يعلم ويفتي"⁴⁷. إن الطرنباطي في هذه المسألة كغيره من الفقهاء المغاربة، لم يخرج عما انتهى إليه السيوطي: "فمن علم من نفسه الأهلية جاز له ذلك وإن لم يحزه أحد وعلى ذلك السلف الأولون والصدر الصالح"⁴⁸. وقد كان مشكل إجازة التدريس مشكلا مطروحا بحدّة في مغرب القرن 18م والقرن 19م.

من خلال ما ذكر، يتبين لنا أن الطرنباطي كان صادقا مع نفسه، فقد اكتفى بتجميع ما رآه مفيدا لتربية الصبيان والراشدين من خلال تجميع ما قاله الفقهاء السابقون في الموضوع تأسيسا على آراء الغزالي. ويبقى ما أورده من صور وتمثلات حول الطفل جزء من المرحلة التي قبل علمية لعلم نفس الطفل وعلوم التربية.

IV- نبذة تاريخية عن تطور الكتابات القرآنية بالمغرب: عهد الحماية وبعد الاستقلال:

استمر الاهتمام بالكتاب عبر المسيرة التاريخية للمغرب ومن مظاهر هذا الاهتمام:

- الرسالة النافعة التي كتبها السلطان محمد بن عبد الله في مبادئ الدين ليدرسها الأبناء في جميع المدارس القرآنية الأولية، طالبا من الفقهاء تطوير أساليب الدراسة.

- قام السلطان عبد الرحمان بن هشام العلوي "بالزام كل مدشر من المداشر

47- مخطوط "بلوغ أقصى المرام في شرف العلم وما يتعلق به من أحكام"- أبو عبد الله بن مسعود بن أحمد الطرنباطي- ص 61-62.

48- الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، الجزء الأول، دار الفكر، ص 178.

تأسيس مدرسة قرآنية ومسجد ديني والقيام بمثونة الفقهاء الذين يقومون بتلك المدارس لتعليم القرآن ومبادئ العربية والدين واعتبر كل من قصر في ذلك مجرماً تجب معاقبته وإنزال النكال به⁴⁹.

الكتاب في عهد الحماية الفرنسية:

في عهد الحماية الفرنسية (1912-1955)، قام الكتاب بدوره في تأصيل العقيدة الإسلامية، وفي تغذية العقول بالمعاني السامية، وفي تطهير النفوس من الرذائل، وفي تقوية الروابط الاجتماعية.

وقد تنبه الفرنسيون أيام الحماية إلى ما يقوم به الكتاب من أدوار، فعمل ساسته على تضيق وظائفه، فوجهوا المدرسين آنذاك إلى تحفيظ القرآن الكريم دون شروح أو تفاسير، ويظهر هذا في توجيهات "المسيوهاردي" سنة 1920م، وكان آنذاك مديراً للتعليم بالمغرب، ناهيك عما كان يخطط له الجنرال "ليوطي" منذ دخول فرنسا إلى المغرب، وفي التقنيات التي أتى بها ظهور 1937م، وهو يظهر يضبط العمل بالتعليم الأولي، وقد تلاه قرار وزيري مفسر له، وتضمن هذا الظهير:

أ- التنظيم العام:

- اعتبار مندوبية المعارف والعلوم الإسلامية وصية على هذا القطاع.
- تحديد المسطرة القانونية الواجب اتباعها في شأن الترخيص بفتح الكتاب.
- تعيين الجهة الموكول إليها مراقبة الكتاتيب.

49- مفاخر العلويين، موجز عن تاريخ الدولة الشريفة وأعمالها الخالدة بمناسبة الذكرى الثامنة لجلوس الملك الراحل محمد الخامس على العرش.

- تخصيص حوافز مادية، وتحديد الإجراءات الزجرية.

ب- البرنامج التربوي:

حدد ظهير 1937 من المواد التي تعلم بالكتاب في:

- تحفيظ القرآن الكريم والتجويد.

- الخط واللغة العربية والنحو وقراءة المتون.

- مبادئ الفقه.

- علم الأدب وتهذيب الأخلاق.

الكتاب القرآني بعد الاستقلال:

يمكن تقسيم هذه الفترة إلى مرحلتين أساسيتين:

أ) المرحلة الأولى: ما قبل الخطاب الملكي ليوم 9 أكتوبر 1968م.

عمل الكتاب من خلال وظائفه التربوية على مواجهة أطماع المستعمرين بتدريس التربية الإسلامية (القرآن الكريم والمتون) واللغة العربية، وساهم بذلك في تربية النشء تربية إسلامية أهلت رواده للتشبث بالوطن والدود عنه، والاعتزاز بمقومات الشخصية المغربية الثقافية.

وفي سنة 1968م ظهرت كتابات حديثة أدخلت عليها تحسينات في الجوانب المادية والتنظيمية، حيث استبدلت الحصائر بالكراسي، والألواح الخشبية بألواح معدنية والصمغ (الصمق - الصمخ) بالطباشير. وعرفت بعض الكتابات استعمال سبورات وأسندت مهام التربية لبعض الشباب الذين لم يكونوا بالضرورة فقهاء، انحصرت وظائفهم في تلقين الأطفال بعض السور القرآنية الكريمة وبعض الأناشيد والحروف.

وإجمالاً فإن الكتاب كمؤسسة تربوية ورغم طرقه التربوية التقليدية لعب دوراً هاماً في محو الأمية للعديد من الأفراد وساهم في الحفاظ على قيم المجتمع الدينية والوطنية ولعب الفقيه دور المرشد الديني والقانوني والاجتماعي في تدبير شؤون المناطق المتعاقد فيه معها.

ب) المرحلة الثانية: ما بعد الخطاب الملكي لسنة 1968م.

نظراً لأهمية المؤسسة الكتابية لصالح أطفالنا، فقد خصها الملك الراحل الحسن الثاني بفائق رعايته، وأعطى انطلاقة بعثتها وتجديدها لتساير عصرنا المتطور، وتحيا فيه مؤثرة ومتأثرة، مؤثرة بقيمها الجوهرية ورسالتها الدينية والأخلاقية الخالدة، ومتأثرة بإدخال تجديدات عليها تساير العصر، وتمنح الأطفال ما هم في حاجة إليه، ليكونوا أهلاً للتحدي ومواجهة المستجدات التي تطبع عصرنا الحالي. وفي 9 أكتوبر 1968م، وجه الملك الراحل الحسن الثاني خطاباً خصصه للمؤسسة الكتابية، وقال فيه من جملة ما قال: "أما اختيار الفقهاء، فسيكون على أساس أن يكونوا متوفرين على طريقة التعليم أولاً والكفاءة ثانياً، حتى يتمكنوا من أن يتعلموا، لن يكونوا على الشكل الذي كنا نعرفه نحن، حيث كانوا يطبقون أساليب عتيقة، وغير لائقة في تعليم الأطفال..."⁵⁰. وقد حدد هذا الخطاب أهدافاً تمثلت في:

- المساهمة في التنشئة الاجتماعية للطفل وتقوية القيم الإسلامية.
- تأمين "تربية أساسية" متجانسة لكل طفل تخص الأخلاق، ومبادئ الإسلام وحب الوطن.
- تلقين الأطفال مبادئ اللغة العربية والحساب.
- التدرج في إدخال المستجدات التربوية لمؤسسة الكتاب.

50- دليل مرجعي لتكوين مربّي التعليم الأولي، وزارة التعليم، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1994.

ج) الطرق التربوية في الكتابات القرآنية:

اختلفت الطرق التربوية باختلاف مراحل تطور الكتابات القرآنية، فراوحت في ذلك بين طرق تقليدية قوامها التلقين والحشوتبواً الفقيه فيها مكانة مركزية وتمثل دور الطفل في التردد والحفظ والاستظهار، أو طرق شبه حديثة عملت على إدراج أنشطة نفسية حركية وأناشيد إلى جانب القرآن الكريم والمتون واللغة العربية.

وتسعى اليوم في ظل تجديد الفكر الديني إلى الانفتاح على طرق تربوية حديثة من شأنها تفتيق شخصية الطفل⁵¹.

كما أن كثيراً من المهتمين بالكتابات القرآنية أشار إلى ضرورة إدخال التقنيات الجديدة في ميدان التعليم بهذه المؤسسات، كالحاسوب والوسائل السمعية البصرية التي تجعل المتعلم على دراية بالواقع الذي يعيشه إضافة لتعليم اللغات الأجنبية...

٧- طرق تطوير أداء الكتابات القرآنية بالمغرب:

لتطوير أداء الكتابات القرآنية، لابد من مراعاة بعض الأمور التي تصب في مجملها في دور المربي (المعلم-الفقيه-المدرّس)، وهي عبارة عن نصائح أرجو من العليّ القدير أن ينفعنا بها.

اعلم أخي المربي، أنه إذا ضاقت عليك الدنيا بظلم أهلها فتذكر سعة الآخرة ورحمة الله لك فيها، وإذا رفضك أهل الفانية فلا تنس ترحيب أصحاب الجنة واحتفاء الحور العين بك، ووضع الملائكة لك أجنحتها بالرحمة.

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "الدنيا

51 - الدليل العملي- الأنشطة الجديدة للتعليم الأولي- الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 2006/2005.

ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالما أو متعلما".

ويمكن تلخيص هذه النصائح في ما يلي:

1) الاعتناء بالمظهر:

على المدرس الاهتمام بمظهره الخارجي حتى لا يكون مادة لسخرية الأطفال والناس. فائمة المسلمين كانوا يخصصون ثيابا للدرس يلبسونه قبل الجلوس للتدريس، وهذا يضفي عليهم مهابة واحتراما، وليكن لنا في رسول الله محمد ﷺ أسوة حسنة، فقد كان لرسول الله ﷺ ثياب خاصة بلقاء الوفود، وثوب خاص بصلاة الجمعة، ومن هديه ﷺ ارتداء أفخم الثياب يوم الجمعة والعيدين، والاغتسال قبل الإحرام. فيجب على المدرس أن يكون مظهره وهندامه في المستوى، وثيابه أنيقة بلا تكلف، ورائحته طيبة، ومشيته متزنة غير متكبرة وكلامه جادا مع الطلاب.

2) المداومة على تحصيل العلم:

عليك أيها المربي الفاضل أن تجعل لك في اليوم وقتا معلوما تقرأ فيه الجديد في العلم وتسترجع فيه معلوماتك. فالعلم تراكمي وفي كل وقت تدفع المطابع بملايين الكتب والمجلات والأوراق العلمية في جميع التخصصات، فأين أنت من هذا التقدم الهائل؟ فليكن لك مكتبة دائمة التجديد، ولتكن على صلة بمجلات بيع الكتب المحلية والمعارض الدولية التي تقام سنويا في بلدك، ودور النشر وشركات الطباعة، اقتن منها الجديد. وضع نصب عينيك هذه النصيحة الجامعة التي أهداها إيانا الإمام الشافعي رحمه الله:

أخي لن تنال العلم إلا بسة سأنبيك عن تفاصيلها ببيان

ذكاء، وحرص، واجتهاد، وبلغة وصحة أستاذ، وطول زمان⁵²

52- ديوان الإمام الشافعي، دار المطبوعات الحديثة، جدة، ص 81.

3) اجعل نيتك خالصة لله سبحانه وتعالى في تعليم أبناء المسلمين:

احذر أن يزلك الشيطان ويحول نيتك إلى رثاء الناس وطلب السمعة ويجعل عملك للدنيا فقط.

VI - خصائص رواية ورش وتطبيقها بوقف الهبطي في المغرب:

القرآن الكريم لا تصح قراءته إلا مجوداً، والتجويد يقوم على دعامين اثنتين، إتقان نطق الحروف وإحسان معرفة الوقوف، ولا يتم شيء من ذلك ولا يتحقق إلا عن طريق التلقي المباشر من الشيخ.

1) خصائص رواية ورش عن نافع المتداولة في المغرب:

هو أبو سعيد عثمان بن سعيد المصري الملقب بورش لقراءة نافع بن عبد الرحمان بن أبي نعيم المدني عن عبد الرحمان بن هرمز الأعرج، وشيبة بن نصاح القاضي ومسلم بن جندب الهذلي مولاهم، ويزيد بن رومان، وأبي جعفر يزيد بن القعقاع القارئ، عن أبي هريرة، وابن عباس، وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ.

وسمي بورش لشدة بياضه. وللحديث عن أهم خصائص رواية ورش الأدائية، لأبد من التعرف على كيفية قراءة القرآن الكريم الذي أمرنا رب العباد سبحانه أن نتدبره. ولذلك فإن قراءة القرآن الكريم على ثلاثة أنواع هي: التحقيق-الحذر-التوسط-.

1-1- التحقيق أهم خصائص التلاوة المغربية في طريق الأزرق عن ورش:

يعتبر التحقيق من أهم خصائص رواية ورش عن نافع، وأصله المبالغة في الإتيان بالشيء حتى تبلغ اليقين في معناه وتؤديه على حقه من غير زيادة ولا نقصان. والمراد به في التجويد: هو التأني في القراءة بإشباع المدات، وتوفية

الغنائات، وتحقيق الهمزات، وإتمام الحركات، وتبيين الحروف، وتحقيق مخارجها. والتحقيق وغيره من أنواع القراءة يتعلق بمقدار السرعة فيها.

وإلا فتحقيق كل ما ذكر مطلوب في كل نوع، إلا أن معيارها في التحقيق أكثر بطئا وأقل سرعة، ولذلك لا يكون معه في الغالب قصر ولا اختلاس ولا إسكان لمتحرك ولا إدغام له. وهو مناسب لرياضة اللسان عند المبتدئين ويساعد على التدبر والتفكر في الآيات.

والتحقيق هو قراءة النبي ﷺ. فقد سئلت أم سلمة، رضي الله عنها عن قراءة النبي ﷺ فنعتت قراءة مفسرة حرفا حرفا، فقالت: "كان يقطع قراءته آية آية"، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين... (أخرج هذا الحديث أبوداود في سننه في كتاب الحروف، والترمذي في ثواب القرآن، والإمام أحمد في مسنده جزء 6 صفحة 36، وهو اختيار البيهقي في شعب الإيمان). وكذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقرأ السورة حتى تكون أطول من أطول منها. وكانت هذه قراءة الصحابة أجمعين رضوان الله عليهم. ولهذا يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "لا تهذوه هذي الشعر ولا تنثروه نثر الدقل وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة"⁵³.

كما أن التحقيق هو القراءة بتؤدة واطمئنان كبيرين، وإخراج كل حرف من مخرجه مع إعطائه حقه ومستحقه مع تدبر المعاني، وهو المأخوذ به في مقام التعليم.⁵⁴

يقول ابن أبي السداد المالقي في "الدر النثير": "يريد بالتحقيق: تمكين الحروف

53- كيف تجود القرآن وترتله ترتيلا، محمد عبد العزيز الهلاوي، مكتبة القرآن الكريم، القاهرة، 1984.

54- كيف تحفظ القرآن، الدكتور مصطفى مراد، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، 2003.

والصبر على حركتها والتثبت في بيائها".

ومن هذا يتبين لنا أن مفهوم التحقيق هو قدر زائد على التمكين المعتاد للحروف والحركات وحروف المد وتحكمه الرواية، وأما إعطاء الحرف حقه من التمكين مطلقا بمعنى توفيته ما يستحقه من البيان دون اعتبار هذا القدر الزائد، فهو حكم مشترك بين سائر الروايات عند ورش وغيره... وهذا الأسلوب من الأخذ في القراءة مأثور عن نافع بن عبد الرحمان بن أبي نعيم المدني، وكان يؤثره على الحدر دون أن يبلغ به حد الإفراط.

1-2- تعريف الحدر:

والمراد به إدراج القراءة والإسراع بها وذلك بتخفيف مقادير الأحكام بالقصر والاختلاس والتسكين وتخفيف الهمز، ونحو ذلك مما يصح في التجويد القراءة به.

1-3- تعريف التوسط:

وهو مرتبة في القراءة ما بين التحقيق والحدر وهو المختار عند أكثر أهل الأداء. وقد اختلفوا فيما هو أفضل الحدر أم التحقيق؟ فالبعض، ومنهم المغاربة، فضل التحقيق لأنه يساعد على فهم المعاني وتدبر الأحكام، وهذا هو غاية القراءة كما قال تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ﴾⁵⁵ وقال أيضا سبحانه وتعالى: ﴿كِتَابَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾⁵⁶.

وقال آخرون: الحدر أفضل لأنه يمكن القارئ من الإكثار من كمية المقروء مما يكثر من حسناته. ومن أحسن ما قيل في هذا الاختلاف ما جاء من كلام الحافظ

55- سورة الإسراء- آية 106.

56- سورة "ص" - آية 29.

ابن القيم رحمه الله في كتابه زاد المعاد ما نصه: "الصواب في المسألة أن يقال: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجل وأرفع قدرا، وثواب كثرة القراءة أكثر عددا. فالأول كمن تصدق بجوهرة عظيمة أو أعتق عبدا قيمته نفيسة جدا، والثاني كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم أو أعتق عددا من العبيد قيمتهم رخيصة".

1-4- تمكين المد تمكينا زائدا بمقدار ست حركات في الإشباع:

تتجلى هذه الخصوصية في طريق الأزرق عن ورش عند ملاقة حرف من حروف المد الثلاثة (الواو - الياء - الألف) لسبب من أسباب المد الثلاثة (الهمزة - السكون - التشديد) فتمد مدا مشبعا وطويلا.⁵⁷

1-5- تمكين المد بقدر أربع حركات في ما تقدمت فيه الهمزة على حرف المد من كلمة:

لقد انفرد الأزرق عن ورش بهذا المد عن الرواة السبعة بمقدار التوسط أي أربع حركات، وذلك في مثل آمنوا وآدم وأوحي والأولى والإيمان وإيماننا مع إيمانهم.⁵⁸

1-6- تخفيف الهمزة الساكنة إذا كانت في مقابل فاء الكلمة:

فتبدل الهمزة حرف مد ساكنا بحسب الحركة التي قبلها في مثل: ياخذ ويامر وتاكلون وناتي ويستأخرون ويستأذنونك وتستأنسوا. وكذلك في ما قبلها ضم مثل: يومنون ويوتون وتوترون والمومنين والمومنات.⁵⁹

57- قراءة الإمام نافع عند المغاربة. الدكتور عبد الهادي حميتو. الجزء الأول صفحة 80-90. طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية.

58- نفسه.

59- نفسه.

1-7- إبدال الهمزة واوا إذا تحركت وانضم ما قبلها وكانت في فاء الكلمة:

وذلك مثل: "يوخر" و"يوده إليك" و"يولف بينهم" و"فأذن موذن" و"المولفة قلوبهم".⁶⁰

1-8- إبدال الهمزة ياء إذا سكنت بعد الكسرة وكانت عينا للكلمة:

وذلك في كلمة "الذيب" في سورة يوسف مثلاً وغيرها ك: "بيس" و"بير".⁶¹

1-9- حذف الهمزة ونقل حركتها إلى الساكن الصحيح قبلها:

وذلك في الأماكن التالية من القرآن الكريم مثلاً: "من آمن بالله واليوم الآخر" - "فله الآخرة والأولى" - "والأرض وضعها للأنام"⁶²

1-10- ترقيق الراءات في مواضع مخصوصة:

لقد انفرد ورش بهذه الخاصية عن جميع القراء والرواة، ومن أمثلة ذلك:

- إذا تقدمت قبل الراء كسرة لازمة متصلة بها ولم يمنع من ترقيقها أو تكن أعجمية كإسرائيل، وسواء الكسرة كانت موالية للراء أو منفصلة عنها بحرف ساكن ليس من حروف الاستعلاء، إلا الخاء، وذلك نحو: مرأ - سراجا - تنتصران - توثرون - تستكبرون، وكذلك المفصولة بحاجز غير حصين نحو: إكراههن - إسرافنا - المحراب - سدرة المنتهى...⁶³

- إذا تقدمت قبل الراء ياء ساكنة متصلة بها: سواء كان السكون حيا

60- قراءة الإمام نافع عند المغاربة، الدكتور عبد الهادي حميتو، الجزء الأول صفحة 80-90، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية.

61- نفسه.

62- نفسه.

63- نفسه.

أوميتا، وذلك نحو: خبيرا- بصيرا- المغريات- يسارعون في الخيرات...⁶⁴

11-1- تفخيم اللامات بعد الصاد والطاء والظاء بشروطها:

وهي من خصائص رواية ورش في القراءة الرسمية عند المغاربة، وذلك في الألفاظ التي تأتي فيها اللام مفتوحة وقبلها مفتوحة أو ساكنة أحرف الصاد والطاء والظاء نحو: صلح- الصلاة- ظلم- أظلم- أطلع- مطلع...

من خلال ما تقدم يمكن للمستمع أن يتعرف وبسهولة على جنسية القارئ أو المؤذن أو الإمام أو غيرهم بمجرد ملاحظة النطق بهذه الأحرف التي ذكرنا.⁶⁵

2) وقف الإمام الهبطي بالمغرب:

أ- تعريف:

ولد أبو عبد الله محمد الهبطي في حدود منتصف القرن التاسع الهجري في مدشر "هباطة" فيم ييدومن قبيلة سماتة إحدى قبائل الجبل بشمال المغرب. ولذا جاءت نسبته هكذا: الهبطي السماتي، ويرى بعضهم أن الهبطي نسبة إلى جبال الهبط المعروفة، وسماتة، كما هو معلوم، كانت الملجأ الأخير في وجه الأدارسة أيام أبي العافية وبها حجرة النسر المشهورة ويقال لها حجرة الشرفاء. تعلم الهبطي على عادة أبناء البادية في الكتاب القرآني فحفظ القرآن وجوده، وكانت مدينة "القصر الكبير" وقتئذ من أهم المراكز الثقافية في المغرب، ثم رحل إلى "فاس" وأنهى دراسته بها، وتطبق الروايات بالصمت عن الشيوخ الذين أخذ عنهم إذا استثنينا أبا عبد الله محمد ابن غازي الذي ربما كان آخر من لقيه بفاس كما أنها لا تذكر من تلاميذه إلا عبد الله بن علي بن عدة، مع أن الرجل كرس

64- قراءة الإمام نافع عند المغاربة، الدكتور عبد الهادي حميتو، الجزء الأول صفحة 80-90، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية..

65- نفسه.

حياته لتعليم كتاب الله وتلقين رواياته. وما أكثر تلاميذه الذين أشاعوا مذهبه في الوقف وقيدوه عنه حتى أنه اكتسح أقطار أفريقية كلها.

كان أبو عبد الله الهبطي عالما عاملا متبحرا في علوم العربية عارفا بالقراءات ووجوهها. وكان موصوفا بالخير والفلاح والبركة والصلاح ذا أحوال عجيبة وأسرار غريبة... توفي بفاس سنة 930هـ ودفن بروضة الزهيري بطالعة فاس. ولم يصلنا من آثار الهبطي إلا هذا الوقف الموجود بين أيدي الناس وهو العنوان البارز للمصحف المغربي والطابع الشخصي للمدرسة القرآنية بالمغرب. ولعل اهتمامه بتعليم القرآن واشتغاله بتدريب الطلاب على النطق السليم والتلاوة الصحيحة هو الذي دفع به إلى وضعه، بحيث يعرفون كيف يقفون وأين يصلون؟ وما هي مواطن الوصل والوقف حتى لا يختل المعنى وتضيع الحكمة التي نزل من أجلها القرآن الكريم. وتلك مرحلة أولى في منهاج تعليم القراءات عند الإمام الهبطي.

ب - مذهب الهبطي في الوقف:

يرجع الاختلاف في الوقف إلى مذهبين اثنين أحدهما، اعتماد كلمات هي رؤوس الآي، والثاني مراعاة كلمات تتم المعنى والإعراب، أو الإعراب دون المعنى، أو المعنى دون الإعراب.

ولقد بنى الهبطي وقفه على المذهب الثاني، فهو يراعي الإعراب، والمعنى في الوقف والابتداء. وأمام هذا يجوز لنا أن نقسم الوقف إلى ثلاثة أقسام:

- قسم وافق الهبطي فيه غيره كاللاني وابن الأنباري وسواهما وهو أكثر وقفه.
- قسم تركه ولم يعتمد له لتجاذب الدليلين فيه أولترجيح أدلة الوصل عنده لأنه الأصل والوقف طارئ.
- قسم انفرد به ولم يوافق أحدا ممن سبقه والناس في هذا فريقان. فريق مؤيد

وفريق منتقد، والوقف عنده فيما يبدو على ثمان مراتب: تام وأتم، وحسن وأحسن، وكاف وأكفى، وجائز ومقبول.⁶⁶

ج- أقسام الوقف:

الوقف في اصطلاح المجودين هو قطع الصوت عن الكلمة زمنا يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة إما بما يلي الحرف الموقوف عليه أو بما قبله. وهناك فرق بين السكت، والوقف، والقطع.

- **فالسكت:** هو قطع الصوت زمنا دون زمن الوقف من غير تنفس.
 - **والقطع:** هو الانصراف عن القراءة والانتفاء منها. ولا يصح القطع إلا على رؤوس الآيات فلا ينبغي للقارئ أن ينصرف عن القراءة حتى يتم الآية. وينبغي بعد القطع إذا أراد العودة إلى القراءة أن يستعيد.
 - **والوقف:** هو قطع الصوت عن الكلمة زمنا يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة إما بما يلي الحرف الموقوف عليه أو بما قبله.
- ومعرفة الوقف من أهم متطلبات الفصاحة في كلام الفصحاء، كما أنها من أهم متطلبات التجويد في القراءة.
- أما كونه من أهم متطلبات الفصاحة فلما روي عنه عليه السلام أنه سمع خطيبا يقول: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما، فغضب عليه السلام وقال: "بئس خطيب القوم أنت" ويقال إن سبب غضب النبي صلى الله عليه وسلم هو وقوف الخطيب بعد قوله: ومن يعصهما. فكان هذا الوقف القبيح سببا لإنكار النبي صلى الله عليه وسلم.
- وأما كونه من أهم متطلبات التجويد في القراءة، فإن الإمام عليا رضي الله

66 - انظر: www.Attajdid.ma/def ، محمد أبو رزق، 24-01-2005.

عنه سئل عن معنى الترتيل في قوله تعالى: ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾ [المزمل:4]، فقال: هو تجويد الحروف ومعرفة الوقوف.

ولقد استنبطت أقسام الوقف تبعا لثلاثة عوامل:

- الروابط اللفظية.
- المعنى الخاص بكل عبارة.
- السياق العام أو الموضوع.

كما أنه لا بد من تقديم تعريف لكل قسم من أقسام الوقف المعتمدة عند الإمام الهبطي:

الوقف التام والأتَم:

الوقف التام هو ما يتم به الكلام لفظا ومعنى. مثال ذلك: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ [البقرة:5]. فالوقف على "من ربهم" تام لأن اللفظ والمعنى تامان. أما الوقف عند "المفلحون" فهو أتم لأنه نهاية الكلام عن المؤمنين وما بعده موضوع جديد وهو "الكفار" وحالهم مع الرسول ﷺ والرسالة.

الوقف الكافي والأَكْفَى:

الوقف الكافي هو ما لا يتعلق ما قبله بما بعده في اللفظ وكل منهما جملة مفيدة بنفسه وإن كان هناك تعلق في المعنى العام وسياق الموضوع. ومثاله: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ [البقرة:10]، فالوقف على "مرضا" كاف إذ لا يجوز ترابط بين العبارتين في اللفظ على اعتبار الواو استئنافية، إلا أن سياق الموضوع واحد وهو الكلام عن المنافقين وحالهم وما أعد الله لهم من عذاب أليم، فيكون الوقف على "المكذبين" أكفى.

الوقف الحسن والأحسن:

هو ما يحسن الوقوف عليه ولكن الأحسن وصله بما بعده لاتصال ما قبله بما بعده في اللفظ مثال ذلك: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاتحة:2]. فالوقوف على "الحمد لله" حسن لأنها جملة مفيدة، إلا أن الابتداء بها بعد الوقف لا يحسن لأنه لا يتم إلا بالجملة الأولى، لوجود الرابط اللفظي وهو كون "رب" صفة والموصوف الله فلا يمكن الفصل بين الصفة والموصوف. وعليه فإذا وقف القارئ على "الحمد لله" فعند الابتداء يعيد الجملة الأولى.

الوقف الجائز والمقبول:

هو الذي لا يكون قبيحا لسبب من الأسباب. فالقيح هو ما يقبح الوقوف عليه لشدة تعلق ما بعده بما قبله في اللفظ والمعنى بحيث إن كلا من الجملتين لا تشكل بنفسها جملة مفيدة. وأشدّه قبحا ما أحدث خللا في المعنى وأوهم معنى فاسدا وكما يكون القبح في الوقوف يكون في الابتداء.

أمثلة:

الوقف على كلمة: الإنس، الصلاة، المصلين، يستحيي، فأكله في قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والانس﴾ [الذاريات:56]، ﴿لا تقربوا الصلاة﴾ [النساء:43]، ﴿فويل للمصلين﴾ [الماعون:4]، ﴿إن الله لا يستحيي﴾ [البقرة:26]، ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله﴾ [يوسف:17].

ومثاله في الابتداء:

﴿ييم الله مغلوله﴾ [المائدة:64]. ﴿..إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ [آل عمران:181]. ﴿إن الله ثالث ثلاثة﴾ [المائدة:73].

فكل هذا ونحوه جلي القبح لأنه يحيل المعنى ويفسده ويوهم معنى آخر غير مراد، فيجب الاحتراس منه.

ملاحظة:

لقد عرف وقف الإمام الهبطي عدة انتقادات حتى أن البعض كان يتساءل عن مكانة الهبطي العلمية وهل تسمح له ليصل إلى هذه الدرجة والمستوى ليضع وقفا للمصحف الكريم، علما أن ذلك يحتاج إلى التبحر في اللغة العربية وعلومها. ومن العلماء من قال بأن الذي وضع علامات الوقف قد يكون أحد تلاميذه. لذلك فإن مذهب الإمام الهبطي في الوقف عرف عدة مواقف:

- موقف مادح:

كموقف الأستاذ أعراب رحمه الله الذي كان يعتبر الإمام الهبطي فقيها وعالما ومتبحرا في اللغة العربية.

- موقف موضوعي وعلمي:

وهو لأغلب العلماء الذين كانوا ينتقدونه مستنديين في ذلك إلى بعض الوقوف التي أثارت الجدل.

- موقف منتقد بصفة مبالغ فيها:

كموقف ابن الصديق في رسالته التي اعتبر فيها أن الهبطي لم يكن يعرف اللغة العربية لأن كثيرا من وقوفه غير جائزة، فكان يفصل بين المبتدأ والخبر، والفعل ومتعلقه. فالذي يفعل ذلك يعتبر جاهلا حسب رأيه. فهو كان يقف عند قوله تعالى في سورة آل عمران الآية 7: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ﴾ فكان يقف عند "منه" فكان يفصل بين المبتدأ والخبر.

إضافة لموقف لحسن وكاك الذي عد الوقوف الضعيفة عند الإمام الهبطي فوجد أن عددها يزيد عن 800، وتساءل كيف أن المغاربة بنوا عملهم على هذا المذهب، وأعطى أمثلة لبعض الوقوف الضعيفة مثلاً في قوله تعالى في سورة البقرة الآية 179: ﴿إِنْ تَرَوْا خَيْرًا﴾ فكلمة "خيراً" متعلقة لما بعدها وهي كلمة "وصية".

خاتمة:

إذا كانت الأرضية التي نبتت عليها مؤسسات الكتابات القرآنية هي أرضية إسلامية، فإنه من الواجب الحفاظ عليها والسعي الجاد لتطويرها بإتباع تعاليم الإسلام السمحة واختيار مبدأ الوسطية في كل الأمور، والعمل لله في هذا الحقل الخصب. وليعلم كل مرب أنه يقف على ثغر من ثغور الإسلام، فلا يؤتين الإسلام من قبله.

وفقني الله وإياكم لما فيه صالح الإسلام والمسلمين، ولخدمة أمتنا وبلدنا، آمين والحمد لله رب العالمين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المحور الثاني

مناهج وطرق التدريس
بالمكتاتيب القرآنية

منهج تعليم الأطفال في الكتابات القرآنية

عمري الحبيب

عضو المجلس العلمي المحلي بالرشيدية

مدخل:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير مرب عرفته الإنسانية، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، ومن سار على هديهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن قضية التربية والتعليم اليوم بحاجة إلى أن تنتقل إلى تفكيرنا، وأن تحتل حيزا كبيرا أكثر مما تحتل من شعورنا، فليس يكفي أن نحس أننا بحاجة إلى تربية تسيطر على مجتمعنا، بل يجب علينا أن نعمل جاهدين على التفكير في هذا النموذج الأمثل ومدى مقدار صلاحه من حيث التطبيق.

ولقد تعود الكثير من المربين عند معالجة هذا الموضوع أن ينتقلوا بتفكيرهم إلى نظم التعليم في البلاد المتقدمة ليفكروا على ضوءها في نظم التعليم عندنا، وأن يبحثوا عن حلول لهذه المشكلات، وقليل هم أولئك الذين يعودون إلى تراثنا التربوي في قضية من القضايا التربوية. مع العلم أن النماذج التعليمية عند المسلمين سبقت عصرها يوم خلقت، ولكن مع مرور الزمن صارت بحاجة إلى تجديد يواكب الحياة في سيرها ولتظل دائما جديدة متجددة. والذي يتبع خط سير مؤسسات التربية والتعليم عند المسلمين سيخرج لا محالة بهذا الانطباع.

سن التحاق الطفل بالكتاب

التعليم الأولي:

على الرغم من أننا لم نعثر على نص يقطع بتعيين مبدأ سن الدراسة، إلا أن هناك إشارات كثيرة توحى أن السن التي كانوا يبدأون فيها بتعليم الطفل كانت الخامسة أو السادسة. ولكن أغلب المصادر تذهب إلى أن السنة السادسة أو السابعة هي السن المعتدلة التي يمكن للطفل أن يستوعب ما يلقي عليه.

والطفل كما ذكر ابن سينا: "إذا أتى عليه من أحواله ست سنين فيجب أن يقدم إلى المؤدب أو المعلم". (القانون - الجزء الأول ص157).

وإلى مثل هذا المعنى أشار ابن الحاج العبدري في المدخل حيث قال: "على المعلم أن يمثّل السنة في الإقراء، ومن جملة ذلك أن السلف الماضين رضي الله عنهم أجمعين إنما كانوا يقرئون أولادهم في سبع سنين لأنه زمن يؤمر فيه الولي أن يكلف الصبي بالصلاة والآداب الشرعية فيه، فإن كان الصبي في ذلك السن فهو غير محتاج إلى من يأتي به إلى المكتب" (المدخل - الجزء الثاني ص315).

إن ما ذهب إليه المربون المسلمون وعلى رأسهم ابن الحاج العبدري في سن التحاق الطفل بالتعليم الأولي أكدته الدراسات الحديثة، فقد ذهب المربون المعاصرون إلى أنه لا يحسن تعليم الصبي قبل اكتمال وعيه، وأن هذا الاكتمال لا يتم في الأغلب إلا بعد السن السادسة، وهو ما دعا العبدري إلى التحذير منه عندما قال: "إن الغالب في هذا الزمان أنهم يدخلون أولادهم المكتب في حال الصغر بحيث إنهم يحتاجون إلى من يربيههم ويسوقهم إلى المكتب ويردهم إلى بيوتهم... بل بعضهم يكون سنه لا يقدر أن يمسك ضرورة نفسه.. ويلوث ثيابه ومكانه، فليحذر-أي المعلم- من أن يقرأ مثل هؤلاء إذ لا فائدة من إقرائه لهم

إلا وجود التعب غالباً... ألا ترى أن الغالب منهم يرسلون أولادهم إلى المكتب في حال صغرهم بقصد التخلص من متاعبهم بإبعادهم عن الدار وليس بغرض تعليمهم القراءة" (المدخل - الجزء 2 ص 163)، بتصرف.

إن العلامة العبدري في قوله السابقة ليشير إلى حقيقة هامة في علم النفس. وهي "أن النضج أول شرط من شروط التعلم الهادف المقصود، وقدرة الطفل على التعلم مشروطة بنضجه المتعلق بالنمو الجسمي لأعضاء الجسم المتصلة بالتعلم ودرجة النمو العامة في الوظائف العقلية المختلفة" (علم النفس التربوي - زكي صالح ص 678).

أما السن التي يجب أن يترك فيها الطفل المكتب فلم تحدد، ومع ذلك فهناك إشارات تلقي بعض الضوء على مدة دراسة الصبي في الكتاب فقد أورد ابن أبي أصيبعة عند ترجمته لعلي بن رضوان: " أنه التحق بالكتاب في سن السادسة ولما بلغ أربع عشرة سنة أخذ في تعليم الطب والفلسفة". (عيون الأنباء: الجزء 2 ص 99). وهذا يدل بصريح العبارة أنه ظل في الكتاب حوالي ثماني سنوات.

والمدة التي يقضيها الطفل في المكتب تختلف حسب قدرة الطفل على التعلم وإمكانياته في الانتقال إلى المرحلة التعليمية التالية. يقول: الدكتور هيكمل عن ابن حزم "إنه بعد الخامسة عشرة تقريباً، تبدأ مرحلة جديدة من مراحل ابن حزم، وهي مرحلة الخروج إلى الحياة العامة، أو التحصيل والدرس، والتعليم خارج البيت" (الأدب الأندلسي: ص 357).

ولا نأخذ النابغين مقياساً في الحكم على العامة وأوساط الناس، فإذا قدرنا أن الممتاز النابغ النابه يحفظ القرآن في العاشرة فإن المتوسط يحفظه في الثانية عشرة، أما المتأخرون فإنهم يحتاجون إلى زمن أطول، وهذا هو السر في تخلف بعض الصبيان في الكتاتيب حتى سن الاحتلام.

أما القابسي فقد أشار بشيء من الحزم أن الصبي إذا بلغ سن البلوغ ترك الكتاب، وهذه السن تتراوح عند الأطفال بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة. يقول: "وإنه لينبغي للمعلم أن يحتسب بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فساد، يناهز الاحتلام، أو تكون له جرأة". (الأهواني: التربية في الإسلام: ص59).

ويقول ابن سينا بدوره: "فالصبي إذا استمر بالمكتب حتى سن البلوغ دون أن يحفظ القرآن، فكان يصرف ليحل محله أحد صغار الأيتام، وكان الطبيب يزور المكتب في كل شهر... ويكشف على من يظن به البلوغ منهم، فمن وجده بلغ أخبر بحاله فيقرر الناظر غيره مكانه". (القانون في الطب - ج1 ص158).

ومن هذه الإشارات جميعا نستطيع استنتاج قاعدة عامة تحدد مدة الدراسة والتعليم بالكتاب وهي المترواحة ما بين سبع وثمان سنوات تقريبا.

خطة الدراسة في الكتاب

منذ أن أنشئ الكتاب كانت أوقات الدراسة فيه تحد بعلاقات طبيعية فشروق الشمس - في بعض المناطق - كان بدء اليوم الدراسي، وأذان العصر كان نهاية ذلك اليوم.

من الطبيعي أن تكون الأيام الأولى للطفل صعبة، وكان على المعلم وأهل الطفل العمل على تعويده على المناخ الجديد. وكان من العادة أن يذهب الطفل إلى الكتاب مبكرا، حيث يظل هناك إلى منتصف النهار، ثم يعود إلى منزله للغداء والراحة قليلا، وبعد ذلك يتجه إلى الكتاب مرة ثانية لكي يبدأ الدراسة فترة ثانية من وسط النهار حتى بعد العصر بقليل فينصرف إلى منزله على أن يعود في اليوم التالي.

ويرتكز ذلك على ما أثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أمر عابد بن عبد الله الخراعي "أن يلازم تعليم الصبيان بعد صلاة الصبح إلى الضحى الأعلى، ثم من الظهر إلى صلاة العصر، ويسرحهم في باقية النهار، ولا يلزمه أن يلازمهم بالليل إلا بشرط أو عادة، قلت كعادة أهل البادية في إقرائهم السور ليلاً" (المغراوي: جامع جوامع الاختصار - ص 90).

وكان الأسبوع ومدة التعليم فيه تبدأ بشروق يوم السبت وتنتهي عصر يوم الخميس. ويوم الجمعة دائماً يوم راحة - قال الفقيه المالكي ابن أبي جمعة في كتابه: - جامع جوامع الاختصار -: "أما أيام التعليم فهي خمسة أيام: السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء وصبيحة الخميس، وطول يوم الجمعة عطلة للراحة، وبالإضافة إلى أيام عيد الفطر الثلاثة وأيام عيد الأضحى الخمسة وبعض أيام المناسبات العامة" (المغراوي: جامع جوامع الاختصار - ص 91).

وهناك رأي آخر في مسألة الوقت ساقه المرحوم حسن حسني عبد الوهاب في مقدمته لكتاب - آداب المعلمين - قائلاً: "أما أوقات التعليم - فيما مضى - فليس لدينا ما ينبئ على تعيين ابتدائها صباحاً، ولا وقت انتهائها مساءً، وغاية ما نعلمه في خصوصها ما ذكر الونشريسي في (المعيار - ج 8 ص 152): "وسئل أبو طيب عبد المنعم: هل يجلس المعلم من الصبح إلى المغرب، أو عند طلوع الشمس إلى الإسفار، فأجاب: أما وقت جلوس المعلم وقيامه، فبحسب العرف، وما تعاهده أهل التعليم في كل بلد" (آداب المعلمين - ابن سحنون - ص 46).

أما جدول الدراسة في الكتاب فقد حرص المربون على أن يكون وقت كتبهم في الألواح معلوماً ووقت تصويبها معلوماً وكذلك قراءة الأحزاب حتى ينضبط الحال ولا يختل النظام.

يقول الإمام القابسي محدداً خطة الدراسة: "إنما دراسة الصبيان أحزابهم

وعرضهم إياها على معلمهم في عشي يوم الأربعاء وغدو يوم الخميس إلى وقت الكتابة والتخاير إلى قبل إنفلاتهم نصف النهار، ثم يعودون بعد صلاة الظهر للكتاب، والخيار إلى صلاة العصر، ثم ينصرفون إلى يوم السبت ييكرن فيه إلى معلمهم، وهذا حسن نافع رفيق بالصبيان وبالمعلمين ولا شطط فيه" (التربية في الإسلام - ص 179).

ومن هذا النص استنتج الدكتور أحمد فؤاد الأهواني توزيع المواد الدراسية على النحو التالي:

- 1- يدرس الأطفال القرآن من أول النهار في وقت مبكر حتى الضحى
- 2- يتعلمون الكتابة من الضحى إلى الظهر.
- 3- ينصرف الأطفال إلى بيوتهم لتناول الغذاء ويعودون بعد صلاة الظهر.
- 4- تدرس بقية اليوم العلوم كالنحو والعربية والشعر والحساب إلى آخر النهار (الأهواني - ص 179).

ويلاحظ على هذه الخطة الاهتمام بتحفيظ القرآن الكريم و تعليم الكتابة، بدليل اختيار أحسن الأوقات، التي ترتفع فيها درجة النشاط العقلي، وتكون عادة في أول النهار، وتبدأ الراحة الأسبوعية بعد ظهر الخميس إلى نهاية يوم الجمعة. وتبدأ الدراسة مبكرة في الأسبوع التالي في صباح السبت، وقد أوصى القابسي بضرورة انصراف التلاميذ إلى منازلهم ظهرا لتناول الغذاء، على أن يعودوا في غير إبطاء إلى الكتاب بعد صلاة الظهر، وكان يعتبر هذه الفترة وقتا من أوقات الراحة بين فترتين دراسيتين في اليوم الواحد، واهتمام القابسي بأوقات الراحة يتفق مع مبادئ التربية الحديثة التي تعطي هذه الأوقات أهمية لأثرها القوي في تحديد النشاط.

كما توضح نصيحة شمس الدين الأنباري علة تقرير المربين لراحة الصبي خلال الدراسة عندما قال: "ألا يلجئ الصبي إلى التعليم دائما وإلا متسببا في موت قلبه و إبطال ذكائه...حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا". (عالم الفكر - دجنبر 1979).

وإلى مثل هذا أشار الإمام الغزالي في إحيائه وابن مسكويه في تهذيب الأخلاق.

وفي ضوء هذه الراحة الأسبوعية وما تحققه الألعاب في تنمية المهارات الحركية والفاعلية الجسمية نستطيع أن نفهم الحوار الذي أورده القاضي عياض في كتابه (المدارك-ج4 ص232). الدائر بين معتب بن أبي الأزهر وبين أبي القاسم عبد الله ابن محمد: "قال لي أبو القاسم ما حال صبيانكم في الكتاب؟ قلت: لهم ولع كثير في اللعب. فقال: إن لم يكونوا كذلك فعلق عليهم التماائم!! يريد أنه لا يكسر الأطفال عن اللعب إلا المرض".

المنهج التربوي في الكتاب

يعتبر موضوع المنهج التربوي من أهم مواضيع التربية، بل هو لب التربية وأساسها الذي تركز عليه. ولقد تناول كثير من المربين المسلمين في العصور المختلفة منهج تعليم الصبيان في الكتاتيب، واستطاعت كتاباتهم أن تحدد كثيرا من أبعاد هذا المنهج وأن تحدد المفهوم التربوي له.

وكان منهج تعليم الولدان في المرحلة الأولى من التعليم يستهدف قبل كل شيء تمكين تلاميذ تلك المرحلة من قراءة القرآن وحفظ بعض أجزاءه أو حفظه كاملا - ويحدد ابن خلدون السبب في ذلك بأن أهل الملة متفقون في القول بأن القرآن يجب أن يسبق كل شيء إلى قلوب التلاميذ ليرسخ في نفوسهم الإيمان

وعقائده كما أنهم متفقون في القول بأن ذلك مما يجب أن يتم في الصغر.

يقول ابن أبي زيد القيرواني في مقدمة رسالته: "واعلم أن أولى ما عني به الناصحون، ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى قلوب أولاد المسلمين ليرسخ فيها و تنبيههم على معالم الديانة، وحدود الشريعة ليراضوا عليها، وما عليهم أن يعتقدوه من الدين في قلوبهم وتعمل به جوارحهم، فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفى غضب الله، وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر" (الرسالة ص5).

ولاشك في أن أول مقررات تلك البرامج هو القرآن الكريم. فقد كانت العناية به جد شديدة-وكانوا يبدأون في إقراء الطفل للقرآن بجملته قراءة درج ثم يعمدون إلى تحفيظه إياه كله أو ما تيسر منه-وقد حث النبي ﷺ على تعلم القرآن وجعل ذلك عبادة تكسب ثواب الله ورضاه وتقواه عندما قال ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" (البخاري: كتاب فضائل القرآن-رقم 4639).

- وقول سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ [فاطر: 32]. قال عثمان: كل من تعلم القرآن وعلمه فهو ممن اصطفاه الله من بني آدم.

- ويقول الرسول ﷺ كذلك: "ما من رجل علم القرآن إلا توج أبواه يوم القيامة بتاج الملك وكسيا حلتين لم ير الناس مثلهما" (كنز العمال-ج1 ص540)، حديث ضعيف.

ويقول ﷺ أيضا: "من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فقد أوتي الحكم صبيا" (كنز العمال-ج 1 ص 582).

وإلى جانب دعوة النبي ﷺ إلى تعليم الصغار القرآن. كان تعليمهم الكتابة

والقراءة والعبادات والآداب العامة.

وقد قسم ابن سحنون المواد التي اشترط الفقهاء أن يعلمها المعلم للأطفال في الكتاب إلى قسمين:

- قسم إجباري: صوره بقوله "ينبغي له، أو يلزمه" وهو ما فرض تعليمه وجوباً كالقرآن الكريم مع إعرابه ورسمه وإتقان الهجاء والقراءة الحسنة.

- قسم اختياري صوره بقوله "ولابأس أن يعلمهم" وهي المواد التي استحسّن ابن سحنون تعليمها للصبيان في الكتاب مثل: الحساب والشعر وأخبار العرب والنحو والعربية ثم الخط الحسن.

قال ابن سحنون: "وينبغي له أن يعلمهم إعراب القرآن وذلك لازم له والشكل والهجاء والخط الحسن والقراءة الحسنة ولا بأس أن يعلمهم الشعر مما لا يكون فيه فحش..." (آداب المعلمين لسحنون - ص 102).

ويظهر أن هذه الطريقة كانت متبعة في أكثر أنحاء العالم الإسلامي ما عدا الأندلس حيث نرى أبا بكر بن العربي ينتقد هذه الطريقة بعد أن طاف في العالم الإسلامي وسجل انتقاده لتلك الطريقة في كتابه - العواصم من القواصم... فصار الطفل عندهم إذا عقل، فإن سلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله، فإذا حذقه نقلوه إلى الأدب فإذا نهض منه حفظوه الموطأ فإذا حفظه نقلوه إلى المدونة..."

وفي الفصل الذي عقده ابن خلدون في مقدمته بيان شاف لطريقة تعليم الأطفال عند المغاربة وعند الأندلسيين فقال: "اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم... وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبنى عليه ما يحصل

بعد من الملكات... " (ابن خلدون، المقدمة. ط4. ص: 537).

وبعد أن انتقد ابن خلدون طريقة الأندلسيين الممثلة في دعوة أبي بكر بن العربي صرح من جديد أنه يفضل طريقة المغاربة في تعليم أبنائهم لكونها الطريقة التي تلائم عقلية الطفل ويتقبلها مستواه الفكري.

أما بخصوص اهتمام المربين بالفنون الجميلة، فهو يبدو في عنايتهم بتدريس الخط الحسن. فقد كان لتعليم الخط قانون ومعلم له على انفراده كما تتعلم سائر الصنائع. وقد أعطى العرب الخط الجميل عناية فائقة خاصة عند كتابة القرآن الكريم.. قال علي كرم الله وجهه داعياً إلى حسن الخط "ألق دواتك وأطل جلفة قلمك وفرج بين السطور. وقرمط بين الحروف فذلك أجدر بصباحة الخط" (أحمد الهاشمي: المفرد العلم في رسم القلم-ص17). وقال أبو بكر الصولي: "من فضل حسن الخط أن يدعو الناظر إليه أن يقرأه وإن اشتمل على لفظ مردول ومعنى مجهول" (أدب الكتاب-ص41).

ويفهم من ذلك، أن بداية التعليم في البلاد الإسلامية، وهي المرحلة التي يطلق عليها اليوم "المرحلة الابتدائية"، كانت تقوم على أساس تعلم القرآن الذي يجب أن يسبق أي علم آخر إلى قلب المتعلم ليرسخ في نفسه الإيمان بعقيدته، ويكون هذا الأمر في الصغر، "و بهذا يتعلم الصبي نطق العريية في دقة، لأن القراءات القرآنية وإن اختلفت صورها، هي أفضل ما يقرأ في كل العالم الإسلامي، ويمد الذاكرة بجمل عربية جيدة الفصاحة، تهيب التلميذ لدراسة النحو التي ستجيء فيما بعد، فيتخذ من آيات القرآن المثل والشاهد". (ابن خلدون: المقدمة-ص: 539).

ولئن كانت الدول الإسلامية تتفق على اعتبار أن القرآن هو المنهاج الأول للتعليم فإن بعض هذه الدول أضاف إلى جانب تعليم القرآن الحديث الشريف

وعلوم الفقه، أو الخط والكتابة، أو الشعر والأدب واللغة، أو علوم الحساب، مما يشير إلى وجود تميز في أساليب التعليم، وهو ما أوضحه "ابن خلدون" في مقدمته عند حديثه عن مذاهب التعليم في البلاد الإسلامية، وهو يستعرض المنهاج التعليمي الذي ساد المشرق، ويقول في ذلك:

"وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما بلغنا. عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة، ولا يخلطون بتعليم الخط، بل لتعليم الخط عندهم قانون ويتعلمونه على انفراده، كما تتعلم سائر الصنائع، ولا يتداو لوئها في مكاتب الصبيان، وإذا كتبوا لهم على الألواح فبخط قاصر عن الإجادة، ومن أراد تعلم الخط، فعلى قدر ما يسمح له بعد ذلك من المهمة في طلبه وبيتيه من أجل معرفته". (المقدمة - ص 538).

وأما أهل المغرب: "فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارس بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه. لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب، إلى أن يحدق فيه أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة. وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب، في ولدانهم، إلى أن يجاوز واحد البلوغ إلى سن الشبيبة، وكذا في الكبر، إذا رجع مدارس القرآن بعد طائفة من عمره، فهم لذلك أقوم على رسم القرآن، وحفظه من سواهم". (ابن خلدون المقدمة - ص 538).

وأما أهل إفريقيا: "فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، ومدارسه قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها. إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه ووقوفهم على الولدان إياه ووقفهم على اختلاف رواياته

وقراءاته أكثر مما سواه، وعنايتهم بالخط تبعا لذلك". (ابن خلدون المقدمة- ص538).

تلك هي مناهج التعليم ومادته عند أهل المشرق و أهل المغرب والأفارقة من المسلمين- كما وصفها ابن خلدون- فماذا عن وصفه لمناهج التعليم ومادته في الأندلس؟

يقول ابن خلدون:

"وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم، جعلوه أصلا في التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب، والتراسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها، وتجويد الخط والكتاب. ولا تختص عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة، وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما، وبرز في الخط والكتاب، وتعلق بأذيال العلم على الجملة". (ابن خلدون المقدمة- ص538).

ويستدل من ذلك، أن التعليم في المرحلة الابتدائية في الأندلس، كان على درجة من التنظيم تفوق بقية الدول الإسلامية كالمغرب مثلا، حيث اقتصر المنهاج على القرآن فقط، بينما في الأندلس كانوا يولون التلاميذ عناية خاصة من حيث إعدادهم لتقبل العلم والمعرفة "أفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارس العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي"، فيما يؤخذ على الأندلسيين في استحداث هذا النهج أنهم "قصوروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارس القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها". (ابن خلدون المقدمة- ص539).

ويتطرق ابن خلدون في هذا المقام إلى ما ذهب إليه القاضي "أبو بكر بن العربي، في كتاب "رحلته" إلى طريقة غريبة في وجه التعليم، وأعاد في ذلك وأبدأ، وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم، كما هو مذهب أهل الأندلس، قال لأن الشعر ديوان العرب، ويدعو على تقديمه وتقديم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة، ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين، ثم ينتقل إلى درس القرآن، فإنه يتييسر عليه بهذه المقدمة (ابن خلدون المقدمة - ص 540).

وينقل ابن خلدون على لسان ابن عربي مبرراته بقوله "ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في (أول أمره)، يقرأ ما لا يفهم، وينصب في أمر غيره أهم ما عليه". ثم يضيف: "ثم ينظر في أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم الجدل، ثم الحديث وعلومه، ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علمان، إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك بجودة الفهم والنشاط". (ابن خلدون المقدمة - ص 540).

ونجد ابن خلدون يعقب على هذا المنهاج مثنيا عليه من حيث المبدأ "وهو لعمرى مذهب حسن"، ثم مبينا أسباب استبعاد تطبيقه "إلا أن العوائد لا تساعد عليه، وهي أملك بالأحوال. ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إثارة للتبرك والشواب، وخشية ما يعرض للولد من جنون الصبا من الآفاق والقواطع عن العلم فيفوت القرآن، لأنه ما دام في الحجر منقاداً للحكم، فإذا تجاوز البلوغ، وانحل من ربة القهر، فرما عصفت به رياح الشبية فألقته ساحل البطالة، فيعتمنون في زمان الحجر، وربقة الحكم، تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه" (ابن خلدون المقدمة - ص 538).

ثم يشترط ابن خلدون بأنه "لو حصل التيقن باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى مما أخذ به أهل

المغرب و المشرق" (ابن خلدون المقدمة - ص539).

أما فيما يتصل بتدريس الخط، فقد كان يمثل مادة مستقلة، بمعزل عن تعليم الأبجدية في البدء، وكان هناك مدرسون مختصون به يعلمون التلاميذ تجويده، وبينهم من يذهب إلى المدرسة لتعليم الخط بخاصة، فيتعلمون مبادئه، وقواعد رسم كل حرف مستقلا، ويتدربون عليه بكتابة النصوص من نماذج أمامهم.

وكانت المدارس في الأندلس تعلم التلاميذ منذ البدء كيفية القراءة والكتابة في وقت واحد، ولم يكونوا يتعلمون رسم الحروف مفردة، بل يسرون على الطريقة الجمالية ويتدرب التلاميذ على نسخ كلمات كاملة توضع أمامهم نموذجا.

ولئن كانت لهذه الطريقة بعض المساوئ في تعليم الخط، فإن ابن خلدون - حسب قوله - إذا أخذنا في الاعتبار مدارس الأندلس بخاصة، "كانوا يتدربون منذ البدء ويحيدون الخط في جملهم، على حين أن الذين يفكرون في أن يخصصوا بدرس مستقل فيما بعد يهملون كثيرا وبقون دون أن يتعلموا، بمعنى أن الأندلس إذا لم تخرج خطاطين ممتازين، فعامة تلاميذنا يكتبون خطأ جيدا، وربما كان هذا سببا في أن الخط الأندلسي احتفظ بطابعه القديم (ابن خلدون المقدمة - ص539).

وكان التلاميذ يستخدمون ألواحاً قوية من الخشب المصقول، يكتبون فوقها بأقوالهم بعد أن يملوها في الحبر، فإذا انتهى التدريب بلوها بالماء ومحوها، ثم عادوا يكتبون عليها ثانية من جديد، وكانت النصوص التي تستخدم في الكتابة في الأندلس من القرآن الكريم.

أما المنوعات التي يحفظها الطالب والتي كانت تشكل مادة الدراسة في التعليم الابتدائي، فمن أبرز الآيات القرآنية الكريمة، والنصوص الفقهية، وقواعد

النحو، ورسائل الأدب، وحفظ الشعر.

وبالرغم من أن منهج التعليم في الكتاتيب كان أقرب إلى ما يسمى اليوم منهج المواد الدراسية المنفصلة فإن ذلك المنهج حاول التخلص من عيوب منهج المواد المنفصلة و ذلك بمراعاته للفروق الفردية بين التلاميذ مستندين إلى قول النبي ﷺ: "أنزلوا الناس منازلهم" (رواه أبو داود في كتاب الأدب- برقم 4202) عن عائشة رضي الله عنها. ولما رواه مسلم في مقدمة صحيحه عن عبد الله ابن مسعود قال: "ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة" وعلى هذا الأساس نجد المربين المسلمين قد أدركوا تفاوت الأطفال في عقولهم وأن عليهم ألا يحاولوا صب الأطفال في قوالب واحدة. وأن عليهم كذلك أن يطوروا المنهج مادامت مصلحة الطفل ومصلحة المجتمع متفقة في هذا التطوير أو التغيير.

طرق التدريس في الكتاب

طريقة التدريس أداة من أدوات تحقيق الأهداف التربوية، وجزء من المنهاج في مفهومه الشامل، ويمكن تعريفها تربويا بأنها أيسر السبل للتعليم والتعلم. ففي أي منهج من مناهج الدراسة تصبح الطريقة جيدة متى أسفرت عن نجاح المعلم في عملية التدريس وتعلم التلاميذ بأيسر السبل وأكثرها اقتصادا.

ولقد اختلفت هذه الطرق باختلاف العلوم والمواد الدراسية كما اختلفت باختلاف مراحل النمو ونضج المتعلم ومدى استعدادة؛ فكان هناك طرق للحفظ والاستظهار، والفهم والتدبر.. كما أن هناك طرقا تناسب الأذكياء وتختلف عن تلك التي تناسب ضعاف العقول. ومجمل القول، إنه ليست هناك طريقة واحدة تصلح لجميع الأغراض وجميع مراحل النمو ومستويات التعليم ومن أهم الطرق التي استخدمت لتعليم الصبيان في الكتاتيب:

– طريقة الحفظ والاستظهار

أول ما يبدأ به المعلم تعليم الصبي، تحذيقه كتابة الحروف وقراءتها حتى يألفها، ثم يشرع في تحفيظه السور القصار من القرآن. ويرى ابن قتيبة "أن اهتمام العرب بالحفظ، يعود إلى ما قبل الإسلام بدليل أن العرب أميون، لا يقرءون ولا يكتبون إلا القليل منهم، فاعتمدوا على الذاكرة في حفظ أشعارهم، فلما جاء الإسلام، كان المسلمون يعتمدون على ذاكرتهم اعتمادهم على الكتابة وعرف العرب بالحفظ وقوة الذاكرة للمرانة المستمرة، والتمرن على الحفظ" (عيون الأخبار- ج 2 ص 130).

وكان الأطفال يتعلمون كتابة الآيات القرآنية على الألواح ليس فقط بقصد حفظها وإنما أيضا لغرض تعليم الطفل الكتابة والقراءة- فهو يبدأ في تعلم الكتابة برسم الحروف الهجائية مع حفظها حرفا حرفا بترتيبها المعروف.

ومن الواضح أن منهج الكتاب يقوم على مواد يجب حفظها فلا يعلم الصبيان إلا القرآن والكتابة والعربية.. وتلك علوم لفظية، لا بد أن تقرأ وتفهم وتستوعب، ومن هنا يبدو واضحا أن منهج الكتاب يغري بالحفظ-ولذلك كان اهتمام القابسي منصبا على اختيار أسلم الطرق للحفظ-ورأيه في الحفظ يتفق مع الآراء الحديثة في التربية، فهو يقول بأن أساليب الحفظ تقوم على التكرار والميل والفهم-يقول الأهواني "الطريقة في تعليم المنهج السابق لا بد أن تعتمد على الحفظ والاستظهار..." (التربية في الإسلام-ص184).

وقد استند علماء التربية المسلمون في تأييد هذا الاتجاه إلى حديث روي عن رسول الله ﷺ في حفظ القرآن واستذكاره وإدامة قراءته عندما قال: "تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصيا من الإبل في عقلها" (البخاري:

كتاب فضائل القرآن-رقم 5033). وقوله ﷺ أيضا: "إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت" (البخاري-برقم 5032). ويعلق القابسي على الحديث الأخير قائلا: "وقد بين في هذا الحديث كيفية المعاهدة التي يثبت بها حفظ القرآن ويقوى على الحفظ حتى لا يتلغثم فيه" (أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام- ص185).

وجاء في كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي (الجزء الأول-ص261) تحت عنوان "درس الأطفال" توجد قرابة مائتي مدرسة "كتاب" للأطفال الراغبين في تعليم القراءة في كل مدرسة قاعة كبيرة بمدرجات تستعمل كمقاعد للأطفال ولا يعلمهم المعلم القراءة والكتابة في كتاب بل في ألواح كبيرة يكتب عليها التلاميذ. ودرس كل يوم عبارة عن آيات من القرآن، فيختمون القرآن في سنتين أو ثلاث ثم يستأنفون ذلك عدة مرات إلى أن يحذقه الطفل جيدا ويحفظه عن ظهر قلب، يحصل على ذلك بعد سبع سنوات على أبعد تقدير وبعد ذلك يقوم المعلم بتعليم الأطفال شيئا من قواعد الكتابة..."

وعلى هذا الأساس فإن الطريقة المثلى للتعليم تبدأ بالحفظ ثم الفهم حتى يكون المتعلم جامعا بين الفهم والحفظ مع تكرار الدرس أكثر من مرة حتى يرسخ حفظه رسوخا يأمن معه التفلة، ولا يقتصر المتعلم على ذلك بل عليه أن يعرض ما يحفظه وفهمه على معلمه ليصحح له أخطائه ويوجهه.

والجدير بالذكر أن هذا الأسلوب قد حورب محاربة شديدة في فترة من الزمان من قبل علماء التربية المحدثين وأثاروا حوله ضجة كبرى واعتبروه أسلوبا غير فعال يسلب الإنسان شخصيته ويجعله إمعة لغيره - وقبض الله تعالى لهذا الأسلوب - في وقتنا الراهن - من يدافع عنه ويبرز أهميته كأسلوب فعال ومهم

في العملية التربوية وهو الدكتور عبد الغني عبود، في كتابه: "الفكر التربوي عند الغزالي" كما يبدو من رسالته أيها الولد: "إن تلميذ الأمس كان يهتم بالحفظ أولاً ثم الفهم ثانياً، أما تلاميذ اليوم فهم يبدؤون تعليمهم بالفهم فأصبحت النتيجة عدم الفهم والحفظ" (الفكر التربوي عند الغزالي - ص: 168).

والخلاصة إن الباحث يرى أنه ينبغي الاهتمام بأسلوب الحفظ وعدم إغفاله أو إهماله، وخاصة في المراحل الأولية بحيث يكون الفهم في مرحلة تالية للحفظ، ذلك أنه إذا فات المتعلم الحفظ في صغره فلا يقدر عليه في وقت كبره. أما الفهم فلا يكون في المراحل الأولية ولا يتأتى ذلك لكون المتعلم لا يستطيع التمييز بين المعارف المختلفة إلا بعد سن معين، لذا لزم الحفظ في السنوات الأولى. وهذا كما كان عليه سلف الأمة وإن خالف الطرق الحديثة التي ثبت فشلها في هذا الميدان. ومن ذلك يتضح أن الحفظ ضروري جداً في التربية قديماً وحديثاً.

الرواية المتواترة المحفوظة في الكتاب

كان تعليم القرآن الكريم شعاراً من شعارات التدين أخذ به المغاربة ودرجوا عليه في جميع مناطقهم وجعلوه أصل كل تعليم عندهم -والقرآن مطلوب الحفظ لفظاً ومعنى، بل إن فهم المعنى والأخذ به لا يكونان إلا عن طريق تلاوة الألفاظ أو استماعها ثم تدبرها والتذكر بها.

وقد أوجب الإسلام على كل مسلم أن يحفظ شيئاً من القرآن حتى تصح صلاته -وكانت العادة في مساجد المملكة إذا سلم الإمام من صلاة الصبح أو المغرب أن يشرعوا في قراءة الحزب الراتب جماعة لاعتقاد المغاربة أن قراءة القرآن في كل وقت ومكان يجلب البركة ويبعد الشياطين.

والولد الحافظ هدية الله لأبويه سيرحمهما الله به في الدنيا والآخرة، ولهذا

ظل حفظ القرآن بالمغرب هو رأس الواجبات التي يكلفها النشء في الكتاب والمساجد والمدارس العتيقة التي كان فيها المادة الرئيسية التي يتلقاها الطلاب فيها. ومن دواعي الأمل العريض في أيامنا هذه ما أقدم عليه أمير المؤمنين جلاله الملك محمد السادس حفظه الله بإصدار ظهير شريف رقم: 09-02-1. بتاريخ 15 ذي القعدة 1422هـ - 29 يناير 2002 بتنفيذ القانون رقم 01-13 في شأن التعليم العتيق الذي يستهدف الاحتفاظ بطابع هذا العلم وصفته التاريخية المتميزة وإبقائه حصنا للدين، يرتقي به الإسلام ويتحدد ويتسع نطاق العلم به في كل الربوع.

رواية قراءة نافع وطرقها

لا نعتقد أن نافعا بن عبد الرحمان يحتاج إلى التعريف به، فهو العلم الذي أجمعت الأمة على إمامته وسنية قراءته. قال عنه مالك: "إمام الناس في القراءة". وقال عنه أحمد: "إن أحب القراءة إليه قراءة أهل المدينة" (الذهبي: معرفة القراء-ص10).

واعتاد المصنفون في القراءة أن يبدأوا به وبقراءته. يقول الشاطبي في حزر الأمان:

وأما الكريم السر في الطيب نافع فذاك الذي اختار المدينة منزلا

فلقد اختار نافع المدينة فتقبلته وآوته، فظل إماما للجامع النبوي طيلة عقود عدة، فصلى خلفه الأئمة/واعتمدت قراءته بإجماع الأمة فرواها عنه الطلبة والجمهور وانتشرت في أصقاع العالم، وأخذ عنه أئمة كثيرون. ومالك ممن أخذ عنه.

هذا وركز المقرءون على رواية أربعة من تلاميذه وهم: إسماعيل بن جعفر -

إسحاق المسيي-قالون-وورش. وقبل أن نعرض لأشهر طرقهم وجب التذكير بمفهوم المصطلحات الآتية:

1- **القراءة:** تعني ما اتفق عليه جمهور الرواة عن أحد الأئمة السبعة أو العشرة.

2- **الرواية:** تعني ما نقله أحد مشاهير تلامذة الإمام عنه. مثل رواية ورش عن نافع.

3- **الطريق:** ما أسند إلى أحد كبار القراء عن الراوي المعتمد، مثل طريق أبي يعقوب الأزرق في رواية ورش بن سعيد في قراءة نافع.

رواية ورش:

هو أبو سعيد عثمان بن سعيد المصري المعروف بورش، رحل إلى المدينة وسمع من إمام نافع عدة ختمات و أقره على ما سمع منه. وأخذ عن ورش كثير من القراء ذكر منهم ابن الجزري عشرة . ومع تطور القراءات فقد انتهى الأمر في المغرب باعتماد قراءة نافع مثلما هو الشأن بالنسبة لمذهب عالم المدينة الإمام مالك في الفقه. وألفت حولها العديد من المؤلفات انطلاقاً من عهد أبي عمرو الداني وانتهاء بما نشاهده في أيامنا هذه من الكتابات النثرية والنظمية.

وجوب التمسك بالرسم العثماني:

إن قراء المغرب عامة لهم اليد البيضاء في إتقان الضبط والرسم، وقد بلغوا الغاية القصوى في الاعتناء بهما والإحاطة بقواعدهما إحاطة تامة حفظاً وفهماً، بحيث لا تشذ عنهم شاذة في ذلك اتفاقاً واختلافاً. يتنافسون في التنقيب عن مسائلهما، ويتباهون بفهم الأوزان للكلمات القرآنية، والزوائد والسواقط

والنقط الكبار والصغار ومدلولاتها ونحو ذلك، ويرفعون قيمة القارئ الحافظ بقدر إتقانه لكتابة كتاب الله كما وردت عن الصحابة، فالقرآن العظيم يحل من جميع النواحي ويجب أن يكتب كما كتبه الصحابة رضوان الله عليهم ، لأن كتابته ليست ككتابة الرسائل والجرائد والمؤلفات.

سئل مالك: "أرأيت من استكتب مصحفا أترى أن يكتب على ما أحدثه الناس من الهجاء اليوم؟ قال: لا أرى ذلك ولكنه يكتب على الكتابة الأولى: كتابة الوحي. "قال الداني معلقا على هذا: "ولا مخالف له-يعني مالك- في ذلك من علماء الأمة " (المقنع-ص10).

وفي المدخل لابن الحاج: "ويتعين عليه أن يترك ما أحدثه بعض الناس في هذا الزمان، وهو أن ينسخ المصحف على غير مرسوم المصحف الذي اجتمعت عليه الأمة، على ما وجد به بخط عثمان بن عفان رضي الله عنه في عهده" ويقول مكِّي ابن أبي طالب: "وهذا الذي يخالف الخط لا تجوز القراءة به اليوم لمخالفة المصحف وهو المنهي عنه" (الإبانة عن معاني القراءة- ص36).

إن عناية المسلمين بمصاحف عثمان كانت بالغة ولعل من أبرز وجوه تلك العناية تتبعهم طريقة رسم الكلمات في تلك المصاحف ووصفها بدقة متناهية، لاسيما ما رسم منها على نحو لا يتطابق مع صورة النطق، وهذا الوصف الدقيق هو الذي أفرز لنا ما يسمى بعلم الرسم العثماني الذي أضحى علما مستقلا، له مناهجه وخصائصه التي انفرد بها عن غيره من العلوم، وخص له العلماء تأليف مثل: "المقنع" للإمام الداني...

وتجدر الإشارة إلى أن المؤلفين في رسم القرآن أقاموا طرائقهم في التأليف على منهجين:

1- منهج يقوم على جمع الأمثلة المتشابهة في الموضوع الواحد في فصل معين، "كالمقنع في معرفة مرسوم أهل مصاحف الأمصار" لأبي عمرو الداني.

2- منهج يقوم على تتبع الكلمات التي رسمت بطريقة لا تطابق النطق، ويتم ذكرها حسب ورودها في السور. وأشهر كتب هذا الاتجاه كتاب: "التنزيل في هجاء المصاحف" لأبي داود سليمان بن نجاح ت 496 هـ.

كما قيض الله لهذا العلم في المغرب أئمة من فحول العلماء القراء اعتنوا به غاية الاعتناء حيث نقلوا كيفية كتب القرآن في المصاحف العثمانية، وجمعهم ذلك في مصنفات بديعة مثل: "عقيلة الأتراب" للشاطي، و"مورد الظمان" للخراز... وصارت هذه التأليف بمثابة أصول يرجع إليها خصوصا "منظومة الخراز" لاختصارها ولاحتوائها على في الرسم والضبط باعتبار قراءة نافع فقط.

ويعد الحافظ المقرئ القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن بري التازي بمنظومته الشهيرة "الدرر اللوامع في أصل مقرا نافع". من أهم القراء المغاربة الذين عملوا على إرساء قواعد هذه القراءة. كما نالت منظومته عناية كبيرة من لدن القراء عامة، ولا أدل على ذلك من أن الشروح التي وضعت عليها تزيد على الثلاثين. والمقرئ محمد بن أبي جمعة الهبطي ينسب إليه وقف القرآن الكريم المعمول به في المغرب. والذي يقول عنه العلامة عبد الواحد المارغني ما نصه: "اعلم أن أوقاف الهبطي رضي الله عنه كلها مرضية موافقة جارية على قواعد فن القراءات ووقوفه وما تقتضيه العربية وأصولها" (رسالة المارغني ضمن النجوم الطوالع-192).

ويحظى الحافظ بالتشجيع من لدن أفراد المجتمع الذي يحله ويقدره، كما يتطوع المحسنون بأوقاف من ممتلكاتهم على الخزاين من القراء. تشجيعا على المضي في العناية بالقراءات القرآنية ثم ما يخص به أولو الأمر الحفظة من الإكرام

والتوقير، فالسلطان الحسن الأول رحمه الله يتزل على سيدي الزوين في مدرسته تشجيعاً منه لما يقوم به من جهود في خدمة القراءات القرآنية "الأعلام" للمراكشي- ج 7 ص 108. ودرج على هذه السنة كل من المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ ومحمد الخامس والحسن الثاني رحمهم الله أجمعين.

وسار في ركابهم الملك سيدي محمد السادس -حفظه الله- الذي ما فتئ يولي عنايته وتشجيعه للقرآن الكريم وعلومه، بطبعه المصحف الشريف على رواية ورش عن نافع من طريق الأزرق، وهو بهذه الأعمال وغيرها كثير يحرص في أن يستمر المغرب منار إشعاع للقرآن وعلومه بما فيها علم القراءات الذي اشتهر أمره على يد القراء المغاربة، هذا فضلاً عن التشجيعات التي تقدمها وزارة الأوقاف إلى طلبة المدارس العتيقة عموماً.

تضايأ تربوية في برامج وأنصبة الكتاتيب القرآنية

إبراهيم الوائ

أستاذ بكلية الشريعة بأكاير

وعضو المجلس العلمي المحلي بها

الحمد لله بجميع محامده، والصلاة والسلام على عبده ورسوله ومصطفاه وعلى آله وصحابته ومن والاه.

أما بعد، فإن الله تعالى أنعم على سيدنا محمد ﷺ بالمواهب العظام، ومن أجلها نعمة الإيمان والإسلام والإرسال له بالقرآن ذي الذكر والبيان، ليفرق به بين الحق والباطل والحلال والحرام، وليكون شفاء لما في الصدور، وليجعل منه معجزته العظمى التي يتحدى بها كل معارض وجاحد، على مر العصور والدهور، ومنبعا للعلم والعرفان والهدى والنور.

وخطب سبحانه بهذا القرآن أوليائه وأصفياه ففهموه، وبين لهم مراده فيه فعلموه، وجعلهم أمناء في الأرض على كتابه المحفوظ بحفظه، والميسر للذكر لكل مستذكر ومعتبر، فقال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾¹، وقال: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾².

روى القرطبي في تفسيره أن أحدا من أهل الكتاب تفقه في الإسلام وامتنع عن الدخول فيه، ثم بدا له أن يختبر وثوق الأديان السماوية الثلاثة من خلال كُتُبها، وكان ذا خط جميل فاستغله في استنساخ التوراة والإنجيل والقرآن مع إدخاله زيادات وتحريفات فيها، فراجت له نسخ التوراة والإنجيل على أتباعها،

1- سورة الحجر، الآية:9.

2- سورة القمر، الآية:17.

بينما اكتشف الوراقون للوهلة الأولى ما أحدثه في القرآن، ولم يرج عليهم فعله وتزويره، فتبين له بما لا يدع مجالاً للشك بأن القرآن كتاب محفوظ، فكان من لطف الله بهذا الكتابي أن هداه للإيمان والإسلام³.

وإذا عدنا إلى تتبع أثر القرآن الكريم في الحضارة الإسلامية بكافة مكوناتها الاجتماعية والفكرية والثقافية والاقتصادية والسياسية وغيرها، فإننا سنجد هذا الأثر قد طبع هذه المجالات كلها بطابعه المعهود والتميز، وعلى رأس ذلك مجال التربية والتعليم عامة، وتربية الأطفال خاصة.

إن الدين الإسلامي هو الدين السماوي الذي انفرد من بين سائر الأديان بتقديم العلم وتقريب أهله، والتنويه بفضله، والأمر بتحصيله، وجعله قبل القول والعمل، لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾⁴، وقوله: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾⁵ وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁶.

واعتنى الإسلام بوضع خطة ومنهاج للتربية والتعليم وتعميمهما والإلزام بهما، وجعل طلب العلم فريضة على كل نفس، واعتبره مما لا يُستغنى عنه في معرفة الضروري من الدين، وحذر من كتمان العلم وتوعد المقصرين في إنفاقه ونشره بين الناس، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُهْمِصِينَ فِيهَا تُبَايَعُونَ فِي النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁷، وقوله ﷺ: "من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله يوم القيامة

3- الجامع لأحكام القرآن، (10:10).

4- سورة محمد، الآية:19.

5- سورة المجادلة، الآية:11.

6- سورة الزمر، الآية:9.

7- سورة البقرة، الآيتان:159-160.

بلجام من نار"⁸. ويكفي دلالة على حرص الإسلام وعنايته بالعلم والتعلم أنه به بدأ، إذ كان أول تنزل للقرآن بصريح الأمر بالقراءة: (اقرأ).

وكان حدث بدء تلقي الوحي هو المعين الأول الذي منه استمدت خطة ومنهاج التربية والتعليم في الإسلام، ذلك أن الرسول ﷺ كان قبل البعثة يتحرر من صوارفه وشواغله اليومية من حين لآخر ويتوجه إلى الخلوة والتأمل بغار حراء، وبينما هو في لحظة صفاء ذهني، واستعداد روحي، إذا بالملك جبريل يفاجئه بالحضور في غار حراء، ويدخل معه في حوار تلقيني بادئا إياه بقوله: اقرأ، فرد الرسول ﷺ: ما أنا بقارئ، وفي رواية، كيف أقرأ؟ وفي أخرى، ماذا أقرأ؟ وتكرر الأمر بالقراءة ثلاثا، وتكررت الأجوبة بالنفي ثلاثا، ويُن كل سؤال وجواب يأخذ الملك النبي ﷺ ويضمه ضمًا شديداً، ثم يرسله ويوجه إليه الأمر بالقراءة.

وفي المرة الأخيرة يلقيه الدرس النموذجي الأول في الإسلام الذي تضمن خمس آيات من مطلع سورة العلق، وهي قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾.

وفارق المعلم المتعلم بعد أن وعى عنه ما قال، وتأسست العلاقة بينهما بما حدث لتدوم مدة سنوات الوحي الثلاثة والعشرين، وليستمر أثرها العلمي والعملية في الأمة بعد ذلك جيلا بعد جيل، حتى أينعت حضارة الإسلام العالمية، وألقت بظلالها الوارفة على العالم بأسره، رافعة راية العلم والمعرفة المقرونة بالأخلاق والمؤسسة على المبادئ السامية للحنيفية السمحة، والتي بها يكون الإنسان مستحقا للتكريم والاستخلاف..

8- صحيح الجامع، ج 6285.

وإذا كان الرسول ﷺ قد أدبه ربه فأحسن تأديبه، حتى أثنى عليه بقوله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾⁹، وجعل منه الإسوة الحسنة للأمم، فإن الاقتداء والاهتداء في مجال التربية والتعليم سيتم عبر هذا التأسيس المستمد في كنهه وأصالته من الوحي الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد انبنى على نصوص توجيهية ضابطة للعملية التربوية، ذلك أن عملية التلقي قد خضعت في جوهرها للتهذيب الأولي، لما كان النبي ﷺ حديث عهد بتنزلات الوحي إذ كان ينازع جبريل القراءة، ولا يصبر حتى يتمها، تحذوه الرغبة في المسارعة إلى الحفظ، وبقي على ذلك حتى تلقى أمرا توجيهيا يدعوه للإنصات إلى أن يُقضى إليه الوحي، وذلك قوله تعالى: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقض إليك وحيه وقل رب زدني علما﴾¹⁰. ولم يقف التوجيه عند هذا الحد، وإنما امتد إلى تأسيس سند ومنهج التلقي بالمشافهة.

أخرج الإمام البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ [القيامة: 16]، قال: "كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله ﷺ يحركهما، وقال سعيد: أنا أحركهما كما كان ابن عباس يحركهما فحرك شفتيه، فأنزل الله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه﴾. قال: جمعه لك في صدرك وتقرأه ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ قال: فاستمع له وأنصت ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ ثم إن علينا أن تقرأه"¹¹.

9 - سورة القلم، الآية: 4.

10 - سورة طه، الآية: 114.

11 - فتح الباري، ج. 1 : 29.

فكان الرسول ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه، وأقرأه لأصحابه كما تلقاه عن جبريل.

واتخذ النبي ﷺ في بداية الأمر بمكة من بيت النبوة مدرسة لتعليم أصحابه القرآن الكريم علما وعملا، ولما تزايد عددهم انتقل بهم إلى دار الأرقم ابن الأرقم فكانت هي المؤسسة الإسلامية الثانية بعد بيت النبوة التي أخذت صفة المدرسة والمنتدى والمقر الذي يأوي إليه من هداه الله للإيمان والإسلام.

وعلى هدي الرسول ﷺ درج الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم، فبعد تلقيهم القرآن غضا طريا من رسول الله ﷺ دأبوا على تلقيه لبعضهم بعضا ومدارسته بينهم، ومراجعة النبي ﷺ عند الاختلاف في حرف من حروفه، كما احتفظ كل من أسلم منهم لنفسه بقسط من القرآن في بيته للحفظ والتلاوة والتعاهد.

ومنهم من بنى مسجدا في فناء داره يقرأ فيه القرآن كما فعل أبو بكر الصديق، وفي قصة إسلام عمر بن الخطاب ما يدل على أنه وجد مطلع سورة طه مكتوبا في بيت أخته فتناوله وقرأه فكان سبب إسلامه.

ولما بايع الأنصار الرسول ﷺ بيعة العقبة أرسل معهم الصحابي الجليل مصعب بن عمير¹² ليعلمهم القرآن، ويؤمهم في الصلاة، تمهيدا لنشر الدين، وإتمام أمر الهجرة النبوية إلى دار الإسلام.

ثم بعد ذلك كان الرجل إذا هاجر دفعه الرسول ﷺ لأحد الحفاظ من الصحابة ليعلمه القرآن، وكل ذلك بمراعاة أحوال المتلقين وعدم تكليفهم ما لا

12 - أبو عبيد الله مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف العبدي، أحد السابقين إلى الإسلام، هاجر إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة، ثم هاجر إلى المدينة، وشهد بدرا ثم أحدا التي استشهد فيها ومعه اللواء (الإصابة 3: 421) ط.1، 1328هـ).

يطبقون، وأخذهم بالعلم والعمل جميعا.

قال أبو عبد الرحمن السلمي: "حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا"¹³.

ومن أجل ذلك كانوا يمحكون مدة في حفظ السورة.

وهذا يدل على العناية بالكيف قبل الكم، وباعتماد النظر والتطبيق معا في آن واحد، فتعلمهم يجمع بين الحفظ والفهم والتدبر وتحصيل العلم المفضي للعمل بذلك العلم، ثم تبليغه لمن يبلغه.. وهي أمور من قبيل مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ولا يعني هذا أن حفاظ كتاب الله وقراءه من الصحابة كانوا قلة، وإنما كانوا يعدون بالمئات، فقد قتل منهم في بئر معونة على عهد الرسول ﷺ نحو سبعين رجلا يقال لهم القراء، وقتل بعده في يوم اليمامة مثل ذلك العدد¹⁴.

ومعلوم أن النبي ﷺ لم يترك شيئا يتلى سوى القرآن، وسئل ابن أبي أوفى هل أوصى النبي ﷺ فقال: لا، فقلت: كيف كتب على الناس الوصية، أمروا بها ولم يوص؟ قال: أوصى بكتاب الله¹⁵.

وهذه الوصية النبوية بكتاب الله تلقتها الأمة بالعناية والتقدير، فسارعت إلى تأسيس الكتاتيب القرآنية لتعليم الناشئة، واتخذت لذلك أجود المربين والمعلمين الذين يحذوهم الأمل والرجاء في نيل درجة الخيرية والأفضلية التي نص عليها

13 - مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية: 35.

14 - فتح الباري، 48/9.

15 - نفسه، 67/9.

قوله ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"¹⁶، ومن أجل هذا الحديث مكث التابعي الجليل أبو عبد الرحمن السلمي يدرس القرآن بالكوفة أربعين سنة، باعتبار أنه هو الذي يروي الحديث الآنف الذكر عن شيخه عثمان بن عفان عن النبي ﷺ، ثم توالى هذه السنة الحميدة مصاحبة لفتوح البلدان، ومواكبة لانتشار الإسلام، حتى صارت عنوان سلمه ومسالمته، وسنة متبعة في الأمم المنضوية تحت رايته.

وإذا كان الموضوع الذي اخترته ينحصر في قضايا تربوية في برامج وأنصبة الكتابات، فلا بد من تعريف التربية في علاقتها بالتدريس بالكتاب وبرامجه وأنصبة والمدرس وعلاقته بالمتعلمين، مع إعطاء اقتراحات ورؤى في هذا الصدد.

مفهوم التربية:

التربية مشتقة من فعل رَبَّ الشيء ورَبَّه إذا أصلحه وأحسن القيام عليه، ووليه حتى يفارق الطفولة، كان ابنه أو لم يكن¹⁷.

قال الراغب: الرَّبُّ في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام، ومنه فلان يَرْبُ العلم وَيَرْبُ نفسه بالعلم¹⁸، أي يعلمه للناس ويأخذ نفسه بالعمل بعلمه.

وفي المعجم الوسيط: رباه بمعنى غذاه ونشأه، ونمى قواه الجسدية والعقلية والخلقية.

وفي العصر الراهن أصبحت التربية علماً له قواعده وأصوله ومؤسساته التي

16- فتح الباري، (9: 74 / ج. 5027).

17- لسان العرب، مادة رب.

18- معجم مفردات القرآن، مادة رب.

تتم بتنشيط البحث فيه، والقيام بالتطبيقات والتجارب، كما أصبحت تتحدد فيه الآراء وتتنظم فيه طرق التدريس، وتقنن تقنيها يضمن لها الشيوخ والذيوخ، وذلك لما عرفه ميدان التربية والتعليم من مكانة لدى الأمم والشعوب إذ صار مقياسا لتقدمها المادي ورفيها الاجتماعي، وينظر للأمم في هذا المجال بما لها من نظام تربوي متطور، وبما تحرص عليه من العدل والإنصاف بين كافة أفراد مجتمعيها في توفير حق التربية والتعليم للجميع.

ودرج علماء التربية المعاصرون إلى تقسيمها إلى:

تربية بمعناها العام: وهي عبارة عن المؤثرات المختلفة التي توجه وتسيطر على حياة الفرد، علما بأن هدف التربية هو إكساب مهارات وكفايات للمربي تساعد على التغلب على الصعاب التي تواجهه في الحياة وتمكنه من الاكتمال التدريجي لوظيفة أو لمجموعة من الوظائف ينشئ عليها الآباء أبناءهم.

وتربية بمعناها الخاص: ويقصد بها ما يتعلق بالتربية كمادة دراسية وهو ما يعبر عنه بالبيداغوجيا، وكلا المدلولين يستهدف في جوهره خلق عنصر التكيف لدى الأفراد مع المحيط الخارجي، مجازة للفطرة والميولات والدوافع الداخلية دون ما إكراه أو إشعار بالتقييد، لأن التربية بمفهومها الحديث تُعنى أول ما تُعنى بمراعاة أحوال الإنسان ودوافعه النفسية، دونما إهمال للسعي في خلق وسط وبيئة مطهرة تساعد على إبراز المواهب وإبداء الرغبات الممكنة من الوصول إلى تحقيق الأمر المطلوب.

وهنا يأتي دور المؤسسة التربوية سواء كانت كتابا أو مدرسة، فهي المسؤولة عن خلق الجو الملائم للطفل كي يتكيف أحسن، وهي التي تقوم بعملية التوفيق بين المحفزات الداخلية والمعوقات الخارجية.

التدريس بالكتاب

تعتبر هذه المرحلة من التعليم الأولي هي بداية انطلاق الطفل من الأسرة نحو المجتمع، لتلقي التكوين التربوي الذي يُعطى في شكل جماعي يُخصص له فضاءه المعهود المعروف في بيئتنا الأصيلة بالكتاب، والذي تتم فيه عملية إقراء القرآن للصغار وتربيتهم التبرية الحسّية والفكرية والأخلاقية بما يطابق المتطلبات والخصوصيات المجتمعية والحضارية الهادفة إلى تحصين الأجيال الصاعدة في دينها وعقيدها، وجعلها تستمد من الجذور والينابيع الصافية للأمة، وتتطلع بكل جد ونشاط إلى الجمع بين ثقافتها المتمكنة الأصيلة والحرص على استيعاب ثقافة العصر وعلومه المتجددة.

وقد درجت الأمة المغربية عبر تاريخها العلمي الحافل على تأديب أبنائها وتكوينهم التكوين العلمي الرصين، وبذل الآباء والعلماء وأولو الأمر الجهد الكبير في تمكين أبنائهم من اكتساب الخلق الرفيع والثقافة العلمية الغزيرة، ويسروا لهم سبل التعليم والتنشئة على مبادئ الإسلام وقيمه، وأسسوا من أجل ذلك الكتابات والمدارس والمعاهد، وانتقوا لها أجود أهل العلم المناسبين لكل مرحلة، الذين يتشرب منهم النشء ويتأثر بهم في كافة المناحي الإيجابية البارزة في علمهم وسلوكهم ومداركهم وتفكيرهم ورؤيتهم للأمور ونظرتهم للحياة بكافة أشكالها وأنواعها..

وقد كان المغاربة قديما وحديثا واعين بالدور الذي تؤديه الكتابات القرآنية لذلك وفروها بكثرة لناشئتهم في المدن والقرى والمداشر، فحيثما حللت وارتحلت إلا وتجد هذه المؤسسات التربوية التعليمية تؤدي دورها تحت رعاية الآباء وإشرافهم، وهم الذين يختارون لها المعلمين الجيدين في علمهم وسلوكهم وأخلاقهم والناصحين العارفين بآداب التدريس وطرقه المراعية لقدرات الصغار وطاقاتهم..¹⁹

19 - الدراسات القرآنية بالمغرب لصاحب هذا المقال، ص: 17/ ط.1 النجاح الجديدة 1999.

برنامج الكتاب

يقصد بالبرنامج مجموعة الأنشطة المعدة مسبقا من أجل الاستجابة للغايات والمقاصد التربوية المراد تحقيقها، وهو على نوعين: برنامج قبلي، وبرنامج ظرفي عملي، ويخضع البرنامج في وضعه للتكيف الزمني ولمراعاة مميزات التخصصات وللاتساع والتضييق، إلى أن يطلق مفهومه على برنامج درس واحد، فضلا عن إطلاقه بمعناه الواسع على برامج سلك تعليمي معين²⁰.

وبما أن الكتاب يعد مؤسسة تربوية عريقة في تاريخ المجتمعات الإسلامية عامة، والمجتمع المغربي منها خاصة، فإنها تسير وفق نظام تربوي دقيق ومحكم، وتحظى برعاية وعناية خاصة من قبل الجميع لا من حيث وجودها وموقعها بجانب المساجد، أو بداخلها، أو هي المساجد عيُنُها في ما تقوم به من دور تربوي وتنقيفي في الأوساط والبيئات المختلفة.

وهذا الحرم الآمن الذي تتوفر عليه الكتابات، يمكنها من الاستفادة من عدة مزايا، منها القرب من الدور والمنازل مراعاة لروادها الصغار، ومنها ارتباطها بالمسجد في الكثير من نظامه وبرامجه، وكل هذه الإيجابيات تمكن الأطفال من الاندماج والمخالطة، والتكيف مع المحيط الاجتماعي الذي يُنشؤون فيه، هذا فضلا عن كون المسجد فضاء عمليا لمزاولة الصلوات بكافة أنواعها والقراءة والأدعية والأذكار والأمداح النبوية وغيرها، وهو من جهة أخرى يمثل برنامجا موازيا وإغنائيا لنشاط الكتاب.

وإذا عدنا نستقصي برامج الكتابات في إطارها التقليدي، فإننا سنقف على برنامج مسطر، وتصور محدد وشامل، للعملية التربوية المناطة بهذه المؤسسات،

20- معجم علوم التربية، ص: 274 وما بعدها بتصرف/ ط.1، النجاح الجديدة 1994.

بما في ذلك تنظيم العلاقة بالوسط المحتضن لها والتجاوب معه ومراعاة حاجياته، وتبادل التأثير والتأثير معه، فهي تقوم بتحديد متطلبات القبول المناسب مع الاستعداد للتلقي بالنسبة للصغير، وتخضع لجدول دراسي، واستعمال زمني يلزم المدرس والمتعلمين بأن يجلسوا مرتين في اليوم من كل أسبوع ما عدا يومي الخميس والجمعة، وفي بعض الكتابات تتم المراجعة صبيحة يوم الخميس، وتستأنف الدراسة مساء يوم الجمعة وذلك بحسب العوائد والأحوال.

كما يخضع الكتاب لجدول تنظيمي للعطل السنوية المرتبطة بالمناسبات والأعياد الدينية، ويقوم برسم الأهداف التربوية المراد تحقيقها حالا واستقبالا في كل مرحلة من المراحل المسطرة في برنامجه العام والخاص، ويرصد الوسائل التربوية الكفيلة بإنجاز هذا البرنامج ويحرص أشد ما يكون الحرص على عملية التقويم الجزئية والكلية، ضمانا للنتائج وتحقيقا للتحصيل المستهدف بالأساس في هذه الكتابات وهو حفظ كتاب الله عز وجل.

أنصبة التدريس بالكتاب

يطلق النصاب في اللغة على الأصل والمرجع، كما يطلق على القدر الذي تجب فيه الزكاة وهو مشتق من النصيب وهو الحظ من كل شيء، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾²¹، ويقصد بنصاب التدريس القدر المخصص من المادة للدرس، فالمدرس الماهر إما أن يضع نصب عينيه ما لا يخفى عليه من مقدار الدرس فيقف عنده، وإما أن توضع علامات معروفة لدى المدرسين عندها ينتهي كل نصاب من الحصة، ليس بالضرورة أن تكون هي الأبواب والفصول والمباحث.

21- الأعراف:37.

وقد تأملت أنصبة التدريس بالكتاب - باعتبارها الخطوة العملية لتنفيذ البرنامج الكلي للكتاب بصورة تدريجية - حسب ما هو جار به العمل في غالب مناطق المغرب مع بعض الفروق النسبية التي قد توجد في مناطق دون أخرى، فتبين لي أنها تخضع من البداية إلى النهاية للمراحل الآتية:

المرحلة التمهيديّة: وتبدأ بمجيء أحد أولياء التلميذ مصاحباً له وحاملاً هدية للمعلم، وربما للتلاميذ أيضاً، كما أنه قد يأتي معه بأدواته وهي اللوح الخشبي والقلم والدواة، ويستقبله المدرس استقبالا رقيقا ورحيما في بداية أمره، حتى يستأنس بجو الكتاب، لكنه يناوله اللوح على أي حال بداية كباقي أقرانه الصغار، المحيطين به والمتوددين له بنظراتهم وابتساماتهم يأمل كل واحد منهم أن يساعده ويقدم له ما يحتاجه وذلك في جو مفعم بالفطرة والبراءة المعهودة في الصغار، ثم يشرع المدرس بعد ذهاب الولي في القيام بالواجب، وأول ما يقوم به كتابة البسملة والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه.

1- **الحروف الهجائية:** ويتلقاها الصغير بالتدريج إلى أن يستوعبها كاملة ويتعرف على هيئة كل حرف منها حتى إذا رآه منفصلا لوحده سهل عليه أن ينطق به.

2- **إشراك الحروف الهجائية من خلال سورة الفاتحة،** ويكون هذا الإشراك أيضا تدريجيا بحيث تكتب في لوح التلميذ الخشبي ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ويطلب من الطفل في هذه المرحلة التعرف على الحروف الهجائية مشتركة مع بعضها، وذلك بنطق كل حرف وتمييزه على حدة، وهذه تسمى عندهم بمرحلة: (الحمد).

3- **وضع الشكّلات على الحروف،** وتطبيقاته تكون من المعوذتين، والغرض من هذه المرحلة النطق بالحرف مشكولا، مع معرفة نوعية شكلته هل

الشدة؟ أم المدّة؟ أم الإمالة؟ أم الحركات الإعرابية الأربع؟ أم الألف المحذوفة؟ وكل هذا في إطار الرسم القرآني، مع تزويد التلميذ بجدول في أسفل اللوح يربط الحركات الإعرابية بما يناسبها من الحروف، كمناسبة الفتح للألف والضم للواو والكسر للياء ...

4- **التهجي**: وهو نطق الكلمة حرفاً حرفاً ثم التلظظ بها كاملة، وهذه المرحلة تكون مفضية بالتلميذ إلى التمكن من القدرة على التهجي والقراءة لوحده، حتى إذا دخل في المرحلة الموالية وكان أمام لوحه فإنه يستطيع الاعتماد على نفسه في قراءة ما يكتب له أو يشرع في محاكاة كتابته بنفسه، عن طريق ما يسمى **بالتحنّاش**، وهو تسطير اللوح بمؤخرة القلم أو بقلم الرصاص ويطلب من التلميذ ملؤه بالصمخ وهو المادة السائلة الذي تكتب بها الألواح، علماً بأن التحنّاش هو عملية أولية تتطور إلى إتقان الكتابة وإلى استملاء التلميذ من المدرس نصف لوحه في المستقبل.

5- **إضافات الدعم والتقوية المواكبة للمرحلة التمهيدية**: وتتضمن ما يناسب هذه المرحلة من تحفيظ أركان التوحيد، وأركان الإسلام، وعدد ركعات الصلاة المفروضة، وتمييز الجهرى منها من السري، والتشهد، ودعاء صلاة الجنّازة، وسؤال القبر، وغيرها من الأذكار والأدعية والتوسلات والمنظومات، وهي التي تتطور فيما بعد لتشمل ما يعرف بالأنصاف الضابطة لحفظ القرآن رسماً وأداءً، وحفظ المتون التدريجي الذي يواكب مراحل تقدم التلميذ في إتقان حفظ القرآن.

وتنتهي المرحلة التمهيدية ببدء الحزب الستين من القرآن الكريم، ولا يعرف التلميذ ذلك تحديداً، وإنما يتوقعه إلى أن يفاجأ به في إحدى الصبيحات، ويكون ذلك إعلاناً لمرحلة جديدة ونهاية لنصاب تمهيدي يدخل بعده الطفل في المرحلة

الموالية، وهي المرحلة الابتدائية الأولى.

المرحلة الابتدائية: ويشرع فيها بعد إقامة حفل تكريمي للصغير وزملائه، وضيافة المدرس بالبيت أو الإتيان له بطعام مناسب للفرح الحاصل للأسرة المتجاوبة مع الجهود المبذولة، ونقود كذلك، وهي عادة عريقة في نظام التربية والتعليم الإسلامي، ذلك أن إكرام المعلم أداء لقسط مما يجب له ورفع من قيمة ما يقوم به من تحصين الصغار بكتاب الله الذي يرجي لهم خيره وبركته.

وفي هذا الصدد المتعلق بإكرام المدرس ذكر **صاحب معالم الإيمان** أن عبد الله بن غانم (ت. 190 هـ) تلميذ الإمام مالك دخل عليه ولده من الكتاب فسأله عن سورتها، فقال: حولني المعلم من سورة الحمد، فقال: اقرأها، فقرأها، فقال: تهجها، فتهجها، فقال: ارفع ذلك المقعد، فرفعه، فإذا تحته دنانير، دون العشرين وفوق العشرة، فقال له: ارفعها لمعلمك، فرفعها لمعلمه، فأنكرها، وحملها إلى أبيه عبد الله بن غانم فقال له عبد الله - كالمعتذر -: لم يحضرنى غيرها يا معلم، أتدري ما علمته؟ كل حرف منها خير من الدنيا وما فيها.

قال المعلق على هذه القصة وهو ابن ناجي (ت 839 هـ) شارح الرسالة لابن أبي زيد القيرواني: "وهكذا كان الناس يبذلون ما يفنى، وهكذا كان المؤدبون أيضاً في تعليمهم، واليوم ربما يصل الولد إلى سور الرحمن ولا يأخذ المِثْلَة - ما يتمتع به المحفظ - فضيَّعوا في حقوق التعليم فضيَّع الناس في حقوقهم"²².

وهذه النازلة سجلها التاريخ للأجيال، أولياء وتلاميذ ومربين، ليقدِّروا حق تعليم العلم عامة وتعليم القرآن خاصة، لأنه كلام الله المنزل، الذي جاء لكل حرف منه عشر حسنات، ولا شك أن هذه الحسنات تكون ذخراً للإنسان في

22 - معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، لأبي زيد الدباغ (1: 305-306) ط. 2 المكتبة العتيقة تونس 1413 - 1993.

دينه ودنياه وأخراه، وبذلك فهي خير من الدنيا وما فيها لما رتب الله عليها من أجر وثواب.

1 - سورة الأعلى: أو الحزب (سبح)²³، وهذه بداية المرحلة الابتدائية الأولى في الكتاب، التي تنتهي في عرف الأنصبة المغربية بالمرور على ثلاثة أحزاب وهي الستون والتاسع والخمسون والثامن والخمسون، والملاحظ على الطريقة المغربية في التحفيظ أنها تبتدئ من نهاية المصحف، وقد استنكر أبو بكر بن العربي هذا الصنيع، واعتبره تنكيساً سيئاً، لكن الجانب المرامي فيه تعكسه الأهداف العامة لبرامج الكتاب المبنية على مراعاة كافة الاحتمالات التي يمكن أن يتعرض إليها التلميذ في المستقبل، كالانقطاع المبكر وغيره، ولا يكون قد حصل حتى على قصر المفصل من القرآن الذي يعد ضرورياً لصلاته وصيامه وقيامه، هذا فضلاً عما ورد من أن ابن عباس رضي الله عنهما، حذق المفصل على عهد رسول الله ﷺ، الذي تركه وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ودعا له بالتفقه في الدين وتعلم التأويل، فكان ترجمان القرآن وحبر الأمة وجرها في العلم، يضاف إلى ذلك أن القرآن الكريم في جوهره كل لا يتجزأ، وما وقع فيه من تجزيء وتخزيب، هو من أجل الزيادة في تيسير حفظه على الناس لا غير..

2 - سورة تبارك الملك وهي بداية المرحلة الابتدائية الثانية، وتنتهي بسورة الرحمن.

3 - سورة الرحمن وتمثل بداية المرحلة الابتدائية الثالثة التي تنتهي بتحصيل عشرة أحزاب من سورة الأحقاف إلى سورة الناس. وكل هذه المراحل يطالب فيها أولياء التلميذ بشيء من الإكرام للمحفظ، وإقامة الاحتفال بما ينجزه التلميذ وذلك بحسب القدرة والاستطاعة.

23- سورة الأعلى: 1.

4- بعد الشروع في ما بعد العشرة أحزاب لا يطالب التلميذ وأهله إلا بنقود يسيرة على رأس كل حزب، إلى سورة (طه)²⁴ التي تمثل منتصف القرآن، وعندها تقام الحفلة التكريمية للجميع، تلاميذ ومدرسا، ويشهد من حضر من الأقارب والجيران هذه الحفلة التي تمثل نهاية النصاب ما قبل الأخير من برامج الكتاب.

5- يستأنف التلميذ النصاب الأخير وينتهي بنهاية الثلاثين حزبا الباقية، وينظم احتفال بمناسبة مرور التلميذ مرورا أوليا، الذي قد يصاحبه الحفظ الكلي أو الجزئي وهو الغالب.

6- ثم يشرع في الختمة الثانية يكتب ربع حزب في كل يوم في الأحوال العادية وقد يزيد وقد ينقص على حسب القدرات الذهنية لكل تلميذ، فإذا اعتمد كتابة الربع ختم في السنة، وإذا اعتمد الثمن ختم في الستين، وإذا اعتمد النصف ختم بعد ستة أشهر، على أقل تقدير وعام على أكثره، وهذه الختمة تمثل مرحلة هامة لما تحتاج إليه من المراجعة والتقويم والإعداد للكتابة بحفظ ما سيكتب والاعتماد على النفس في كتابته كتابة تراعي قواعد الرسم والأداء، ويكون دور المدرس فيها حاسما من حيث التدارك والتحقيق والضبط، ومراعاة الأشباه والنظائر وما إلى ذلك مما تحكمه الأنصاف، المتداولة في هذا الصدد، وكل تهاون قد يؤثر سلبا على عملية التحفيظ بعدم إنجازها، وفي أقل الأحوال يزيد من تأخيرها.

7- وفي الختمة الثالثة تتقرر عملية اعتماد كتابة نصف الحزب في اليوم، لما يتوفر عليه التلميذ من قسط كبير من المحفوظ، وقلة الهفوات في الرسم أو كثرتها حسب قدرات المتعلم، وهنا تشتد الحاجة إلى العناية بتصحيح اللوح تصحيحا علميا دقيقا يتناول كل لفظ قرآني، عَدًّا، وَحَطًّا وَضَبَطًّا، مع إيصال التلميذ إلى

24- سورة طه: 1.

استيعاب كل ما يتعلق بعملية التصحيح، هذا فضلا عن قراءة اللوح معه قراءة جيدة يُضبط بها النص والأداء وينتهي بذلك للإتمام.

خلاصة وتقويم

إن مراحل منهاج التدريس في الكتاب تخضع للترابط المنطقي فيما بينها، كما أن هذا الترابط يبقى ملازما لعناصر المضمون أو المحتوى الذي يتلقاه التلميذ، وذلك على شكل وحدات يفضي بعضها إلى بعض، بحيث إن التحكم في وحدة منها يتطلب التحكم في الوحدات السابقة، كما أنه يحكم العلاقات بين هذه الوحدات ويضبط الفروق، وذلك بشكل يمكن من بلوغ الغايات والمرامي المتوخاة من فعل التعليم والتعلم.

ولذلك فالكتاب يحتاج في تفعيله إلى مجموعات من المتعاونين المتخصصين، يلتزم كل واحد منهم بالدور الذي يناط به، سواء من حيث التسيير والسعي إلى تفعيل البرنامج العملي بحسب ما تتطلبه الظرفية والخصوصية للكتاب، ومراعاة أحوال المتلقي النفسية والتربوية من أجل خلق الرغبة التلقائية المؤهلة له لاجتياز المراحل، أو من حيث تولي المهام العملية بما يناسب كل متخصص من المراحل التربوية المسطرة في الكتاب، خصوصا وأننا في الوقت الراهن، نفتقر إلى المؤهلين الأكفاء في ضبط عملية التحفيظ نصا ورسماء وأداء فضلا عن القراءات والروايات والطرق والأوجه.

ولا بأس من أن تعطى من حين لآخر للمؤطرين في الكتاتيب القرآنية، دورات تكوينية في الميدان البيداغوجي المتعلق بكيفيات التدريس ومراعاة الأحوال النفسية، تيسيرا لمهمتهم وتفعيلا لدورهم، وجعلهم يسايرون العصر وما يعرفه من تحولات تستحق المواكبة والاهتمام.

ثم إن المراحل التمهيديّة والابتدائيّة للكتاب يمكنها أن تعرف توسيعاً وتضييقاً بحسب المراد منها، فيسمح فيها ببعض المواد الداعمة لعمليتي القراءة والكتابة والخط والإملاء وتسهيلهما وكذلك أوليات الحساب وبعض المهارات المعلوماتية المقرّبة لعملية التحصيل والاستيعاب، ويمكن أن تسمى هذه الكتابيّات بالكتابيّات العامّة، في مقابل الكتابيّات الخاصّة في تحفيظ القرآن أصالة، ومزاولتها لبعض الأنشطة الموازية تبعاً، وهذه الأخيرة يمكنها أن تشكّل رِفْداً للكتابيّات العامّة من حيث تزويدها بالمؤطرين الأكفء في مجال الدراسات القرآنيّة، وبالأخص تحفيظ القرآن الكريم، الذي يعرف اليوم تدهوراً على مستوى تلقينه وتدريسه من قبل من لم يسبق لهم أن تلقوه على أهل الشأن والاختصاص، وإنما دعّتهم الظروف إلى اقتحام حمى تدريس القرآن عن غير سابق تهيء وإعداد ومراقبة مستمرة من قبل المتخصّصين، مما جعل حفظ التلاميذ للقرآن في بعض مؤسساتنا يعرف تدهوراً ملحوظاً.

ثم إننا إن سرنا في خطة العناية بشأن الكتاب المتخصّص في حفظ القرآن والكتاب بمعناه العام في خط متوازن يمكننا أن نكون قد سعينا إلى المحافظة على مؤسسة الكتاب بمكوناتها التربويّة الأصيلة، وأخضعناها من جانب آخر لما يضمن استمراريتها في الاتجاه الصحيح، من التجاوب مع الواقع بالجمع بين إيجابيات التحفيظ وآليات الفهم والاستيعاب، هذا مع عدم حرمان الكافة من ولوج الكتاب والاستفادة من مزاياه، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

نحو تحرير مناهج تدريس القرآن الكريم بالكتاتيب القرآنية

العربي بوسلهام

أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

أقصد بالتجديد إعادة مناهجنا التربوية والتعليمية إلى منبعها الرباني الأصل بعدما فشلت المناهج التربوية الوضعية في إيجاد الإنسان الصالح وهذا لا يعني الاستغناء عن الوسائل والتقنيات والتجارب الحديثة المعاصرة، بل هي مطلوبة أيضاً، فالعملية التربوية والتعليمية متجددة ووسائلها متطورة، فلا بد من الاستفادة منها بالحكمة ضالة المومن.

إن للقرآن الكريم في حياة المسلمين والمغاربة خاصة، مكانة ليس لها في تاريخ الحضارات البشرية مثيل، والتي ترجمها أفراد الشعب المغربي إلى الحرص - منذ القدم - على توجيه فلذات أكبادهم إلى الكتاتيب القرآنية، أملاً أن يحفظ أولادهم القرآن كله أو جزءاً منه، وقد تولى أمر هذه الكتاتيب في أحيان كثيرة كبار الفقهاء وأهل الدراية بضبط الكتاب العزيز، وكان للفقيه مكانة خاصة في المجتمع، كما كانت تقام احتفالات خاصة لها قوائنها المعروفة عندما يحفظ الصبي القرآن أو جزءاً منه إلى غير ذلك من التشجيعات والتحفيز لحفظ كتاب الله والتمسك به، ومع كل هذه الإيجابيات في الماضي، فإن الكتاب القرآني يعاني اليوم جملة من النقائص ويواجهه عدد من التحديات، ومن أبرز هذه المشاكل: ضعف تكوين المعلمين أي المدرسين - علمياً ومنهجياً، فأكثرهم لا يزيد على حفظ القرآن - إن حفظه - دون إلمام كاف باللغة العربية أو العلوم الإسلامية فضلاً عن المعارف العصرية ومناهج التدريس وعلوم النفس والتربية مما ينعكس

سلبا على أساليب التدريس ومضامينه ونتائجه، ومن أبرز النقائص الملحوظة في الكتاب، اتباعه أساليب تدريس تقوم في أغلب الأحيان على الحفظ دون الفهم والممارسة، مما يقيم قطيعة بين تلاوة القرآن وتدبره ويلغي البعد العملي في تعاليم الإسلام ويهمل أبعادا متعددة من كيان المتعلم كلها، ينبغي أن يتناولها التعليم بالكتاب، كالبعد النفسي والوجداني والخلقي والاجتماعي والاقتصادي... فلا بد من تكوين شامل ومتوازن للمتعلم يراعي فيه سنه وقدراته العقلية والنفسية والوجدانية والعملية.

وهذا ما سأحاول معالجته في مداخلتي - إن شاء الله تعالى - لإيجاد الحلول لبعض الإشكالات التي تعوق وظيفة الكتاب القرآني اليوم والسبل الكفيلة لتجاوزها مع تحديث وسائل التعليم في الكتاب القرآني مثل إدخال المصحف المسجل لتيسير الحفظ وإتقان التجويد، واستعمال وسائل التكنولوجيا والتواصل مع المحافظة على الثوابت وخصوصيات الكتاب القرآني.

إن تعليم القرآن الكريم للناشئة من أكد الواجبات الشرعية فهو كتاب الله رب العالمين، ومعجزة رسوله الأمين ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: 42] ﴿يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9] "ولا تنقضي عجائبه" يشتمل على منهج تربوي واجتماعي قويم، لا يخضع لتغيرات وتقلبات الزمان والمكان، ويظل ساري المفعول في كل عصر لكونه صادرا عن خالق الكون والإنسان والحياة.

وأسلوب القرآن أقرب الأساليب إلى الفطرة، لأنه يخاطب الإنسان بكامل كيانه الحسي والعقلي والوجداني، فلا تزيغ به الأهواء ولا تضطرب به العقول. وقد وصف بأنه هدايات ثلاث:

- هداية تعبدية: رسم بها السبيل المستقيم للسلوك التعبدى للمؤمن عقديا وتشريعيا، فعلمه كيف يخشى الله ويعبده بدون أن يراه، علما منه بأن الله يراه ويراقبه ويسجل عليه كل كبيرة وصغيرة.

- هداية علمية: رهن القرآن استخلاف الإنسان في الأرض بالعلم فأشاد به وبأصحابه حتى جعلهم الرسول ﷺ ورثة الأنبياء، وأشار إلى منهجيته المتميزة التي لا تتجرد من الموضوعية، ولا تتعدى مصلحة الإنسان الدنيوية والأخروية، وتدعو إلى نشر العلم وتبليغه حتى لا يحتكر أو يبور.

- هداية سياسية: يعتبر القرآن دستور المسلمين وضمان وحدتهم وأقوم السبل لضمان الأمن الاجتماعي والعدالة والاستقرار السياسي والاقتصادي فنور الطريق أمام الفرد والجماعة لتقويم سلوكهم، وضبط تصرفاتهم، اجتنابا للضلال والزيف.

وعى المسلمون في بداية عهود الإسلام كل هذا، وأدركوا الأهمية القصوى للكتاب وضخامة المسؤولية الملقاة على عاتقهم لفهمه والعمل بتوجيهاته وأحكامه. "لذا حظي القرآن من قبل المسلمين على اختلاف الأعصار والأقطار بأوفى الاهتمام، وابتكروا وطوروا في سبيله أصنافا جمّة من المناهج والمؤسسات التعليمية والتربوية"¹.

إن القرآن منهاج تربوي يشع في كافة الاتجاهات، وبالتالي فإن التعامل معه بحاجة إلى حصافة ولباقة وحسن خبرة وتعمق لاجتذاب المعاني المكنوزة في باطن هذا اليم العظيم، ومن الناحية التربوية يوصي علماء التربية أن يبدأ المربي عند التربية بالقرآن الكريم بتقويم لسان الناشئ بحسن التجويد وعدم اللحن أولا ثم

1 - تقديم دليل مناهج المدارس القرآنية، د. عثمان بن عبد العزيز تويجري: ص 5.

يبدأ بتربية قلب الناشئ على الخشوع عندما يمر بآية تستوجب الخشوع أو الحنين إلى الجنة، أو الشعور بحبة الله كذلك أن يربي سلوك الناشئ فيأخذ العهد عليه ويتعهد له لي عمل بتعاليم القرآن أثناء الحياة بكافة أنشطتها، وعلى المربي-المدرس- كذلك أن يربي عقل الناشئ بالاستدلال على ما استدل عليه القرآن، وتأمل ما يدل على عظمة الله، وأن يضع أسئلة كثيرة بعد كل درس لتمرين العقل على ذلك².

وينبغي للمدرس-المربي- أن يتبع أساليب التربية بالقرآن الكريم، كأسلوب الحوار القرآني، والتربية بالقصص القرآني والنبوي والتربية بالأمثال القرآنية وغيرها:

1- أسلوب الحوار القرآني والنبوي:

أسلوب لا يدع مجالاً للملل، بل يدفع الناشئ إلى الاهتمام والتتبع، لما يتوقعه من جديد، فضلاً عن إيقاظ العواطف والانفعالات، مما يساعد على تربيتها، وتوجيهها نحو المثل الأعلى، وتأصل الفكرة في النفس وعمقها، مما يجعل لهذا الحوار نتائج سلوكية ربانية.

2- التربية بالقصة:

تشد القصة الطفل وتوقظ انتباهه، دون توان أو تراخ، فتجعله دائم التأمل في معانيها والتتبع لمواقفها، والتأثر بشخصياتها وموضوعها حتى آخر كلمة فيها.

3- التربية بالأمثال القرآنية والنبوية:

لها غايات نفسية تربوية، فهي بالإضافة إلى الإعجاز البلاغي وتأثير الأداء، لها أهداف تربوية منها:

2- أصول التربية الإسلامية، عبد الرحمن النحلاوي: ص 87.

-إثارة الانفعالات المناسبة للمعنى وتربية العواطف الربانية.

-تربية العقل على التفكير الصحيح والقياس المنطقي السليم.

-الأمثال القرآنية والنبوية دوافع تحرك العواطف والوجدان، فيحرك الوجدان الإرادة ويدفعها إلى عمل الخيرات واجتناب المنكرات، وبهذا تساهم الأمثال في تربية الطفل على السلوك الخير وتهذيب نزعاته الشريرة، فتستقيم حياته.

4- التربية بالقُدوة:

إن حاجة الناشئ إلى القدوة نابعة من غريزة تكمن في نفوس البشر أجمع هي التقليد والمحاكاة، لذا بعث الله سيدنا محمد ﷺ عبده ورسوله ليكون قدوة للناس -المثل الأعلى- يحقق المنهاج التربوي الإسلامي ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾³.

ونبه الرسول عليه الصلاة والسلام إلى ما يتحملة كل من يؤثر في سلوك الآخرين من النتائج حين يقلدونه بخير أو شر، قال ﷺ فيما رواه عنه ابن عمر وجريير بن عبد الله "من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء"⁴.

5 - التربية بالممارسة والعمل:

العلم ينقص أو ينسى بترك العمل به، ويزداد متانة وإتقانا بالعمل به، ليرجم إلى سلوك عملي يحقق متطلبات الطبيعة البشرية ومقتضيات الشريعة

3- الأحزاب: الآية 21 .

4- رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب " الحق على الصدقة ولو يشق ثمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار".

الإلهية. وهذا أوقع في النفس وأدعى إلى إثبات العلم واستقراره في قلب الناشئ وذاكرته. ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾⁵.

6- التربية بالعبارة والموعظة:

-العبارة بمخلوقات الله التي سخرها للإنسان، ليدقق الناشئ الملاحظة ويعمق التفكير ويتأمل فيها ليخشع لله وإجلاله وتسبيحه وتكبيره لقدرة الله على الخلق والإتقان.

-والعبارة بالحوادث التاريخية تريه سنن الله في تقدم الأمم وتخلفها وهلاكها، فيكتسب موازين ربانية يزن بها منجزات كل دولة وكل أمة يدرس تاريخها...

-والوعظ: النصح والتذكير بالخير والحق على الوجه الذي يرق له القلب ويحث على العمل، ومن أهم آثاره تزكية النفس وتطهيرها، وقد جمعت هذه الآثار الآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁶.

7 - التربية بالترغيب والترهيب:

بني هذا الأسلوب التربوي الإسلامي على ما فطر الله عليه الإنسان من الرغبة في اللذة والنعيم والرفاهية وحسن البقاء، والرغبة من الألم والشقاء وسوء المصير. ويمتاز الترغيب والترهيب في التربية الإسلامية عما يسميه الغرب "الثواب والعقاب". بمميزات أهمها:

-يعتمد الترغيب والترهيب القرآني على الإقناع والبرهان، ويكون

5- الكهف: الآية 110.

6- النحل: الآية 90.

-يعتمد الترغيب والترهيب القرآني والنبوي على الإقناع والبرهان، وهذه التربية الوجدانية مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية، كعاطفة الخوف من الله والخشوع له، وحب الله والرجاء والطمع في رحمته، والأمل في ثوابه وجزيل الأجر عنده.

وهكذا ينبغي أن نربي العواطف الربانية عند الناشئين باعتدال واتزان فلا يتمادون في المعاصي مغترين برحمة الله ومغفرته، مسوفين ومؤجلين توبتهم إلى الله، ولا ييأسوا من نصر الله ورحمته بدعوى أن المجتمع كله منغمس في المعاصي، منحرف عن الإسلام، فيتركوا العمل بشريعة الله والدعوة إليها⁹ والله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾¹⁰.

7- للتوسع انظر: المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنزري، يوسف القرضاوي، ج 2 ص 1147 وما بعدها.

9 - أصول التربية الإسلامية وأساليبها ، عبد الرحمان النحلاوي : ص 295 بتصرف.

233

فالمدرّس-المعلم-الفقيه- هو محور العملية التعليمية بالكتاب القرآني فهو العمود الفقري للمنظومة التعليمية، لذا وجب تكوينه تكويناً متيناً، وتنظيم دورات تكوينية تؤهله للقيام بالتدريس بالكتاب القرآني، ومن ذلك اطلاعه على علم النفس التربوي ليراعي عقلية الطفل ونفسيته وسنه وقدراته ومهاراته واستعداداته لينميها، وتدريبه على أحسن الطرق والوسائل التربوية ليتمكن من النفوذ إلى أعماق الطفل ويتواصل معه لتلقيه القرآن ومبادئه.

كما أن للأسرة والمحيط الذي يعيش فيه الطفل انعكاس على نفسيته ومردوديته التعليمية في الكتاب سلبي أو إيجابي. لذا سن الإسلام أحكاماً لرعاية الطفل وحمايته.

– الرعاية العقلية والنفسية للأطفال في الإسلام:

مما هو معلوم أن ثقافة الطفل لها أثر أساسي في تحديد شخصيته وتشكيل وجدانه، والكشف عن استعداداته ومواهبه الفنية والعلمية والفكرية كما أنها تساعد في اتخاذ الوجهة الصحيحة التي تناسب قدراته، وتبشر بالصورة المستقبلية للدور الاجتماعي الذي سوف يقوم به على مسرح الحياة عندما يكبر، هذا وإن تثقيف وتعليم الطفل ليس بالأمر الهين، لأن ذلك يتطلب معرفة صحيحة بطبيعته التكوينية.. وحاجاته الضرورية واستعداداته المختلفة.

لذا أعطى الإسلام تصوراً بليغاً لنفسية الطفل واستعداداته، وراعى طبيعته ووفر له كل الحاجيات الضرورية لينمو نمواً جيداً يضمن له ولأمته التقدم والازدهار.

أ- الفرق بالطفل:

لقد كان الرسول ﷺ رفيقاً بالأطفال رحيماً بصغيرهم، يداعب الصغار، فعن

محمود بن الربيع قال "عقلت من النبي ﷺ بحجة مجها في وجهي وأنا ابن خمس سنين من دلو"¹¹ ويقول عليه الصلاة والسلام "من كان له صبي فليتصاب له" وذلك لينزل إلى مستواه ويتعامل معه على المستوى الإدراكي عنده.

ب- شمولية التربية الإسلامية حماية الطفولة:

إن الرفق بالطفل لا يمنع التوجيه والتعليم، فقد كان الرسول ﷺ يوجه الأطفال الواعين ويعلمهم آداب الطعام والتيامن والاستئذان، ويعلمهم القواعد الصحية في المأكل والمشرب والنوم، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى بشراب فشرب وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ، فقال للغلام: "أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: لا والله يا رسول الله لا أؤثر بنصبي منك أحدا، قال فتله رسول الله ﷺ في يده"¹² وقال النووي وتله أي وضعه، وأما الغلام فهو ابن عباس. إذ كان رسول الله ﷺ يعلم الأطفال في تقديم الطعام والشراب ويعاملهم به إن كان أحدهم عن يمينه، وهذا هو المنهاج الصحيح في التوجيه، إذ يكون ما يتلقاه الناشئة من تربية يتطابق وممارسة الموجه المعلم وكذلك يتطابق مع سلوكيات المجتمع، وهكذا ينشأ الطفل بعيدا عن التناقضات بين التوجيهات والنصائح المثالية وواقع حياة الناس. وهكذا كان سلفنا الصالح يفتح على الولد بكلمة التوحيد لا إله إلا الله، ويعرفه أحكام الحلال والحرام، ويعوده على العبادات وهو ابن سبع سنين، ويؤدبه على حب الرسول ﷺ وتلاوة القرآن، ويعلمه السيرة النبوية، ويدرس له المعارك الحاسمة لتكون لديه فكرة شاملة بين النظرية والتطبيق في الإسلام، ويقتدي بسلفه الصالح، فالطفل يتأثر بالأحداث التاريخية، وينفعل معها أكثر من التوجيه الجاف، كما كان سلفنا يغرسون روح التقوى والمراقبة للسلوك لدى الطفل، ومحاسبة تصرفاته تجاه

11- رواه البخاري في كتاب العلم "باب متى يصح سماع الصغير".

12- رواه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب "إذا أذن له أو أحله ولم يبين كم هو/ رياض الصالحين، ص 226.

نفسه واتجاه الآخرين، كل هذه التدابير حق للولد على الوالدين ومجتمعه، حماية له من الانحراف والانزلاق، فالتربية والاهتمام بالنشء من العبادات التي اهتم بها الإسلام، فالأولاد هم أهم ما يتركه الإنسان بعد وفاته وهو يحاسب عليهم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾¹³.

روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له"¹⁴ كل هذه التدابير والتوجيهات وافية لصيانة وحماية الطفولة من العبث والاضطراب، ووقاية للفطرة السليمة ﴿فَصَرَفَ اللَّهُ الَّذِي فَضَّرَ النَّاسَ عَلَيْهِمَا﴾¹⁵ فهذه التدابير الوقائية تقوم على ثلاثة أسس : الأساس الاعتقادي، الأساس التعبدية، الأساس التشريعي. أما مبادئها فأربع: مبدأ فرضية التعلم، ومبدأ التعليم، ومبدأ تقرير الكرامة الإنسانية ومبدأ التعلم مدى الحياة.

ج- حاجات الأطفال:

نقصد بها الحاجات والمتطلبات والظروف التي ينبغي توفيرها للطفل، كي يكتمل توازنه ونضجه النفسي، ولتنمو شخصيته وتتكامل.

ج-1- الحاجة إلى الأمن والسلامة:

وذلك لإزالة مخاوف الطفل وليكتسب الثقة بنفسه على مر الزمن تدريجياً، فيكسب الاستقرار المتزلي ومتانة العلاقة الأسرية، والأمان العائلي الذي هو أهم وسيلة إلى الأمن عند الأطفال. فالإسلام بآدابه وتعاليمه السامية قد وفر للطفل

13- يس: الآية 12.

14- رواه الترمذي في كتاب الأحكام باب الوقف.

15- سورة الروم: الآية 30.

هذا الأمان، فنهى الرجل عن إظهار الكراهية للزوجة أو تقييحها، أو شتمها، وأمر الزوجة ألا تدخر جهداً أو وسعاً في الإخلاص لزوجها، وأن لا تدخل منزلها أجنبياً إلا بإذنه، ونهى عن إرضاء الشهوات بغير العلاقة الزوجية غير المشروعة، وأمر بالاستئذان وستر العورة، وكل ذلك في سبيل تحقيق الطمأنينة للأولاد، وإشعارهم بالأمان والسلامة، بغرس العقيدة الإسلامية في نفس الطفل، مما يجعله يكسب الثقة بربه والأنس بمخلوقاته، ومن ثم يصبح عظيم الثقة بنفسه لا يخشى شيئاً من ذلك، كالظلام والبحر والحيوانات والرياح والأمطار والرعد والبرق...

ج-2- الحاجة إلى الاحترام والتقدير:

وهي الشعور بضرورة الرضا عن النفس، وقد قدر الإسلام الطفولة فكان الرسول ﷺ يسلم على الأطفال ويجعل لهم صفاً أو مكاناً في المسجد، يصلون مع الجماعة خلف صفوف الرجال، ثم تأتي بعدهم صفوف النساء، فإن نبغ الطفل وتفوق على الرجال في أمر من الأمور، وجب أن يأخذ مكانه اللائق به في الجماعة، وقد قدم المسلمون بالمدينة ابن ست أو سبع سنين في صلاتهم عملاً بتشريع الرسول ﷺ: "إذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآناً"¹⁶، فكان هذا الصبي أقرأهم لكتاب الله فقدموه عليهم.

ج-3- الحاجة إلى الصحبة:

ثبت في علم النفس كما ذكر أرترت جيرسيلد "أن صحبة الكبار للطفل هام لنموه فوأسليما، فالشخص يظل طيلة حياته تواقاً إلى التيقن من أنه مرغوب فيه، وبأنه ينتمي إلى جماعة معينة، ويستطيع الاعتماد على ولاء غيره وإخلاصه"،

16- روى البخاري في كتاب المغازي، باب : وقال الليث حدثني يونس عن ابن شهاب أخبرني عبد الله بن ثعلبة بن صعيبر وكان النبي ﷺ قد مسح وجهه عام الفتح.

لذا فإن الطفل المحروم من الحب دون باقي أفراد أسرته، يكون في موقف يبعث على الرثاء، من هنا تتبين لنا ضرورة وجود المودة والرحمة في الحياة الزوجية ليتعرض فيها الأطفال فلا يتعرضون للجنوح أو النقمة أو القلق، قال تعالى: **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليهما وجعل بينكم مودة ورحمة﴾**¹⁷ ولأجل توفير ذلك الحنان وذلك الود العائلي، أرشدت شريعة الإسلام إلى اختيار المرأة الودود الولود، لتكون أكثر عطاء لأبنائها، وقد حظ الرسول ﷺ على رحمة الأطفال والعطف عليهم، لذا عاتب بعض الأعراب الذين لا يقبلون الأطفال ولا يرحمونه، بل هدد بعضهم بأن لا يرحمهم الله فقال ﷺ "من لا يرحم لا يرحم" كما دعا إلى العدل بين الأولاد في المحبة والعطاء والمعاملة، وقاية من تعرضهم إلى التحاقد فيما بينهم، أو الجنوح والشعور بالمهانة أو القلق، أو نحو ذلك من الآلام والأزمات النفسية.

وقد كان من أساليب محبته ﷺ مخالطة الأطفال والسلام عليهم، تأليفاً لقلوبهم وإدخالاً للسرور على نفوسهم. قال أنس رضي الله عنه، وكان طفلاً يخدم الرسول ﷺ إن كان النبي عليه السلام ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير يَا أَبَا عمير ما فعل النغير؟ والنغير طائر يلعب به"¹⁸.

ج - 4- الحاجة إلى الانتماء:

يقول " أرثر جير سيلد": "فالشخص يظل طيلة حياته تواقاً إلى التيقن من أنه مرغوب فيه، وبأنه ينتمي إلى جماعة معينة ويستطيع الاعتماد على ولاء غيره وإخلاصه"¹⁹ بيد أن شريعة الإسلام تسمو بهذا الانتماء والولاء، فتقومه على أساس رباني كالانتماء إلى الله والانضواء في كنفه، لنيل نصرته وحمايته، إضافة

17 - سورة الروم/ الآية 21.

18 - صحيح البخاري، كتاب الأدب باب الانبساط إلى الناس.

19 - علم النفس التربوي، 1/ 116-117.

إلى هذا، أقرت شريعة الإسلام صلة ذوي القربى، وجعلتها من الآداب الإسلامية الضرورية لتمتين العلاقات بين الأسرة الواحدة، ومن ثم أفراد المجتمع.

ج-5- الحاجة إلى اللعب:

فهو حاجة طبيعية في النفس قد تكون لصرف طاقات الإنسان الزائدة بأسلوب يقوي حميته، وإما لتهذئة أعصابه واستعادة نشاطه، وكان الرسول ﷺ يراعي عند معاملته الأطفال حاجتهم إلى اللعب والمرح، وقد راعى الإسلام هذه الطبيعة الإنسانية ففي صحيح البخاري عن عائشة قالت: "دخل علي رسول الله ﷺ وعندي جارتان تغنيان بغناء بعث، فاضطجع على الفراش وحول وجهه، فدخل أبو بكر فاتتهرني وقال: "مزمار الشيطان عند رسول الله ﷺ؟" فأقبل على رسول الله ﷺ فقال: دعهما، فلما غفل غمزتهما فخرجا" وتروي كذلك "كان يوم يلعب السودان بالدرق والحراب، فإما سألت رسول الله ﷺ، وإما قال: "أتشتهين تنظرين؟ فقلت نعم، فأقامني وراءه خدي على خده وهو يقول: دونكم يا بني أرفدة، حتى إذا مللت قال: حسبك؟ قلت نعم، قال: فاذهي"²⁰.

إن شريعة الإسلام بسنها أحكاما سواء ما يتعلق ببشارة المولود، أو التأذين في أذنيه، أو استحباب تخنيكه أو عقيقته، أو حلق رأسه، أو تسميته، أو وجوب ختانه، تبرهن على مدى العناية التي أولتها للمولود منذ ولادته والاهتمام بأمره حين يطل بنفسه، ويستنشق نسائم الحياة، فهذه الأحكام وغيرها تكسب الطفل صحته وتعطيه قوته لمتابعة دراسته بالكتاب وتؤهله للمستقبل.

مراحل منهاج القرآن في التربية والتعليم

إن المراحل التي ينبغي أن يتبعها المدرر-المعلم- في العملية التربوية والتعليمية

20- رواه مسلم في كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه أيام العيد.

هي التي وردت في قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾²¹، وهذه المراحل التربوية الثلاث هي*:

- مرحلة تلاوة الآيات القرآنية

- مرحلة التعليم

- مرحلة التزكية

وهذه المراحل التربوية جاءت في سياق دعاء إبراهيم عليه السلام وتضرعه، وقد تحققت مطالبه كلها من بينها هذا المطلب العظيم الذي يجب الالتفات إليه وهو أن يبعث الله رسولا يقوم بعملية التربية عبر هذه المراحل.

وعندما كانت هذه المراحل أصلية في المنهاج التربوي في القرآن، أعيد ذكرها في القرآن ثلاث مرات غير هذه المرة. قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾²² قال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾²³، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾²⁴.

* انظر مداخلة محمادي بوشعيب في ندوة "القرآن الكريم وأبعاده التربوية والحضارية" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط مارس 2005 .

21- البقرة: 128.

22- البقرة: 151 .

23- آل عمران: 164.

24- الجمعة: 2-3.

المرحلة الأولى:

1- تلاوة آيات الله:

التلاوة هي القراءة وترديد الكلام ومعاودة التلفظ به وقد كان أول شيء خوطب به رسول الله ﷺ القراءة فقل له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾²⁵ فالقراءة في ميدان التربية تسبق كل شيء لأنها المرحلة الفطرية التي تصلح لكل الفئات والأعمار تصلح للأمي العامي وتصلح للأعمى، لأن التلاوة كما قلت هي: ترديد لما يسمع ولهذا عندما من الله على الإنسان بنعم وسائل المعرفة قدم السمع في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُحُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾²⁶.

أما الآيات فهي أنواع فهناك:

- آيات في الله وصفاته وعلاقته بالكائنات؛
- آيات في تجربة الإنسان على الأرض منذ وجد؛
- آيات في التشريع وأصول الإيمان والغيب؛
- آيات في الكون وطبيعته؛
- آيات في الإنسان وطبيعته.

فلكل آيات مضامينها وأغراضها وأساليبها وكلها يجمعها الوحي الأعلى الذي هو "دعامة البناءين النفسي والاجتماعي"²⁷.

آداب التلاوة

وليكون للتلاوة أثر في التالي والمتلو عليه لابد لها من شروط، فمن شروطها:

25- العلق:1.

26- النحل: 78.

27- التحرير والتوير 1-723.

1- الاستعاذة

لقد أدب رب العزة تالي القرآن أدبا عظيما في هذا الباب فقال سبحانه: **﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الْغَيْنِ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾**²⁸.

2- الاستماع والانصات

وقال تعالى: **﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وَإِذْ كُنَّا فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾**²⁹ وقال: **﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مَنْفَرِينَ﴾**³⁰.

3- حسن الأداء والتمهل في القراءة:

قال تعالى **﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾**³¹، قال علي رضي الله عنه " الترتيل هو تجويد الحروف ومعرفة الوقوف " لأنه هكذا أنزله تعالى: **﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾**³² وقال سبحانه **﴿وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ﴾**³³ وقال سبحانه **﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾**³⁴ وقال سبحانه **﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾**³⁵.

لهذا يجب أن تكون التلاوة مرتلة وعلى مكث كما ظهر في هذه الآيات

28- النحل، 98- 99.

29- الأعراف، 204-205.

30- الأحقاف، 29.

31 - المزمل، 4.

32 - الفرقان، 32.

33 - الإسراء، 106.

34- القيامة، 16.

35- طه، 114.

التي تنص على هذه القيمة الجليلة حتى لا تفقد التلاوة المقصد منها.

وإذ ألفاظ القرآن أوعية للمعاني وألبسة لأغراضها وقوالب لأحكامها وحكمها والتجويد زينة لها يظهرها في أجمل حلة وأحسن شكل وهيئة ليظهر المعنى أيضا جميلا واضحا ثم ليكون قويا ينفذ إلى النفس وينساب إليها، فإن ذلك ما لاحظته وأحس به الذين أنزل عليهم يوم أنزل فأحسوا بأثره في نفوسهم وملكاتهم فوقفوا منه مواقف.

المرحلة الثانية: التعليم:

هذه المرحلة مبنية على المرحلة الأولى بحيث يحدث بالمرحلة الأولى انفعال السامعين فيقبلون على السماع والإنصات، ومن الطبيعي أن يحدث استفسار وتساؤل كل حسب مقصده وغرضه فآنذاك يأتي تبيان المستفسر فيه لإزالة اللبس والإشكال من أجل تزيل المطلوب وتنفيذه عند المستجيبين وهذا يحدث "تنوير الذهن بما يفتقر إليه من هدايات كثيرة في عالمي الغيب والشهادة... نموذج راق للثقافة الراشدة والسلوك الحكيم"

ولذلك وجدنا "السلف الذين حملوا الرسالة علما وعملا كانوا أبصر الناس بالحياة... فعاشوا أصحاب مبادئ واضحة كما وردت في القرآن حققت على ظهر الأرض أغلى الحضارات وأشرفها"³⁶ لأنهم تلقوا القرآن ودرسوه بالمنهج الذي نص عليه وهذا وصف دقيق لمنهجهم وطريقهم معه. روى أبو عبد الرحمن السلمي التابعي الجليل قال: حدثنا الذين كانوا يقرؤونا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما. إنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوهن حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل فقالوا:

36- الدعوة الإسلامية، 164.

فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً³⁷ ويعلق ابن تيمية على هذا الحديث بقوله "ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة" ويضيف قائلاً "وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل في أعيننا".

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعلم معانيهن والعمل بهن" كما أن الاشتغال بالقرآن على منهج القرآن يكسب صاحبه الإمامة والريادة على حد ما قاله ابن مسعود رضي الله عنه: "المتقون سادة والفقهاء قادة ومجالستهم زيادة"³⁸. تحقيقاً لقوله ﷺ "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" وقوله "إن الله يرفع بالقرآن أقواماً ويضع به آخرين"³⁹

وفي مرحلة التعليم هذه ورد: الكتاب والحكمة.

فالكتاب معروف وهو القرآن الكريم، فما الحكمة؟ الحكمة هي أحاديث الرسول ﷺ التي قال فيها الحق سبحانه في خطابه لزوجات النبي ﴿وَلَذَكَّرْنَا لِيُذَكِّرُنَا فِي بَيوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾⁴⁰. وقيل الحكمة ما اشتملت عليه الشريعة من تهذيب الأخلاق وتقنين الأحكام لأن ذلك كله مانع للأنفس من سوء الحال واختلال النظام" وقال مالك "الحكمة الفقه في الدين. وقال: العلم: الحكمة ونور يهدي الله به من يشاء وليس بكثرة المسائل" ويكفي أن يكون رب العزة قد مدح صاحب الحكمة فقال ﴿يُوتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُوتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾⁴¹.

وقد ذكر سبحانه رجلاً صالحاً وصفه بالحكمة وهو لقمان وقد عرضت

37- مقدمة في أصول التفسير، 35-36، جامع البيان، 5/1/36 التحرير والتنوير، 3/159.

38- شرح السنة، 427/4.

39- نفس المرجع.

40- الأحزاب، 34.

41- البقرة، 269.

هناك أطراف من أطراف هذه الحكمة إذ شملت جانب العقيدة وجانب الأخلاق وجانب العبادات مما يدل على أن الحكمة في مجملها هي العلم والعمل والصواب كما يرجح أن الحكمة هي حسن تنزيل أغراض القرآن بعد فقهاها على واقع ملكات النفس لتعتدل وتستقيم ولذلك لم يفرد لها فعل مستقل بما بل أشركت في فعل تعلم القرآن وتعليمه فقال تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ مما يدل على صلة الحكمة بالقرآن وتداخلها معه في كل ما يتصل به إذ هي ثمرة تعلمه وتعليمه مما يعني أن تعلم القرآن وتعليمه بدون البلوغ إلى درجة الحكمة عمل لا وزن له في قيم التلاوة والتعليم والتربية⁴² والله أعلم.

المرحلة الثالثة: التزكية

فالتزكية هي مطلق التطهير، التطهير من النقائص والعلل وإزالة ما يحول دون الحفاظ على تقويم الإنسان وتكريمه، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾⁴³. وقال سبحانه ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خُسَارًا﴾⁴⁴ وقال سبحانه ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾⁴⁵، فورود كلمة الشفاء المتكررة ذات دلالة كبيرة على تزكية الأنفس وتعديل مواهبها وغرائزها التي جبلت عليها من حيث الجانب السلبي ليتقوى الجانب الإيجابي من النفس الإنسانية لذلك فإن كلمة التزكية هي أقرب الكلمات وأدناها على معنى التربية بل تكاد التربية والتزكية تترادفان في إصلاح وتهذيب الطباع⁴⁶ ولهذا فقد

42- "مراحل المنهج التربوي في القرآن" مداخلة أبو شعيب محمادي في ندوة "القرآن الكريم وأبعاده التربوية والحضارية" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مارس 2005 م .

43- يونس، 57.

44- الإسراء، 82.

45- فصلت، 44.

46- الدعوة الإسلامية، 164 .

وردت كلمة التزكية في عدة مواضع من الكتاب العزيز يجب أن نتدبرها.

والمعروف من خلال القرآن " أن الفطرة الإنسانية خلقت سوية مستقيمة وأن لو بقيت على أصل الخلقة ما أشركت ولا أفسدت فالعوج الذي يلحقها طارئ لا أصيل...تولد العين مثلا ابتداء قدرة على النظر فإذا عميت فمن مرض عارض"⁴⁷ قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ وَلَكِنِ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾⁴⁸ وقال ﷺ: "مامن مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء"⁴⁹ فلا بد من حماية فطرة الطفل وصيانتها وتحسينها بقوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾⁵⁰ وقوله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُولُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقْوِدْهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾⁵¹ وقد عرض القرآن الكريم كثيرا من النقائص النفسية لدى الإنسان من أجل أن يعلمها ويفقهها ليعمل على تهذيبها، قال تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾⁵² وقال سبحانه ﴿بَلْ يَرِيحُ الْإِنْسَانَ لِفَجْرِ أَمَامِهِ ﴾⁵³ وقال ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكْفُورٌ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾⁵⁴ وقال ﴿وَيَرِيحُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّمُوءَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا يَرِيحُ اللَّهُ أَنْ يَخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾⁵⁵.

47- الدعوة الإسلامية، 165.

48- الروم، 30 .

49- البخاري، 372/8.

50- الأعلى، 14-15 .

51- التحريم، 6.

52- المعارف، 20 .

53- القيامة، 5 .

54- العلق، 6-7 .

55- النساء، 27-28 .

فطبيعة التربية هي تعديل هذه الغرائز ولذلك فهي أصعب العمليات في حياة الإنسان فإنها تحتاج إلى جهد مستمر للبلوغ إلى درجة التزكية والتطهير ولذلك نجد تضرعا عميقا في طلب السلامة من مثل هذه الآفة النفسية وممن؟ من رسول الرحمة ﷺ، فعن زيد بن الأرقم رضي الله عنه قال "لا أقول لكم إلا ما قال لنا رسول الله ﷺ:

"اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والههم وعذاب القبر اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها".

نعم فعندما نتدبر هذا الحديث نجده أحصى آفات نفسية مهلكة للأفراد والمجتمع كما أشير إلى مثلها في نصوص قرآنية كثيرة وهذا كشف لطبيعة النفس البشرية على منهاج القرآن لمواجهتها بالقيم الغالية النفيسة.

والذي يهمنا في مجال التربية هو تكوين الأخلاق وتزكية النفوس لأن الخلق والتزكية هما اللذان يهزمان نوازع الضعف ووساوس الهوى وذلك بالمران والتدريب على القيام بعناصر القيم النبيلة. وما القرآن الكريم إلا تلك القيم التي تجعل الإنسان ذا خلق عال، ولذلك عندما وصف الرسول ﷺ بوصف يليق بمكانته وجلاله قال فيه العليم الخبير ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] بحيث لو كان هناك ما هو أعظم من هذا الوصف لوصف به ولذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21] وقد أدركت أننا عائشة هذه الحقيقة وهي ربة بيت يتزل فيه القرآن الكريم وتشاهد من يتزل عليه القرآن، فعن يزيد بن بانبوس قال: قلنا لعائشة يأم المؤمنين كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟

قالت: كان خلقه القرآن فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى انتهت ﴿وَالْغَيْنِ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: 1-9] قالت : هكذا كان خلق رسول الله. وتلك هي عناصر التزكية التي تحقق الغرض من التلاوة وتحقيق الغرض من التعلم إنها وثيقة عالية ترسم شخصية المسلم منذ طفولته في أفقها الأعلى، هذا الأفق الذي مثله رسول الله ﷺ ومثله الجيل الذي تربى بالقرآن وعلى مائدته تغذى. وبهذه المراحل استقام واعتدل حتى قال فيه تعالى يشهد له بالتزكية وبلوغ الأمل ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾⁵⁶. وهكذا تتوالى الآيات في بيان العناصر التي تعلي من شأن الإنسان وتطبعه بطابع قيم القرآن لتحقيق مضمون دعوة ابراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام من خلال مراحل المنهج التربوي في القرآن عبر نص دعاء ابراهيم عليه السلام وهو قوله ﴿رَبِّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾⁵⁷، وبهذا أيضا تتحقق الغاية من خلق الإنس والجن الواردة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾⁵⁸.

لقد شهد تاريخ الكتاب القرآني فترات ازدهار في التاريخ الإسلامي والمغربي بالخصوص، تولى أمره في أحيان كثيرة كبار الفقهاء وأهل الدراية بضبط الكتاب العزيز، العارفون بالمنهاج التربوي الإسلامي في تعليم القرآن الكريم، كما أن وجود الكتاب بجانب المسجد وارتباطه بالمجتمع كان عاملا آخر في أداء رسالة الكتاب كاملة في الأمة إذ تخرج منه كبار العلماء وجهابذة الفكر والسياسة الذين قادوا الأمة وسعدت بهم الشعوب.

56- آل عمران، 110.

57- البقرة، 129.

58- الذاريات، 56.

ونحن اليوم لا بد أن نعيد لهذه المؤسسة القرآنية دورها ورسالتها الربانية لتنهض الأمة من جديد وتكون خير أمة أخرجت للناس، فالكتاب هو أول مدرسة بعد الأسرة وله أثر أساسي في تحديد شخصية الطفل وتشكيل وجدانه ومواهبه العقلية والعلمية والفكرية، وبالتالي يحدد مستقبله والدور الذي سوف يقوم به على مسرح الحياة عندما يكبر إيجاباً أو سلباً. فلا بد من العناية بالكتاب القرآني وتوفير كل الوسائل لتسهيل مأموريته التربوية والتعليمية.

إن الكتاب القرآني اليوم أمام تحديات العولمة وتعمل وسائل الاتصال والإعلام المختلفة على جذب الطفل والاستحواذ على اهتمامه وتوجيهه، فعلى المدرس-المعلم الفقيه-ابتكار وسائل جديدة لشد اهتمام الطفل للكتاب واستثمار وسائل الإعلام والتواصل في التعلم وتقديم أدوات ومهارات التعلم الذاتي واكتسابها للطفل، والتمكن من استعمال الوسائل السمعية البصرية ومختلف وسائل التواصل التقنية والتكنولوجية من أجهزة سمعية بصرية ومعلومات وأنترنت لتعليم القرآن ومبادئه الخالدة للاستفادة من التطورات الحديثة في مجال التربية والتعليم لتحسين مردودية الكتاب القرآني التربوية والتعليمية.

وفي الوقت الذي نثمن المجهودات التي تبذلها مديرية التعليم العتيق بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للنهوض بالتعليم العتيق عامة والكتاتيب القرآنية خاصة تحت القيادة الرشيدة لمولانا أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس حفظه الله بالقرآن وللقرآن فإنني أدعو إلى:

1-مد الجسور بين منسقي شعب الدراسات الإسلامية ومديرية التعليم العتيق لإحداث مسلك الدراسات القرآنية بالجامعة يلجها الطلبة الحافظون لكتاب الله تعالى بعد تأهيلهم للباكلوريا؛

2-دعم مشروع المعهد العالي للدراسات والبحوث القرآنية بطنجة تحقيقاً

لتوصيات الملتقيات الوطنية التي عقد بعضها تحت الرعاية الملكية السامية حول القرآن الكريم ومناهج تدريسه، منذ الملتقى الثاني لأساتذة جامعة القرويين وشعب الدراسات الإسلامية بكليات الآداب والعلوم الإنسانية والمدارس العليا للأساتذة سنة 1993 بتطوان بعد الملتقى الأول سنة 1991 بطنجة، فضلا عن الندوات التي نظمتها شعب الدراسات الإسلامية خدمة للقرآن الكريم وعلومه في مختلف الجامعات بالمملكة الشريفة بتعاون مع دور القرآن وعلومه ونيابات وزارة التربية الوطنية والأوقاف منذ سنة 1986.

فمن البرور والعناية بحملة القرآن وخريجي دور القرآن وعلومه أن يجدوا مؤسسة جامعية تربوية يتابعون فيها دراستهم العليا ويتأهلون لتلقين القرآن ونشر علومه...

3-مد الجسور بين مؤسسات التعليم العتيق والتعليم الأصيل وبلورة برنامج مشترك متكامل بينهما في أفق توحيد التعليم الإسلامي والاستفادة من مؤسسات التعليم العمومي والحر لاحتضانه مع الحفاظ على ثوابته وخصوصياته الأصيلة والانفتاح على المستجدات والتطورات العلمية المعاصرة والتقنيات الحديثة في مجال التربية والتعليم. والله نسأل أن يوفقنا لخدمة كتاب الله تعالى وأهله ونشر مبادئه وأخلاقه، ويوفق العاملين للنهوض بالكتاتيب القرآنية وتحديد مناهجها التربوية لجلب واستقطاب النشء لتعلم القرآن والتمسك بأخلاقه وما ذاك على الله بعزیز.

الأنشطة الموازية في الكتاب القرآني و دورها في ترسيخ الهوية

محمد الفاسي

عضو المجلس العلمي المحلي بشفشاون

تقديم

من المعروف أن الإسلام أولى عناية كبرى للتربية، وحث الفرد على التعلم والإقبال على طلب العلم ورفع من شأن العلماء كما في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾¹. وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾² ومدحهم في قوله سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾³ وقول النبي ﷺ: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين..."⁴ وليس هذا في مرحلة الطفولة فحسب، بل في كل أطوار حياة الإنسان.

وهكذا، فمنذ بداية الإسلام، عرفت المساجد-باعتبارها أول مدرسة للتربية والتعليم- نشاطا تربويا هاما. وقد اهتم معظم الخلفاء والحكام خلال التاريخ الإسلامي بشؤون التربية والتعليم، وقضايا الفكر والمعرفة، فأنشأوا مدارس ومعاهد للتربية، في مختلف المستويات، وفتحوا مكتبات وخزانات للكتب والمراجع النفيسة، وشجعوا البحث العلمي ماديا ومعنويا، وكان من ثمرات ذلك أن ظهر في الساحة الإسلامية مفكرون وفلاسفة ضمنوا كتبهم ومصنفاتهم فصولا قيمة من الفكر التربوي والفلسفة التربوية، التي لا نبالغ إذا قلنا - عند

1- سورة المجادلة الآية 11.

2- سورة الزمر الآية 9.

3- سورة آل عمران الآية 18.

4- (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم وكتاب فرض الخمس وكتاب الاعتصام وفي رواية أخرى "ويلهمه رشده" عند الطبري، الإحياء ج 1 ص 15.

البداية- أنها تمتاز بعمق الفهم للكائن البشري، وبنضج النظرة وشمولييتها لقضاياها ومشاكله، مما جعل جوانب متعددة منها لا تقل أهمية من علم النفس التربوي الحديث ومن النظريات التربوية في عصرنا الحاضر وذلك سواء فيما يتعلق بسعة وثراء الموضوعات والنواحي التي تناولتها أو الطرق والمناهج التي تتبعها لبلوغ تلك الأهداف⁵.

وسنحاول قدر الإمكان أن نتناول هذا الموضوع، "الأنشطة الموازية في الكتاب القرآني، ودورها في ترسيخ الهوية" - أن نتناوله- في ارتباطه بالشروط الموضوعية أو بالخلفية الاجتماعية الثقافية التي نشأت فيها، وذلك علما منا أن التربية أية تربية كانت لابد أن تكون إفرازا وتناجيا للبنيات الاقتصادية، الاجتماعية والسياسية والفكرية والدينية للمجتمع الذي نبعث منه. فنعني بذلك أن مضمون التربية وأهدافها وأساليبها ورسائلها لها علاقة جدلية بما يسود المجتمع من نظم اقتصادية واجتماعية وسياسية، ولها ارتباط وثيق بما يقوم فيه من تيارات فلسفية وعقائدية وما يمارس فيه من تقاليد وعادات.

ونحن هنا، عندما نتكلم عن التربية أو التراث التربوي نفضل أن يعطى لهذا المفهوم معنى واسعا، بحيث لا تصبح التربية تعنى فقط ما يتعلم في المدرسة، من خلال التعليم النظامي، وإنما تنسحب كذلك على الممارسة الإنسانية خارج المدرسة. بحيث تصبح التربية شاملة لكل ما يبذله المجتمع من أجل تنشئة الفرد، ومن ثم تغدو مرتبطة بكل ما يتوارثه الإنسان، وما ينقله جيل لجيل آخر من ثقافات وتقاليد وعادات، ومن تجارب مكتسبة خلال معركة الحياة والممارسة الاجتماعية.

ومن هنا يأتي دعم كل عملية تعليمية/تعليمية بأنشطة تربوية موازية لتعزيز مكانة الفعل التربوي الذي يمارس على المتعلمين، باعتبارهم أطفال اليوم ورجال

5- (نظرة تاريخية حول نشأة التربية عند المسلمين) مقال للأستاذ عبد الله تروال مجلة الدراسات النفسية والتربوية، عدد 9 أبريل 1989 ص 27 وما بعدها.

الغد، هم الذين سيقودون الأمة، ويسوسون المجتمع، ويتولون تدبير شؤونها العامة، ...

وتأسيساً على ما سبقت الإشارة إليه فإنه يمكن اعتبار الأنشطة الموازية تكويناً في قلب تكوين يدعمه ويعززه، ويرسخ قيمه النبيلة في نفوس الأطفال/المتعلمين، كما أنه يوقظ فيهم الرغبة في المشاركة والتدبير العلمي للحياة بشكل متناغم متناسق مع حمولة أنماط التربية التي يتلقونها في الكتاب.

واعتباراً من أن المدرسة تساهم في التغيير الاجتماعي فإن التربية على التغيير تنطلق من الكتاب باعتباره النواة التي يتشرب فيها الطفل كثيراً من القيم والميول والاتجاهات⁶...

كما أن واقع الكتاب القرآني، في تاريخه الطويل، في المغرب عموماً وفي البلدان العربية والإفريقية، عانى ويعاني من ظاهرة الإرهاق والتطويع على الاحتمال والاطاقة، سواء من حيث المدة الزمنية التي يقضيها التلميذ/المتعلم في الكتاب، أو من حيث الإكراهات النفسية وما يتوجها من العقوبات الزجرية والجسدية....

ومن هنا يمكن القول: بأن اعتماد الأنشطة الموازية في الكتابات القرآنية لها ما يبررها لما تقوم به من أدوار هامة في ترسيخ الهوية أولاً وأدوار نفسية وتربية واجتماعية ثانياً. ويمكن إجمال هذه المبررات فيما يلي:

1- خلفية فلسفة التربية. (التي تقوم على تنمية جميع القدرات...)⁷.

2- المساهمة في التغيير الاجتماعي. (طفل اليوم هو رجل الغد)⁸

6- المدرسة والتغيير الاجتماعي/محاضرة للأستاذ مصطفى الشطبي أستاذ بالمركز التربوي الجهوي بني ملال (1985).

7- مقاربة لتحديد مفهوم التربية للأستاذ مصطفى الشطبي (مخطوط).

8- مقال للأستاذ محمد الدريج مجلة الدراسات النفسية والتربوية عدد 13 يوليوز 1992.

3- تحقيق التوازن النفسي والتربوي. (تلبية حاجات الطفل)⁹.

صعوبة التحديد

يصعب تحديد مصطلح (الكتاب القرآني) لكثير من الأسباب:

1- يعزى تنوع التعليم القرآني في المغرب إلى عدد السنوات الدراسية، والفروق الفردية المبنية على أساس مضمون الدراسة أو طريقة التدريس¹⁰.

2- يعزى الإشكال في التسمية إلى الفضاءات والوضعيات والأساليب التي يمارس بها التعليم.

3- يعزى الإشكال إلى التطور الذي لحق هذه المدارس والأنظمة التي سنتها الدولة أو استفرد بها المجتمع.

وبالرغم من صعوبة التحديد/تحديد المصطلح/ فإنه يمكن الانطلاق من محددات بيداغوجية الكتابات القرآنية المتسمة بطابع تقليدي في شكله ومضمونه وطرقه وأساليبه، سواء ما يتعلق بمورفولوجية التعلم، أو بنمط التعليم القائم على التلقين والحفظ والترديد أو وسائله البسيطة التي لا تتجاوز حدود ما يخدم هذه البيداغوجية العتيقة. ومن الملاحظ أن أصول التربية الإسلامية ومبادئها وأهدافها كانت منظمة بشكل مباشر أو غير مباشر في القرآن والسنة النبوية فكان المربون، في عهد النبي ﷺ بالخصوص يرجعون إلى هذين المصدرين التشريعيين لاستخراج أصول التربية التي ينبغي أن يتلقاها النشء وتحديد الغرض والمقاصد التي يرمي الإسلام إليها في التكوين التربوي للطفل المسلم، ومن ثمة تجد التربية الإسلامية تتسم بطابع

9- "المنهاج الدراسي وحاجات الطفل" مقال للدكتور أحمد أوزي الأستاذ بجامعة محمد الخامس - الرباط. مجلة علوم التربية عدد 5 السنة 3 أكتوبر 1993 ص 11 وما بعدها..

10- "بيداغوجية الكتابات القرآنية في المغرب المعاصر" مقال مترجم ونشر في مجلة الدراسات النفسية والتربوية، عدد 13 يوليوز 1992 ص 52 وما بعدها.

ديني أخلاقي بارز، سواء من وسائلها وبرامجها أو أساليبها وأهدافها.

وفي مواجهة لبحوث أوربية حول التعليم القرآني توصل ديشتر Dichter (1976) إلى أن معظم الدارسين كانوا شديدي الانتقاد للتربية القرآنية عندما أطلقوا صفة (الإنسان الآلي Robot) على التلميذ وبأن الآباء والمدرسين يساهمون عن قصد في جعل التربية عملية ميكانيكية تماما. (ص 92).

وقد وجد مثل هذا الانتقاد مداه في المغرب الحديث، ذلك أن المعلمين في المدارس العمومية يشجعون الطرق العتيقة المتبعة حتى الآن في الكتاب ومع ذلك فمزال أنصار التربية القرآنية موجودين.

فالآباء يعتبرون التعليم القرآني وطريقة الفقهاء الصارمة في التأديب وسيلة لتدريب الأطفال على "احترام" السلطة وحسن السلوك.

وقد تكون لدراسة التعليم القرآني التقليدي دلالة اجتماعية كبرى لمجرد أن عشرات الملايين من الأطفال في دول العالم يتلقون هذا التعليم. وتشير الإحصائيات إلى أن التعليم القرآني يعد شكلا من أوسع أشكال التعليم قبل المدرسة المتجانسة نسبيا في الوقت الحاضر، رغم أنه نادرا ما يكون تحت السيطرة التامة للدولة. وفي مجال محو الأمية يمكن اعتبار التعليم القرآني إحدى المؤسسات الثقافية الأهلية التي مزال يسند إليها تعليم القراءة والكتابة¹¹.

وفي سياق هذه الشروط التي تتسم تارة بالقسوة واللين تارة أخرى، وفي ظل هذه الشروط والإكراهات المادية والنفسية تمارس التربية والتعليم في الكتاتيب القرآنية غير معزولة عن الأنشطة العامة التي تمارس داخل المجتمع والتي تساهم في ترسيخ القيم الإنسانية المستمدة من شرع الله الحكيم وسيرة النبي

11- " بيداغوجية الكتاتيب القرآنية في المغرب المعاصر " مقال مترجم لدانييل واجنر بجامعة بنسلفانيا - ترجمه أحمد بنعمور وسعيد بخير، ونشر في مجلة الدراسات النفسية والتربوية، العدد السابع، فبراير 1987 ص 34.

العظيم وسلوك السلف الصالح من أئمة المسلمين، أو هكذا يساهم الكتاب في ترسيخ قيم التعاون والتضامن والتآخي من أجل بناء مجتمع صغير يتهيأ ليكون متناغما مع المجتمع الكبير.

إن هذه الأنشطة الموازية هي من صميم الأعمال التربوية التي تمارس بالكتاب لها دور فعال وإيجابي في ترسيخ الهوية الدينية والوطنية والاجتماعية ويمكن تحديد بعض ملاحظتهما من خلال بعض الأنشطة التالية:

1- **اللعب**: قد يكون اللعب في مفهوم الثقافة المسيحية مرادفا للعبث إن لم يكن هو العبث نفسه، أو هو (ضد الجد...) ¹² لكنه نشاط لا يستغني عنه المتعلمون لأنه هو المتنفس الذي يلجئون إليه عندما يثقل عليهم الأمر بكثرة ساعات العمل في الكتاب. كما يمكن اعتباره الميدان الخصب الذي يتجلى فيه نشاطه الحركي بشكل ملفت للنظر، ومع ذلك فهو، كحاجة أساسية للطفل، يصبح محل حذر واحتياط من الفقيه / المعلم، بحيث يتم في ظروف بعيدة عن أعين الراشدين ولكنه بمباركتهم، وهو عند ابن عرضون (القرن العاشر الهجري- المغرب) مفيد للصبي / التلميذ، "وينبغي أن يؤذن له بعد الفراغ من المكتب أن يلعب لعبا مباحا ويستفرغ إليه من تعب الأدب، بحيث لا يتعب في اللعب. فإن منع الصبي من اللعب، وإرهاقه بالتعليم دائما يمت قلبه، وييطل ذكائه وينغص العيش عليه، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا" ¹³

وجاء في كتاب "الإشارة والبشارة في تاريخ أعلام بني مستارة" لعبد السلام البكاري ما نصه ¹⁴:

فيما كان يردده الفقيه المساري نهاية القرن 18م:

12 - لسان العرب (اللعب) مادة لعب.

13 - مختصر مفتح المحتاج، كتاب مخطوط لابن عرضون (القرن العاشر الهجري-المغرب) ص 92.

14-الإشارة والبشارة في تاريخ أعلام بني مستارة، ذ. عبد السلام البكاري دار النشر المغربية 1984 ص 304.

يوم الخميس هو عيد الطلبة	خذ فيه راحتك يا ذا المرتبة
وروح الخاطر بالمباح	فما عليكم فيه من جناح
ولعب الكرة ليس مذهبي	إذ فيه للعشور أقوى سبب
يدنس المروءة الحصينه	ويطرد الوقار والسكينة
فما رأيت فيه شيأ يحمده	فترك فعله لدي أحمد
والضام دعها للعوام تبرز	ولعب الشطرنج قد يجوز

2- **النظافة:** إن حملة نظافة المسجد والكتّاب يقوم بها الأطفال في أوقات محددة كنشاط جماعي يؤمن فضاء نظيفا ومريحا للمعلم والمتعلمين وهو كذلك نشاط يراد به الحث على النظافة والتعاون الجماعي....

3- **التنشيط:** تتوج نهاية الأسبوع الدراسي بنشاط جماعي يقوم به المتعلمون تحت إشراف معلمهم ومراقبته، وهو من خلاله يتمكن من اكتشاف مواهب الأطفال وقدراتهم الفنية والثقافية ويطرد عنهم الملل طيلة أسبوع كامل من العمل المسترسل المتوالي، وهو إما مسرح شعبي فكاهي أو ترديدات إنشادية جماعية لها طابع ديني أو وطني، أو اجتماعي....

4- **الدعم:** لا يخفى أن أساس التربية المسيدية يقوم على الحفظ والترديد والاستظهار، ولا يخفى قيام ذلك أساسا على حفظ كتاب الله تعالى، غير أن هذا يتعزز بحفظ بعض الأدعية وقواعد الإسلام والصلاة على النبي، وألفاظ الشاهد والأذان والإقامة وغير ذلك من ضرورات الدين الإسلامي، وهذا النشاط يتم بشكل متواز مع العمل اليومي فهو يعود إلى أريحية الفقيه/المعلم الذي يخصص له وقتا معيناً يكون كورد أسبوعي وقد يكون يوميا في حصة زمنية محددة جدا يعلن بها الفقيه/المعلم انتهاء الحصة اليومية.

5- **الاحتفاء:** هناك عدة مناسبات يحتفى بها ومعظمها دينية أو وطنية أو مناسباتية خاضعة لثقافة المجتمع وهي تستغل استغلالاً ايجابياً تكتسي طابع الاحتفال كالعقيقة والختان أو الزفاف والأعراس وعاشوراء وغيرها. أما الوطنية منها فيعمد الأطفال إلى الاستفادة من مظاهر الاحتفال للكبار وتقليدهم والاستفادة من دعمهم ومساندتهم.

6- **التتويج:** مناسبات التتويج كثيرة منها:

- الدخول الأول إلى بداية المشور الدراسي للأطفال.
- قطع مرحلة دراسية من حفظ الحروف الأبجدية إلى كتابتها...
- إنهاء سورة من سور القرآن أو حزب أو جزء منه.
- ختم النصف الأول من القرآن الكريم أو الختمة الكبرى منه والتي تعني ختم القرآن الكريم كله¹⁵.

ومظاهر ذلك تكون بإكرام الفقيه/المعلم، وقد يتجاوزها إلى إكرام التلاميذ في حفل بهيج.

كل هذه الأنشطة تخلق أجواء مفيدة للتواصل والتفاهم والحوار، وتحقيق الأهداف والغايات من التربية المسيحية في الكتاب القرآني، كما تساهم في تعزيز القيم الإنسانية النبيلة في نفوس الأطفال وترسيخ روح التعاون والتضامن والتآخي بينهم وكذلك تأهيلهم لكي يقوموا بأدوار مهمة في حياتهم والمساهمة في ترسيخ هويتهم.

ومن المناسب أن ننبه هنا إلى أن الأنشطة الموازية في المدارس العتيقة عموماً

15- مكانة الطفل في الثقافة المسيحية، محمد أبو طالب، كلية الآداب بالرباط. مجلة الدراسات النفسية والتربوية عدد 8 سنة 1988 ص 53 وما بعدها بتصرف.

والكتاتيب القرآنية خصوصاً، كانت تأتي لتعبر عما يخالج المجتمع من إحساسات ويرنو إليه من تطلعات ويحفزه إلى تحقيق أسمى الغايات كما هو الشأن عليه في الحروب والمعارك ينشد الأناشيد الحماسية التي تحفز المتحاربين، وفي مظاهر المخطات النضالية تردد الأناشيد والشعارات التقدمية لتنفخ روحاً من القوة والاندفاع بترديد الشعارات وقراءة الخطب والبيانات، والتعبير عن الغضب في بعض الأحيان عندما تنتهك الحرمات.

وهكذا، كنا نرى تنظيم حفلات واستغلال مناسبات وخاصة في مرحلة الاستعمار التي كانت تنظم حفلات في المدارس والكتاتيب على السواء كفضاء عام للمجتمع الصغير والكبير على السواء.

ومن خلال هذه الحفلات التي كانت تستغل مراسيمها لتقديم عروض ثورية وتعبيرات تنديدية بكثير من الممارسات الاستعمارية التي كانت تجد صداها بين الأفراد والجماعات كمتنفس لها تعبر من خلاله عما يخالجها.

وعلى سبيل المثال، أتذكر مشهداً، أنقله إليكم بصدق وأمانة، كما اختزنه في ذاكرتي مرحلة طفولتي البريئة بعد نفي الملك المجاهد البطل محمد الخامس طيب الله ثراه، فكانت كل الفضاءات تعيش ألم الفراق وتتطلع إلى نشوة اللقاء، وكانت تستنهض هممها بمختلف الأشكال التعبيرية، من خطب، وأناشيد، وعروض مسرحية في شكلها التقليدي البسيط الذي يراود منه استنهاض الهمم وتفجير الطاقات ومناهضة السياسات الاستعمارية الظالمة والتوق إلى الكرامة الإنسانية والاستقلال والحرية...

فكانت الأنشطة الموازية تستفرغ طاقاتها وتلأب برامجها بهذه الحمولة الفكرية الباحثة عن الهوية الوطنية في مظاهرها الحضارية.

وقد امتد ذلك إلى أن حصل المغرب على استقلاله واسترجع المغاربة
كرامتهم وحريتهم وعادوا إلى مجدهم التليذ لينتقلوا من الجهاد الأصغر إلى
الجهاد الأكبر الذي هو الجهاد من أجل البناء والتشييد وإقامة دولة المؤسسات
والسلام عليكم ورحمة الله.

الكتائب القرآنية والأنشطة التي تضطلع بها

ميمون بريسول

مدير معهد الإمام مالك بالناظور

مقدمة

يخطئ من يحاول أن يربط تاريخنا نحن المغاربة بغير القرآن، وتتنكب الجادة كل محاولة من هذا القبيل، فنحن أمة كنا وسنكون - إن شاء الله - بالإسلام. ولن يفلح المناوئون الذين يستغلون منابر عدّة لإبعاد المغاربة عن هذا التاريخ التليد.

ومجد المغرب الحقيقي أسّس يوم ارتبط بالقرآن، الذي صنع الإنسان المغربي ورفع ذكره. فمنذ الفتح الأول¹ اختلطت المغاربة بالفاتحين الذين استطاعوا أن يثبتوا القرآن في الجبال والسهول والفيافي، وأن يعلموه الناس وأن يشرحوا مبادئه وأهدافه حتى أصبح المغاربة من دعاة القرآن الأوفياء على مرّ الأحقاب. وغدا المغرب المسلم مركز إشعاع ومنارة عرفان لاستيراد وتصدير جميع أنواع المبرّات، وأصبح قلعة عتيقة تتكسر على صخرتها أطماع الطامعين، وتتحطم عليها كل جراءة أو مكابرة وينقلب مدبروها على أعقابهم خاسرين.

القرآن في المغرب أصبح تزيّناً مغاربة، يمسون عليه وبه يصبحون حتى ذكر أن سفيان بن وهب الصحابي الجليل² كان يمر على الولدان

1 - فتح إفريقيا كان على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة 29 وقيل 28 وقيل 27 هـ، فتحها عبد الله بن سعد بن سرح، وواصل الفتح فيها عقبة بن نافع في عهد معاوية عام 50 هـ.

2 - سفيان بن وهب الخولاني، له صحبة، يعد في أهل مصر، روى عنه غياث بن أبي شبيب قال: كان سفيان بن وهب صاحب النبي ﷺ يمر ونحن غلّة بالقيروان فيسلم علينا ونحن في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه، ت 82 هـ (الإصابة وكذلك الاستيعاب).

بالقيروان³ وهم في كتبهم يتعلمون القرآن فيسلم عليهم ويحادثهم. وعن بعثات القراء والمفسرين للقرآن فالتاريخ يحفظ لنا أن عمر بن عبد العزيز وغيره من الخلفاء كانوا يرسلون مجموعات منهم تصل إلى إفريقيا تترى فتقوم بعملها خير قيام، ويستقبلهم أهل المغرب بكل حفاوة ويكرمون وفادتهم ويعظمون مجيئهم وقدومهم بالقرآن⁴. يقول الدكتور إبراهيم حركات: "وقد وجهت أعداد من المرشدين إلى أقطار إسلامية متعددة في زمن الفتوح، وكانوا يصحبون الجيش ثم يوزعون بين الجهات التي اعتنقت الإسلام"⁵.

والبرابرة أنفسهم ما كان لهم شأن في تاريخ البشرية إلا بعد أن اعتنقوا الإسلام، وغدوا من رواد القرآن، وهو ما مكّنهم من فرض سيادتهم وتوطيد كيانهم وجمع شتاتهم، فكان لهم الملك والحكم والريادة، ولهم من القوة والسيطرة في الأندلس بعد فتحها ما لم يحلموا به في تاريخهم الطويل.

ومن الإنصاف للمغاربة أنهم على مرّ العصور لم يثبت في تاريخهم أن انحرفوا عن تمسكهم بالقرآن تعلما واحتكاما. بل إن من أخص خصائصهم وأثبت مميزاتهم: "الإشادة بمزايا القرآن في كتبهم وأشعارهم وحفلاتهم على الصعيد الحكومي والشعبي، ولا تكاد ترجمة مغربية لشخصية أو ملك تخلو من نعت المترجم له بأنه كان يحفظ القرآن. ومن هوايات المغاربة الأساسية الولع بنسخ القرآن وتزيينه وكتابة المصاحف بخطوط مغربية جيدة، ومن الملوك الذين خطوا مصحفا أو مصاحف: المهدي بن تومرت والمرتضى من الموحدين، وأبو يعقوب يوسف وأبو الحسن وأبو عنان وأبو فارس من المرينيين"⁶.

3- القيروان : قاعدة البلاد الإفريقية وأم مدنها ، وكانت أعظم مدن المغرب، اختطها عقبة بن نافع عام 50هـ، وشيوخ القيروان هم الذين جعلوا من مسجد القرويين في فاس جامعة كبرى، وهم الذين أعطوه اسمه ، فإن القرويين هم القيروانيون .

4- هذا القرآن - كتاب لعبد الحي العمراني - بتصرف ص 64 طبعة 1983.

5 - ممارسة الشعائر في تاريخ الإسلام - للدكتور إبراهيم حركات نقلا عن مجلة الإحياء عدد 5 / 1981.

6 - هذا القرآن - لعبد الحي العمراني .

وابن خلدون في مقدمته يشهد على هذا التعلق الشديد للمغاربة بالقرآن وحفظه فيقول: "فأما أهل إفريقيا والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور على ملكة اللسان جملة..."⁷

ومما يدل على هذا الارتباط الوثيق بالقرآن أن المغاربة يسمون حفاظه باسم خاص وهو اسم (الطلبة) وهو عنوان على كل الذين يحفظون القرآن. وحفاظ القرآن كانوا محط عناية وموضع تقدير يحتلون المكانة اللائقة، والرتب العالية، يتصدرون الصفوف الأولى في المحافل والمجالس وبيوت الناس، في الولائم والمآتم، في العادات والعبادات، لدى العامة والخاصة، يترك بهم في افتتاح الأشغال، ويطلب منهم الدعاء الصالح في اختتام الأعمال.

وعلى هذا الأساس من العناية بالقرآن كانت المساجد تشيد لنشره وتعليمه، إذ تعتبر المساجد في المغرب مدارس لتحفيظ القرآن وتعليم علومه، وهو الدور الأساسي الذي تضطلع به هذه البيوت التي تنتشر في المغرب انتشارا عظيما في المدن والقرى والسهول والجبال. وزيادة على المساجد ورسالتها، أسس المغاربة في كل ركن من بلادهم كتاتيب قرآنية لتحفيظ القرآن لأبنائهم وبناتهم منذ طفولتهم المبكرة، وهذه الكتاتيب تكون مستقلة، وقد تكون تابعة لمسجد كما هو الشأن في البوادي، وحتى أولئك المغاربة الرحل يتخذون خيمة خاصة من خيامهم لتعليم القرآن وأداء الشعائر، تنتقل معهم حيثما حلوا، وكان للدولة المغربية عناية فائقة بهذه الكتاتيب وطلابها على الصعيدين: الحكومي والشعبي.

إذن فالخلفاء والولاة قد تنبهوا إلى أمر إشاعة ثقافة القرآن في بلاد المغرب لأنهم عرفوا أن استعصاء الفتح أول مرة كان بسبب جهل المغاربة بحقيقة الدعوة

7- مقدمة ابن خلدون وكذلك إحياء علوم الدين للغزالي نقلا عن كتاب: التربية قديمها وحديثها للدكتور فاخر عاقل - مطبعة دار العلم للملايين - بيروت / فبراير 1974.

الإسلامية. فالمغاربة أول الأمر لم ينظروا إلى العرب إلا كما كانوا ينظرون إلى الرومان وغيرهم من الغزاة الذين استهدفوهم قصد الاستغلال والاستئثار بخيراتهم ومنتجاتهم. وهذا ما يدل عليه قول الكاهنة: "إنما تطلب العرب من المغرب مدنه وما فيها من الذهب والفضة، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي، فالرأي أن تخرب هذه المدن والحصون ونقطع أطماع العرب عنها"⁸. فأوجب الفاتحون تعليم المغاربة وتلقينهم مبادئ الدين الحنيف، فرتبوا لهم الأئمة والفقهاء يعلمونهم ويرشدونهم. وأول من نشط حركة التعليم هذه: حسان بن النعمان الغساني⁹، الذي أوجب تعلم اللغة العربية على السكان المسلمين وغير المسلمين، وتبعه في نفس الخطة عمر بن عبد العزيز وموسى بن نصير¹⁰ وغيرهم؛ الذين أدركوا أن الحصون لا تفتح إلا بفتح قلوب أصحابها بالقرآن، ولذلك كانوا لا يتحركون إلا بصحبة العلماء والفقهاء.

نظام التعليم قبل الإسلام وفي عهد النبوة والخلفاء الراشدين:

لم تكن القبائل العربية قبل الإسلام تعرف تعليماً نظامياً ولا مدارس خاصة، بل كان العربي في صغره يبعث في الغالب إلى البادية لأخذ اللغة العربية السليمة من منابعها؛ لأن العرب كانوا أهل بلاغة وبيان، ورغم ذلك كان لهم اهتمام خاص بعلوم شتى مثل: التنجيم والأنساب والمغازي، وكان يتعلم ذلك بالممارسة وفي أندية خاصة وبواسطة محالس. ولما جاء الإسلام حث الناس على تلقي العلم وحفظ القرآن، وفي بداية عهدهم بالإسلام كانوا يتلقون العلم من نبيهم ﷺ في محالس بالمسجد أو في بعض منازل المسلمين الأولين كدار الأرقم بن أبي

8- النبوغ المغربي لعبد الله كنون، ص 45 الطبعة 2.

9- هو قائد من المشهورين في الفتوحات الإسلامية، ولي إفريقيا، حارب البيزنطيين والبربر في عهد عبد الملك بن مروان وتغلب عليهم.

10- ذكر ابن خلدون في تاريخه "العبر"، ج 6 ص 208 أن عمر بن عبد العزيز أرسل بعثة إلى المغرب تضم عشرة من فقهاء التابعين، وترك موسى بن نصير بالمغرب سبعة عشر فقيهاً.

الأرقم¹¹، وخصص للصبيان معلمون يعلمونهم الدين الجديد ويحفظونهم القرآن في حلقات غالبا ما كانت تلقائية، وقد كلف الرسول ﷺ الأسرى بتعليم الولدان القراءة والكتابة...

في هذا العهد كان المسجد هو كل شيء "المسجد روضة أطفال، ومحض تربية الصبيان، يحافظ على الفطرة، وينمي الموهبة، وينشئ النشأة الحسنة، ويربط الطفل بربه من أول ظهور الإدراك وبروز علامات التمييز، ويدرب على النظام من أول وهلة يطل فيها على الحياة، وأباح الإسلام للصبيان الدخول إلى المساجد من أجل تحقيق هذه المعاني، والرسول ﷺ، كان له ارتباط وثيق بالصغار يحتضنهم بالمسجد، ويرعاهم ويعلمهم ويلعبهم ويحترم مشاعرهم، وتذرف عيناه عند فقد أحدهم، ويعزي فيهم عزاء صادقا"¹². غير أنه لما تطور الوضع وانتشر الإسلام في أصقاع المعمور، وأصبح الناس يدخلون في دين الله أفواجا، ومن جميع الأجناس، غدا واجبا التفكير في تأسيس وسائط تربوية تكون ملاصقة للمساجد أو مستقلة عنها. فعمر رضي الله عنه الخليفة الثاني "وسع خدمات المسجد بما يتناسب والفتوحات الإسلامية وكثرة الداخلين في الإسلام، وكان يقع فيه كل ما يتعلق بالجماعة وكان من مصالحها"¹³ وقوله: "ما يتعلق بالجماعة وكان من مصالحها" يعني كل الأمور التي يحتاجها الناس من تعليم وتحكيم وتمريض وتربية وتدابير عسكرية وغيرها. وعمر رضي الله عنه بنى الرحبة؛ وهو مكان اتخذ إلى جانب المسجد يقال له البطحاء، وقال: "من أراد أن يلغظ أو يرفع صوتا أو ينشد شعرا فليخرج إليه"¹⁴.

11- الأرقم بن أبي الأرقم، كان اسمه: عبد مناف، مخزومي، من السابقين الأولين للإسلام. كانت داره على الصفا بمكة يجتمع فيها المسلمون قبل الهجرة، ت 55 هـ.

12- المسجد نشاطه الاجتماعي على مدار التاريخ- لعبد الله قاسم الوشيلي، ص 44 ط 1990/1 سلسلة إحياء رسالة المسجد بتصرف.

13- نفس المرجع.

14- نفس المرجع.

1- الكتاب القرآني كمدرسة أولية وأول مدرسة للتربية والتعليم

ما وقع في عهد عمر رضي الله عنه من بناء الرحبة قد يكون المنطلق لتأسيس الكتاتيب القرآنية أو الفكرة التي أدت إلى تأسيسها أو امتدادا لظهورها حيث يعتبر العهد الأموي أول مسرح لها، فظهرت المدارس الأولى واختار لها بنو أمية المربين الذين تتوفر فيهم شروط المربي والمؤدب¹⁵. ويرى بعض المؤرخين أن الكتاب هو المؤسسة التعليمية الأولى التي سبقت حتى المسجد، حيث ظهرت قبل الإسلام في المدينة المنورة عند الأوس والخزرج، ولما جاء الإسلام قواها وحسنها وجعلها تتلاءم والدين الجديد لتعلم القراءة والكتابة. وعلى أي حال فلم يكد القرن الهجري الأول ينتهي حتى انتشرت الكتاتيب في كل أرجاء العالم الإسلامي انتشارا عظيما، فكانت أشبه ما تكون بالمدارس النظامية، حتى حكى ابن خلدون عن كتاب المعلم أبي القاسم البلخي الذي كان يضم ثلاثة آلاف طالب، وكان هو ينتقل بين أقسامه على دابته.

ظهور الكتاتيب القرآنية بالمغرب

إن نزول الفقهاء بالمغرب — كما قدمنا — لتعليم القرآن والتفقيه في الدين يعني وجود مراكز ومؤسسات للتربية والتعليم، وظهور هذه المؤسسات بالمغرب كان مبكرا، واكبت دور الفاتحين؛ فالخلفاء والولاة الذين تتابعوا على حكم المغرب، ما أمنوا من التمرد والعصيان إلا بعد أن عرّفوا المغاربة بحقيقة دورهم، والمهام التي انتدبوا لها بواسطة هذه المراكز العلمية التي كان يربط في كل منها فقيه أو مرشد.

15- مجلة الإحياء التي تصدرها رابطة علماء المغرب، ع 2 / 1981.

وقد ذكر عبد الواحد المراكشي في المعجب أن مدينة مراكش كانت تزخر في عهده بالكتاتيب¹⁶. وذكر الناصري أن المولى عبد الرحمان أصدر إلى عماله بالأقاليم أن يلزموا كل مدشر بتأسيس كتاب قرآني ومسجد والقيام بمؤونة الفقهاء والقائمين بالتعليم فيها، وأن يعتبر كل مقصر في ذلك مذنباً تجب معاقبته¹⁷، فكان ذلك من الأسباب التي أدت إلى انتشار التعليم الأولي في كل مكان بالمغرب. وبرهن المغاربة، بعد ذلك على تعلقهم الشديد وحبهم الكبير، وعشقهم الفريد للقرآن، فبرعوا في تأسيس كتاتيب لتعليمه، وتنافسوا في تشييدها، ووقفوا الأوقاف، ووهبوا هبات وزودوها بزكواتهم متبركين ومعتقدين أن غلالهم تنمو بهذا العمل.

2- الأنشطة التي تضطلع بها الكتاتيب القرآنية

إن أنشطة هذه المؤسسات لم تكن قاصرة على أداء الشعائر التعبدية فحسب، بل كانت أيضاً محاضر للتربية والتعليم وإعداد الرجال الصالحين المصلحين الذين ساهموا بجهود عظيمة في النهوض بالحياة الفكرية والدينية بما أثاروا من همم وأحيوا من حمية وبنوا من مدارس في مختلف أنحاء الوطن، وبما ألفوا وكتبوا ونشروا معتمدين في ذلك على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فأصلحوا العقائد وصححوا المفاهيم ونقوا الأفكار من رواسب البدع والخرافات التي علقت بها، ووضعوا الأسس، وأحيوا ما أميت في نفوس الأمة. ويوم اسوداد المآزم وتلاحم الخطوب، أعادوا ذكرى أسلافهم في الصبر والصمود.

وبالمناسبة نميز بين نوعين من أنشطة الكتاتيب:

16- المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، ص 100 مطبعة الاستقامة بالقاهرة ط 1/ 1949.

17- الاستقصاء للناصري، ج 9، ص 80.

أولا : أنشطة ثابتة قارة وأساسية، وتنحصر في:

- تعليم القراءة والكتابة (محو الأمية).

- تحفيظ القرآن الكريم وتعليمه.

- تدريس العلوم الشرعية.

ثانيا : أنشطة موازية داعمة.

2-1- أنشطة ثابتة قارة وأساسية:

ففيما يخص هذا النوع من الأنشطة فإن الكتابات لها أنشئت ومن أجلها أسست، فهي تضطلع بتحفيظ القرآن الكريم للناشئة وتعلمهم مبادئ الدين ومبادئ اللغة العربية. والطريقة التي دأبت عليها في هذا العمل خاصة عند الكتاب المغربي هي حفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة. ومادة التدريس هي: آيات القرآن وسوره، والأداة المستعملة في هذه الطريقة هي اللوح، ويكتب فيه بالسمخ، فعندما يحفظ الطالب الوجه الأول مما كتب يححوه ويكتبه من جديد بنص آخر، وهكذا حتى يأتي على جميع سور القرآن مبتدئا من أسفل، أي يسير في الكتابة والحفظ سيرا تصاعديا، ومن الجزء إلى الكل، ومن السهل إلى الوعر. حتى إذا أنهى سلكة أولى بهذه الكيفية أعاد الكرة تنازليا، من الأعلى عدة مرات إلى أن يحفظ القرآن كله حفظا تاما برسمه وضبطه. وتسبق هذه العملية ما يسمى (التحنيش) وهو تعويد النشء على تعلم الكتابة، وهي طريقة عجيبة أفلحت في إنقاذ فتيان وفتيات، رغم تقدمهم في السن، من براثن الأمية، نجد الآن أرقى المؤسسات لا تقدر على تحقيق النتائج المرجوة في هذا الباب بكل ما تتوفر عليه من وسائل متطورة. وقد كتب بعض المستشرقين حين زار المغرب في القرن التاسع عشر يقول: "لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في المغرب في قراه

وحواضره يجهل القراءة والكتابة، غير أنني لم أعثر عليه، في حين وجدت ذلك في بلدان جنوب أوربا، فقلما يصادف المرء هنالك من يستطيع القراءة من أفراد الشعب"¹⁸.

وهذه شهادة على فعالية دور الكتاب في التعليم:

شهد الأنام بفضلهم حتى العدا والفضل ما شهدت به الأعداء

ومع حفظ القرآن، يتلقى الطالب مبادئ القراءات والتجويد ويحفظ الأنصاف للاستشهاد على هذه القواعد، ويتعلم كذلك جملة من مبادئ اللغة العربية التي يأخذها من متونها المنظومة والمنثورة. وبغياب هذه الكتابات في وقت ما، فقد الناس أهم مؤسسة للتربية والتعليم، وتغييبها هي مؤامرة مخططة للقضاء على القرآن الذي هو دستور الأمة، به تسعد وتعلو رايته. يقول الدكتور عبد الحليم عويس: "ما يقال عن المؤامرة على الأصوات والمخارج، يقال كذلك عن المؤامرة على اختفاء ظاهرة الكتابات، وعلى اختفاء معلمي القرآن المتفرغين، وعلى اختفاء شرط حفظ القرآن في المعاهد الإسلامية بل والجامعات الإسلامية، وغياها يعني كذلك مؤامرة أخرى على زحزحة القرآن عن إعجازه ومكانته المتفرد بها ككتاب متفرد بالحفظ حروفاً وكلمات وأصواتاً"¹⁹.

ويقول الدكتور عويس كذلك: "ومع غيبة التلقين والتلقي في حفظ القرآن وتلاوته باختفاء الكتابات وقلة من يحسن التلاوة ممن يتولون هذا الأمر في مراحل التعليم المختلفة، لجأ الناس إلى المصحف مباشرة يتلقون القرآن-وهذا خطأ كبير لا يعتذر عنه-وهي مصيبة وقعت بتأثير اختفاء الكتابات والمعلمين المتفرغين للقرآن"²⁰.

18- عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، كتاب الأمة عدد 7، محرم 1417 هـ.

19- الفقه الإسلامي بين التطور والثبات للدكتور عبد الحليم عويس، ص 53.

20- نفسه.

وهناك بعض الكتاتيب التي توسع من مهامها، فتعلم الناس أمور دينهم وذلك بعقد حلقات علمية منظمة في أوقات متفرغة مناسبة يتطوع لها علماء وفقهاء أو نجباء الطلبة الذين ينتدبون من طرف فقيهم للتمرن على هذا العمل. وقد دبر أمر هذا النشاط خير تدبير، وأعدت له وسائل رغم بساطتها أتت أكلها وعلمت الناس ذكورا وإناثا الضروري من الدين والشريعة حتى أنك تلقى العامي من هؤلاء الذي يمارس التجارة في دكانه أو في السوق، يحسن الفرائض فيوزع التركة توزيعا صحيحا لاعوج فيها ولا أمتا، بله المعاملات الأخرى في الفقه كالبيع والشراء والحراثة والمغارسة والمزارعة والقراض وغيرها. هذا علاوة عن قواعد وأركان العقيدة والعبادات التي يفتي فيها بخير الفتاوى.

وكانت هذه الحلقات العلمية في شتى الفنون وحتى في الحديث الذي كان لا يحفظ في عامة الكتاتيب لأنه أنشئ من أجله مؤسسات ومجالس خاصة، كانت مادة لها أهميتها واعتبارها في هذه المؤسسات، ولتقريبها من القواعد الشعبية والأطفال وسائر رواد العلم والمعرفة نشرت عشرات الكتب الصغيرة التي تجمع عددا مختارا من الأحاديث لقراءتها وحفظها، وغالبا ما يكون عددها أربعين.

ولم تكن المرأة استثناء أبدا من هذه العملية التعليمية، بل كانت دائما جنبا إلى جنب مع أخيها الرجل، يقول عبد الله قاسم الو شيلي: "عندما أسس إبراهيم بن الأغلب الدولة الأغلبية بالقيروان وأفريقيا صار جامع القيروان كعبة العلم بالديار المغربية والأندلسية وصقلية وسردينيا ومالقة وبعض سواحل إيطاليا، وكان فيه جناحان: جناح للرجال يدرس فيه سحنون، وكانت بنته تدرس بجناح النساء، وكذلك يحيى بن عمر وبنته، فلم تعد المهجرة إلى طلب العلم مستفيضة كما كانت"²¹.

21- المسجد ونشاطه الاجتماعي على مدار التاريخ للوشيلي، ص 196-199.

2-2 أنشطة موازية داعمة

إن الأنشطة الموازية في الكتاب القرآني تختلف عنها في المدارس الحديثة الحالية. فهي عندنا في الكتاب جزء لا يتجزأ من العملية التعليمية. بحيث تؤدي مندجمة مع الأنشطة الأساسية دون فاصل ودون أن يشعر الطالب بتمايز بينهما.

وفي قاموس المصطلحات البيداغوجية والديداكتيك تعريف لهذه الأنشطة فيقول: "هي مجموع الأنشطة الفنية والرياضية والثقافية والاستطلاعية التي يقوم بها التلاميذ على هامش البرنامج الدراسي خارج المدرسة أو داخلها"²².

ويمكن الاستئناس بهذا التعريف ونشير إلى أن الكتاب عرف هذا النوع من النشاط منذ ظهوره كمؤسسة تعليمية تربوية في المجتمع الإسلامي، لأن أهم ما تهدف إليه هذه الأنشطة هو:

- تحديد النشاط الذاتي للطالب لمواصلة الحفظ وتعميق الفهم.
- الترويح عن النفس.
- خلق ظروف مناسبة لمشاركة الطالب في اختيار وإنجاز بعض الأنشطة المعينة الداعمة.
- تحفيز الطالب إلى المشاركة الفعالة في الحياة الدراسية، وربط جسور التواصل من خلال ذلك مع محيط الكتاب وبيئته.
- تثبيت المحفوظات والمفاهيم المكتسبة، وفتح آفاق امتدادات المستجدات في الحياة الدراسية للطالب.

22- مجموع علوم التربية، سلسلة علوم التربية، ط 1 سنة 1994.

- تحقيق جملة من المهارات الدينية والثقافية والاجتماعية والمهنية.

الأنشطة الموازية في خدمة الطفل المسلم

إن الفئة المستهدفة في هذه الأنشطة في الكتاب هو الطفل الذي يلج لأول مرة عالم القراءة والكتابة. فهو يحتاج إلى بعض ما يساعده على تكوين ملكاته وتفتيح قدراته وإبراز مواهبه وتنشئته سوي الطبع، يقول رسول الله ﷺ: "من كان له صبي فليتصاب له" أخرج ابن عساكر عن معاوية.

وبلغت العناية بهذا الجانب أنها مست بعض الآداب الاجتماعية كتعليمه كيفية تناول الطعام، وذلك ليشب على سلوك حضاري يمكنه من امتلاك الأسلوب الذي يتعامل به مع الآخر، فقد رأى رسول الله ﷺ يوماً ربيبه عمر بن أبي سلمة ويده تطيش في القصعة، فقدم له أدبا رفيعا يقول فيه: "يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك" والحديث أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

وهذا توجيه آخر بأسلوبه الجامع ﷺ يوجه به عبد الله بن عباس: يا غلام؛ إني أعلمك كلمات الخ... الحديث المشهور. وحتى يتم هذا الاستواء المتزن والسلوك القويم نبه عليه الصلاة والسلام إلى ضرورة تنشئة الطفل على الدين وتدريبه على أداء فروضه بالتدريج وترغيبه في ذلك: "مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع" أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما.

وفي هذا السياق التكاملي، لم يهمل الإسلام جسم الطفل والحاجة إلى تدريبه على تعلم الرياضات من رماية وسباحة وفروسية وما إلى ذلك مما كان شائعا في

عالم الرياضة على عهد المسلمين الأوائل، وهو توجيه تربوي مقرون إلى التعلم المتجلي في الكتابة "حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية" أخرجه الترمذي وابن حبان في كتاب الثواب، والبيهقي في الشعب.

وفي كل هذه الأنماط من التكوين والتعليم يدعو رسول الله ﷺ إلى عدم استعمال أسلوب الضغط والقهر الذي يفضي إلى التنفير، فقد روى الطيالسي في مسنده من حديث أبي هريرة: "علموا ولا تعنفوا" ولا مناص هنا للإشارة إلى وصايا لقمان لابنه التي تلخص ما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم جسميا وعقليا واجتماعيا. وهذه الآيات الكريمات تبين بأسلوب هو في قمة الرفعة والبراءة في العملية التربوية الفاعلة (يابني) (وهو يعظه) إنه خطاب غاية في التربية يستعمل التوسل والوعظ والتصغير للتقرب والتحبب والإشفاق.

الأنشطة الموازية محفزة إلى المشاركة الفعالة:

ليس هناك ما يحفز الطالب على الجد والتحصيل مثل هذه الأنشطة الداعمة، فلا بد في التعليم وخاصة حفظ القرآن والمتون والتمرس على تعلم المواد والفنون الشرعية، من حوافز.

والمسلم في حاجة إلى تذكيره وتحفيزه بشتى أنواع التحفيز الدنيوي والأخروي، وهو أسلوب تربوي جيد استعمله الرسول ﷺ في الحث على الجهاد يوم بدر- مثلاً- عندما يقول ﷺ: "والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة"²³ وبخصوص الحافز الدنيوي قال ﷺ يوم حنين: "من قتل كافرا فله سلبه"²⁴ فقتل أبو قتادة يومئذ

23- أخرجه ابن كثير عن ابن إسحاق في السيرة النبوية، وهي من تحقيق: مصطفى عبد الواحد، ج 2، ص 420 ط 1990 بدار الفكر، بيروت. وأورده كذلك السيد محمد رضا في كتابه: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ص 219 ط 2001 بدار الفكر- بيروت.

24- أخرجه البخاري عن أبي قتادة في غزوة حنين من كتاب المغازي، ولينظر الجزء الثامن من فتح الباري بشرح صحيح البخاري ولفظ الحديث: (من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه).

عشرين رجلا وأخذ أسلابهم . وذكر الرسول ﷺ في صلة الرحم وحسن الجوار
أنهما تعمرا الديار وتطيلان في الأعمار²⁵.

وسيرا على منهاج القرآن في التذكير والتحفيز: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾
[ص:30] يقول الرسول الله ﷺ: "نعم الرجل عبد الله بن عمر لو كان يقوم
الليل"²⁶.

وفي سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه كان حريصا أن يحفظ الناس
القرآن فكان يكتب لأولاد الأجناد: ارفعوا إلي كل من حمل القرآن حتى ألحقهم
في الشرف من العطاء-أي يزيد في عطائهم ويرسلهم في الآفاق يعلمون الناس-
فكتب إليه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أنه بلغ من قبله ممن حمل القرآن
ثلاثمائة وبضع رجال²⁷.

وهذا هارون الرشيد يكتب إلى الولاة والأمراء الأجناد يقول: أما بعد؛
فانظروا من التزم الأذان عندكم فاكتبوه في ألف دينار من العطاء ومن جمع
القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلماء ومقاعد الأدب فاكتبوه في
ألفي دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم واستبحر
فاكتبوه في أربعة آلاف دينار، حتى قال ابن المبارك: "فما رأيت عالما ولا قارئاً
للقرآن وسابقاً للخيرات ولا حافظاً للحرمان في أيام بعد النبي ﷺ وأيام الخلفاء
والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه، لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو
ابن ثماني سنين فيه أعطيات عظيمة"²⁸.

25- تراجع الأحاديث الواردة في الترغيب والترهيب للمنزري في: البر والصلة وغيرهما ج 3.
26- أخرجه البخاري في باب فضل قيام الليل عن سالم عن عبد الله بن عمر، وأخرجه كذلك في باب التعبير عن نافع
عن ابن عمر بلفظ: إن عبد الله رجل صالح لو كان يصلي من الليل. يراجع فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج
3 ص 5 ط 2 عام 1402 هـ بدار إحياء التراث العربي- بيروت.
27- إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء للخضري، مطبعة الاستقامة بالقاهرة .
28- فلسفة التربية الإسلامية للدكتور عمر محمد التومي .

فالتحفيز ضروري، فإذا نشط سوقه على الخير، تحركت الهمم نحوه واشترأت الأعناق نحو الفضائل، وحتى لو كان قصد بعض الناس الدنيا ابتداء فلا تلبث طبيعة الدين أن تجردهم نحو ابتغاء الله والدار الآخرة .

3- دور هذه الأنشطة في ترسيخ هذه الهوية:

هويتنا مستمدة من مقتضيات هذا الدين الذي قال فيه ربنا عز وجل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:19]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:85]. وهذه الهوية متجذرة في تاريخ أعماق أمتنا أصلها وسندها مكونات هذا الدين بعقيدته وشريعته وأخلاقه.

ولقد استطاعت الأجيال السابقة المخلصة لأصولها وعقيدتها ومناهج أسلافها الذين برهنوا للإنسانية جمعاء-بواسطة هذه الكتابات القرآنية- عن قدرتهم على احتواء الجهل والتخلف والتشتت، وتحويل كل ذلك إلى نور وإبداع وعطاء ووحدة وقوة مادية ومعنوية، استطاعت هذه الأجيال المحافظة على هويتها بالغالي والنفيس والدفاع عن العقيدة في وجه الغزو الحاقد كما استطاعت بفعل فهمها لأهمية الأصول في حياة الأمة وخطورة الانسلاخ عن الهوية الحققة، أداء الأمانة الملقاة على عاتقها، فبرأت ذمتها من مسؤولية البلاغ المبين، فشهدنا نحن أبناء هذا الجيل على مجهوداتها في أداء تلك المهمة الصعبة.

وإن غرس القيم الإيمانية والحقائق القرآنية في قلوب الناشئة وترسيخ المبادئ الحضارية التي تؤكد ما لهذه الأمة من أدوار وأعمال رائدة، والخروج من خندق التبعية العمياء والاعتماد على المكونات الثقافية الأصيلة هي السبيل التي تفتح باب المستقبل الوضاء بسراج العقيدة والقرآن وسلامة النفوس والقلوب.

والكتاتيب القرآنية نجحت منذ البداية في ترسيخ هذه الهوية وتثبيتها لأنها تراعي منهاجا تربويا متوازنا "وإن نجاح أي منهاج تربوي يتوقف إلى حد كبير على مقدار ما يراعي هذا المنهاج معتقدات الأمة وعاداتها وتقاليدها"²⁹.

فأول مكون لهذه الهوية، وتسهم فيه الكتاتيب بشكل فعال، مكون الوحدة والعمل الجماعي. إذ لا مكان تحت الشمس للفرد - وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية-. فالاجتماعات هي مظهر للطبيعة الاجتماعية للإنسان وهي جزء لا يتجزأ من حياة الناس داخل المؤسسات المختلفة، والكتاتيب القرآنية كرست هذا المفهوم بأنشطتها الموازية في داخل بنياتها أو خارجها؛ في المسجد الذي يجتمع فيه الطلبة خمس مرات في اليوم يتراصون في صفوف منتظمة خلف إمام واحد، ويستمعون إلى خطبة الجمعة وإلى الخطيب يتلو في آخر خطبته قول ربنا الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ولأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً﴾ [النحل: 90 و 91]. ويقول: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم الخ... ويستمعون إليه وهو يدعو مع أمير المؤمنين بالحفظ والنصر والتمكين وجمع الشمل ووحدة الصف والكلمة والنصر على الأعداء. ويجتمعون في الولائم والمآتم يؤطرونها وفي الاحتفالات بالأعياد الدينية والوطنية كالمولد النبوي الشريف ويوم عاشوراء والإسراء والمعراج والعام الهجري الجديد وعيدي الفطر والأضحى. ويشهدون المواسم كموسم الحرث والحصاد وقطف الثمار والزيتون. هذه الأنشطة الموازية مثلاً ترسخ في نفوس الناشئة القرآنية ثوابت الأمة، وتربطهم بأصالتهم وتراثهم ولدى صلاة

29- مجلة النداء التربوي، ع 1 / نونبر 1997.

الاستسقاء يتقدم الطلبة الجموع وألواحهم في أيماهم تيمنا وتبركا "إن الله عز وجل لا يغضب فإذا غضب سبحت الملائكة لغضبه، فإذا اطلع إلى الأرض ورأى الولدان يقرأون تملّى ربنا رضى"³⁰. "نحن ندعو إلى الاهتمام بالقرآن والسنة في آن واحد، سيما وأننا نريد الجمع بين عيدين؛ عيد المولد النبوي وعيد القرآن الكريم بالإضافة إلى العيد الثالث وهو الذكرى الذهبية لاستقلال المغرب"³¹.

إن الهوية تترسخ أكثر بالأعمال العظيمة التي لا تنجز إلا بمثل هذا التوحد والتكتل. فالطالب لا بد له من الشعور بانتسابه إلى هذه القبيلة المنصهرة في هذا الوطن الذي هو جزء من أمة عدد سكانها الآن أزيد من مليار وأربعمائة مليون مسلم فالعصر عصر تكتل، وكل عمل فردي ليس في الحقيقة إلا تضییعا للوقت. "إن الاجتماعات تعقد لأغراض شتى: من أجل الاحتفال بمناسبة ما أو من أجل التعليم أو من أجل ممارسة هواية أو عمل أو من أجل تبليغ أخبار ومعلومات أو من أجل استطلاع الآراء أو من أجل حل مشكل أو اتخاذ قرار أو من أجل إذكاء الحماس عند مجموعة أو من أجل التقريب بين وجهات النظر والمواقف المختلفة"³².

وتمارس هذه الأنشطة بأشكال متنوعة كتدعيم البرنامج المتبع في الكتاب المتعدد الأهداف الذي هو ديني أدبي فني يعتمد على الذاكرة والتجربة والملاحظة فتساعد على الحفظ مثلا الذي يتم على مراحل، وفي كل مرحلة يقيم أهل الطالب حفلا بهيجا يزخرف فيه لوحه بالألوان لتنمية ذوقه الفني وتشجيعه على الاستمرار، واستقبال المرحلة الموالية. وفيه كذلك إشراك أهل الطالب لمواكبة

30- مسالك الدلالة في شرح متن الرسالة ص2 للحافظ احمد بن الصديق.

31- محمد بن البشير الحسني نقلا عن جريدة التجديد، عدد 31/1374 مارس 2- أبريل 2006 .

32- مجلة النداء التربوي، ع1 نونبر 1997.

أعمال طفلهم وحته على مواصلة المشوار حتى تكون النتيجة سارة في أسرع وقت مبكر. ويضاف إلى حفظ القرآن حفظ بعض المواد الأدبية كنصوص شعرية وأمداح نبوية وغيرها.

وللاهتمام بهذا النشاط الإضافي، تعقد جلسات خاصة قد يترأسها بعض الطلبة المتميزين يتم فيها التنافس على الاستظهار والتباري في إتقان المشابه من الآيات البينات والمشكل من رسم القرآن حتى كان الصبي وهو لم يبلغ الحلم يحفظ القرآن عن ظهر قلب مع إتقان رسمه وضبطه.

والحقيقة أن هذه مهمة شاقة ومكلفة، ولكن الله تعالى قيظ لها فقهاء أخلصوا النية، وأشربوا في قلوبهم حب القرآن، راحوا يعلمون دون أجر إلا ثواب الله تعالى، هؤلاء الجنود على تواضع هياهم لم يدخروا وسعا في خدمة هذا الكتاب المقدس، فاعتبروا مهمتهم رسالة إنسانية، فوقفوا أنفسهم للقرآن في غير ما ملل ولا كسل ولا فتور "فخيركم من تعلم القرآن وعلمه" كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه عنه عثمان بن عفان وأخرجه البخاري.

ومن أهم هذه الأنشطة الرياضية البدنية، غير أن الكتاب لم تكن له حصص خاصة بهذا النشاط وإنما هي مجرد ألعاب عفوية يقوم بها الطلبة داخل الكتاب أو في ساحته أو في فضاء خارجي مناسب؛ عشية الأربعاء ويوم الخميس أو في أوقات ليلية، وغالبا ما كانت تمارس بعيدا عن أنظار الفقيه توقيرا واحتراما له؛ وهناك أنواع من الرياضة التي كانت معروفة وقته كالمصارعة والكرة التي كانت تصنع من الحلفاء وتتقاذف بالعصي. والفقيه يحترم البرنامج الأسبوعي للطلبة فيما يخص النشاط الموازي ويتغاضى عن الهفوات التي قد تصدر منهم خلال ممارستهم لهذه الأنشطة ولو كانت داخل حجرة الدرس، وقد حكى لنا بعض أصدقائنا رحمهم الله عما وقع لهم في أول حياة الدراسة والطلب في الكتاب أن

فقيهم كان كثيرا ما يباغتهم يتصارعون عشية الأربعاء-وهي عشية خاصة تنطلق فيها الأرواح والقرائح يتحرر فيها الطلبة من كل قيد فيندفعون اندفاعا نحو اللهو البريء والتسلية المريحة المشروعة كما سنرى في النموذج الذي نستدل به- فيحترم صبيانها هم، ويقابل ذلك بابتسامة عريضة ثم ينصرف.

وهناك ما هو ثقافي من هذه الأنشطة كخطبة الجمعة والإنصات إليها وحضورها في جوامع مختلفة لاختصار محاورها وإلقائها أمام الطلبة في جلسات خاصة ومناقشتها. وقد ينتدب بعض الطلبة للقيام بهذا الواجب نيابة عن الفقيه في حالة غيابه، أو مرضه أو في العيدين لدى جماعات بعيدة عن الكتاب لا تتوفر على مسجد جامع. ومن نافلة القول أن نشير إلى حفظ بعض المتون العلمية كالأجرومية وابن عاشر وتحفة الأطفال والجزرية وبعض القصائد الشعرية كـ"لامية ابن الوردي ولامية العجم"، فهذا في الكتابات التي تزواج بين عمليتي التحفيظ والتدريس من الضروري الذي لا يستغنى عنه. وبعض الكتابات كانت تعقد فيها حلقات خاصة لسرد حكايات وقصص الصالحين من سيرة الأنبياء والرسل ومواقف العلماء الأجلاء.

ومن خلال هذه الأنشطة يتبادل طلبة الكتابات الزيارات فيما بينهم قصد الاطلاع على مستجدات البرامج التعليمية وطرق التحفيظ ويتعرفون على النهج الذي يسلكه بعض الفقهاء الذين يذيع صيتهم في هذا المجال ويتنافس الطلبة وأولياؤهم على زيارتهم للتبرك والدعاء.

وهناك أنشطة أخرى تقنية ومهنية (ما يسمى اليوم بالتكوين المهني)، فالطالب يتعلم فن الحراثة والزراعة والحصاد وتربية المواشي والدواجن والتجارة في السوق، وسقي الأرض، ويتعلم تقنية خياطة الجلابيب والقمصان وذلك اقتداءً بفقيهه الذي يقوم بها بنفسه بمعونة طلبته أو تحت إشرافه خاصة فيما يسمى بعملية (تويضة) لخدمة أرض أو رعاية بستان تحبسه الجماعة على الكتاب.

وتشمل هذه الأنشطة حتى الإناث، لأن تعليم القرآن لم يكن يوماً ما مقتصرًا على الذكور "فتاريخ التعليم في المغرب يسجل بفخر انتشار المكاتب المخصصة لتعليم الإناث في عدد من المدن المغربية، واستمرت في أداء وظيفتها إلى أواخر القرن الماضي والعقود الأولى من القرن العشرين، وبعضها كان يعلم إلى جانب القرآن والقراءة والكتابة عدة صناعات نسائية كالخياطة والطرز والحياكة"³³.

وأهم نشاط موازي يرسخ هوية المتعلم في الكتاب ويربطه بمقومات الدين والوطن، هو التمرس على اللغة العربية قراءة وكتابة، فاللغة تهيمن بشكل سريع بوسائل مختلفة منها: اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية وإعلامية. فالأفلام والموسيقى والمسرح والأغنية والنشيد كل هذا وسيط أساسي في نقل لغة ما إلى الفرد، ولذلك تتعدد المواد اللغوية التي تدرس في الكتاب، ويعنى بها العناية الفائقة، يقول الدكتور السامرائي: "ولقد تنبه علماءنا -رحمهم الله- إلى هذه القضية المهمة وكانوا يدركون تماماً أن العربية من الدين، وأنه لا سبيل إلى فهم العقيدة والتزام الشريعة بغير العربية. وبذلك يقول الإمام الشاطبي (ت سنة 790هـ) في الموافقات: "إن هذه الشريعة المباركة عربية، فمن أراد تفهمها فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطّلب فهمها من غير هذه الجهة" ومن هنا يقول الإمام الشافعي رحمه الله (150 - 204هـ): "فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويتلو به كتاب الله وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ومن التسبيح والتشهد وغير ذلك..³⁴".

33- العلوي سعيد بن سعيد: الاجتهاد والتحديث، مالطة، مركز دراسات العالم الإسلامي 1992 ص 236 نقلا عن مجلة الإحياء عدد 24 ص 67 / يوليو 2005.

34 - في شرف اللغة العربية للسامرائي، ص 17.

ونشير إلى أن هذا الاهتمام الذي توليه الكتابات باللغة العربية إنما من أجل الحفاظ على أهم مقومات هذه الأمة، ولأنها، أي العربية، من أهم عناصر خلود هذه الأمة. وقد ثبتت الأمة في وجه أعاصير ما نالت منها، وهناك اليوم رياح أخرى تحاول زعزعة هذا الكيان الخالد تهب من نفس الجبهات، تروج لما يسمى بالبربرية أو الأمازيغية، التي حسب ادعاءات مروجيها، لغة مقعدة، لها تراث يجب إحيائه، ويجب تدريسها في المدارس والجامعات. وهي محاولات نخشى أن تكون بدافع من التعصب أو سوء الفهم تروم إلى النيل من هذا الدين الذي بني أساسه على اللغة العربية. ونحن لسنا ضد نقل المفاهيم وترجمة الأفكار وشرح المعاني بالبربرية، ولو خطبة الجمعة، لأن الهدف هو التبليغ بلغة المخاطب، فقد روى البخاري عن أبي هريرة أن أهل الكتاب كانوا يقرأون التوراة بالعبرية ويفسرونها للمسلمين بالعربية، فقال النبي ﷺ "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون"، "وعلى الخطيب اجتناب الألفاظ التي لا يعرفها إلا الخواص فإن المقصود نفع الحاضرين بالترغيب والترهيب، وهذا من البدع القبيحة، ونظير ذلك: أن يخطب للعرب بألفاظ أعجمية لا يفهمونها، والله أعلم"³⁵.

فالعربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، لأن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب - كما يقول ابن تيمية في (اقتضاء الصراط المستقيم).

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (تعلموا العربية فإنها من دينكم) وفي

35- القول المبين في أخطاء المصلين، لمشهور حسنين سلمان ص 372.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ آية 124 من سورة الأنعام، يرى بعض المفسرين أن المعنى : أن الله يعلم حيث يجعل رسالاته: نبيا وزمانا ومكانا وقوما وأرضا ولسانا. وما دام الله تعالى قد اختارها لغة لهذا القرآن ولهذا الدين، فهي لغة خالدة في سعتها ومرونتها وقدرتها على تقديم أساليب التعبير المختلفة، والاستجابة لكل الظروف والأحوال التي يكون عليها الناس، والاستجابة للإنتاج الحضاري في سائر العلوم والفنون، ولذلك قال الشاعر العربي حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية:

وسعت كتاب الله لفظا وغاية فكيف أضيق اليوم عن وصف آله

نموذج من أنشطة موازية من كتاب قرآني

الكتاب هو: معهد الإمام مالك لتحفيظ القرآن وتدريس العلوم الشرعية الكائن بحج أولاد إبراهيم بالناظور. تأسس في أكتوبر سنة 1991م. يستقبل كل عام أفواجا من الراغبين في حفظ القرآن الكريم ودراسة العلوم الشرعية. لهذا الكتاب صيت مهم على الصعيدين الوطني والخارجي لدى الجالية المغربية في الديار المهجرية.

تشرف على تسيير شؤونه المادية والتربوية جمعية من المحسنين وأهل الخير بمدينة الناظور. شارك المعهد في عدة لقاءات ومؤتمرات ومجالس بوحدة والرباط وبركان والناظور وأكادير حول وضع برامج ومقررات التعليم العتيق. وهو الآن منخرط ضمن قانون التعليم العتيق الصادر سنة 2001م من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

كتاب معهد الإمام مالك حصد عدة شهادات في حفظ القرآن وجوائز في مباريات الحفظ والترتيل على الصعيد الوطني وعلى صعيد بعض الدول

الإسلامية (مكة المكرمة). نال جائزة محمد السادس للكتاتيب القرآنية أول تنظيمها سنة 2003م، يسير نحو استكمال برامجه سيراً حثيثاً ليكون مدرسة قرآنية تلي رغبات المتعلمين والمتعلمات.

نماذج من أنشطة موازية في هذا الكتاب

يولي كتاب المعهد لهذه الأنشطة أكبر اهتمامه لأنها أنشطة داعمة ومسلية ومحفزة في آن واحد، ومن أهمها:

- الحرص على قراءة الحزب برواية ورش عن نافع كورد صباحي ومسائي.
- عقد جلسة أسبوعية تسمى (جلسة الأربعاء) يترأسها وينشطها ويؤطرها مدير المعهد، تخصص للمذاكرة والمداولة في شتى المواضيع الفقهية والوعظية والعامة المتعلقة بالمناسبات الدينية والوطنية وغيرها.
- انتداب لجنة خاصة مكونة من الطلبة للسهر على تسطير برامج أنشطة يتناوب على تقديمها طلبة الكتاب كل يوم ثلاثاء وجمعة بين العشاءين تلقى فيها عروض وتعرض مسرحيات وندوات وتقدم محاضرات مسجلة تعقبها مناقشة وتعقيب.

أضف إلى هذا ما يتمرن عليه الطلبة من نوافل وقيام الليل وأوراد من الذكر ومناقشة إصدارات جديدة من الأبحاث والمجلات والكتب.

ويتنافس الطلبة من خلال أنشطة اجتماعية تعلمهم التعاون والتكافل والتحاب منها عيادة المرضى في المستشفيات وفي البيوت وتشجيع الجنائز وغسلها وتكفينها وتقديم العون للمعوزين والأرامل واليتامى ولو بالدعاء الصالح (فكثير من ولائم العقيقة يجذب أصحابها أن تكون في الكتاب تيمناً وتبركاً).

ويعقد الكتاب شراكة مع بعض الجمعيات الفاعلة إما لتنظيم مباريات في

حفظ القرآن وتجويده أو للقيام بأعمال اجتماعية كالترع بالدم فيتنافس الطلبة بأريحية كبيرة في التبرع بدمهم حتى بلغ إحصاء من تبرع منهم في رمضان 2005 أزيد من 60 طالبا من مجموع حوالي 218 متبرعا ومتبرعة. وأكبر دليل على فاعلية هذا النشاط هو ما أبداه كتاب المعهد من تضحية واستماتة في كارثة زلزال الحسيمة الذي ضرب المنطقة، فهب الطلبة يساهمون كل حسب طاقته، وقاموا برحلتين اثنتين إلى المناطق المنكوبة بإقليم الحسيمة متواصلين ومتعاونين ومتكافلين مع إخوانهم هناك، ووقفوا على كتاب قرآني بمدينة امزورن تشققت جدرانها من أثر الزلزال، وعوضوه بخيمة كبيرة تؤدي فيها الصلوات ويحفظ فيها القرآن الكريم.

وتنظّم مباريات في اختيار أحسن حجرة للإيواء تراعى فيها عناصر مختلفة: كالنظافة والترتيب والتناسق والجمال.

تختتم جميع هذه الأنشطة بحفل سنوي أو دوري توزع فيه جوائز وشواهد تقديرية، وهو أمر ضروري أن يثاب على الفعل الحسن كما قد يعاقب على الفعل السيئ.

فالثواب من الوجهة النفسية حافز ومنبه يؤدي إلى تكرار الفعل الحسن واجتناب الفعل القبيح.

والمنهج الإسلامي يقبل هذا الأسلوب في تنشئة الطفل، ومن الأدلة على ذلك ما رواه عبد الله بن الحارث رضي الله عنه حيث قال : "كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله وكثير أبناء العباس رضي الله عنهم ثم يقول : من سبق إلي فله كذا وكذا، قال: فيستبقون إليه فيقفون

على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم" - أحمد في المسند ج 1 ص 214³⁶.

والكتاتيب القرآنية حين تنظم هذه الأنشطة وتثيب عليها، فإنها تشجع طلبتها على تكرار الفعل الطيب كما تستثير همتهم كي يداوموا عليه، وهكذا يكون للروايز دورها الأساسي في تدعيم الاستجابة الطيبة كما أنه يتدخل بشكل إيجابي ليساهم في التأثير على الذات صاحبة النشاط المثاب عليه مما يكسبها ثقة واعتزازا ورضى.

وهذا كله يتم تحت المراقبة المستمرة لإدارة المعهد حتى يكون لهذه الأنشطة دور فعال في غرس القيم والمثل، وحتى يتعلم الطلبة أشكال الحوار، وتبادل الآراء، وقبول الرأي المخالف، وحتى يلموا بتاريخ بلدهم، ويتشبثوا بثوابت أمتهم ويتمرنوا على الدفاع عنها والاستماتة من أجلها. فبهذه المراقبة يتبين مدى أثر التلقين في تهذيب السلوك وتعديله.

خاتمة

إن جميع هذه الأنشطة يجب أن تكون تربوية هادفة مرتبطة بالدين لأن القصد هو أن تكون مبنية على الإسلام وقيمه وفضائله، وأن تكون متكاملة، لا تعنى بجانب وتهمل غيره، وأن تهتم بجسم الطالب، تكونه، وتنميه وتقويه، وتعنى بعقله، تعلمه وتفقهه، وترعى نفسه بالتأديب والتهذيب حتى يكون عند اكتمال رجولته واعيا بالمقتضيات المتحدث عنها، مدركا ضرورة قيامها لتكون الحياة، ويكون قادرا على الاضطلاع بدوره فيها، وليصبح قوة في هذا المجتمع، يحسن التصرف والتعامل، مفتاحا للخير، مغلاقا للشر.

36- مجلة الإحياء، عدد 24 ص 199/ يوليو 2005.

وبهذه الأنشطة لعبت الكتابات أدواراً طلائعية داخل الأمة الإسلامية في فترات تاريخها الطويل، وعن طريقها تعلم الناس دينهم وحفظوا كتاب ربهم، وساهموا في الإشعاع العلمي والثقافي، ولعبت دوراً كبيراً ومهماً في مقاومة الاستعمار. كما أنتجت مجموعة من الخريجين برهنوا على كفاءتهم وقدرتهم العلمية، ونافسوا بها الكفاءات الأكاديمية والجامعية، ورفعوا راية الأمة، وحافظوا على شخصيتها وكيانها، وزخرت بمؤلفاتهم المكتبات العامة والخاصة، وحملوا الأمانة، وكانت تشد إليهم الرحال في طلب العلم.

وإن الواقع المأساوي الذي نعيشه، بالرغم من النمو المتتالي للصحة، يدعونا إلى الأخذ بعين الاعتبار أن أزمة الهوية في بلداننا الإسلامية خاصة العربية تعود إلى هشاشة البنية الثقافية، والخلل في الاعتقاد من جهة، وإلى انتشار الثقافة العلمانية بشكل سريع ومثير للغاية من جهة ثانية، ولذلك تضيع معالم الهوية بالتدرج لتتشكل من جديد وفق النموذج الذي تفرضه علينا العولمة قسراً وعدواناً.

وللحفاظ على المعالم الإسلامية لهويتنا، كما تستوجب الضرورة العقدية والحضارية والتاريخية، ولتحويل النكسات إلى انتصارات، ولنعيد للذات الإسلامية عزتها وفحولتها الحضارية وقوتها التي تمكنها من الوصول إلى مرتبة الخيرية والشهادة على الناس، لابد من إعادة الاعتبار للكتابات القرآنية، فهي المؤهلة - كما كانت من قبل - للصمود في وجه المؤامرات والتخطيطات التغريبية، فهي من يجاهد ما استطاع للحفاظ على الذات من الذوبان، ويصمد في وجه المد التغريبي الجارف والعولمة المتسلطة.

المحور الثالث

خصوصيات الكتابيب القرآنية حسب المناطق

تحفيظ القرآن الكريم بالمدرسة الموريتانية (المحضرة) مناهجه - آلياته - نتائجه

الشيخ بن محمد بن الشيخ أحمد

من علماء موريتانيا

تقديم

لقد عني الشناقطة الموريتانيون بتربية وتهذيب الأبناء وتوجيههم لحفظ القرآن الكريم أثناء الطفولة المبكرة ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله ما ترجى لهم بركته، وتحمد لهم عاقبته، وقد وضعوا هذه المهمة برمتها على عاتق مؤسسة سموها قديما ب (المحضرة). فما هي المحضرة؟

التعريف بالمحضرة

المحضرة مؤسسة من مؤسسات التربية العربية الإسلامية الأصلية تحمل بعض خصائص وسمات النظام التربوي الذي نشأ وازدهر في أحضان الحواضر ومدن الخلافة الإسلامية ولكنها تمتاز بسمات هي فيها أبين وأبرز أو هي خالصة لها دون غيرها من المؤسسات التربوية العتيقة فالمحضرة مدرسة شعبية، جامعة لشتات العلوم، بدوية، متنقلة أحيانا، تلقينية، فردية التعليم، طوعية الممارسة.

اشتقاق كلمة محضرة

لم يسم الشناقطة مؤسستهم التربوية (كتابا) ولا خلوة، ولا زاوية، ولا مدرسة لاختلافها عن ذلك وإنما اشتقوا لها اسما خاصا ظل مظهرا من مظاهرها المميزة لها عن المؤسسات التربوية الأخرى.

فالمحضرة مشتقة من الحضور ويشهد لذلك قول لبيد:

أقوى وأقفر واسط فبرام من أهله فصائق فحرام

فالواديان وكل معنى منهم وعلى المياه محاضر وخيام

فالمقصود من المحاضر هنا المناهل يحضرها الناس ويجتمعون حولها.

وقد وردت المحضرة بمعنى المدرسة في مراجع تاريخية وفقهية:

ففي رحلة ابن جبير المتوفى 614 هـ عند استعراضه لمعالم مدينة القاهرة ومآثر صلاح الدين الأيوبي فيها: "ومن مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين أنه أمر بعمارة محاضر فألزمها معلمين لكتاب الله العزيز يعلمون أبناء الفقراء والأيتام وتجري عليهم الجراية الكافية لهم".

وجاء في المعيار للونشريسي المتوفى 914 هـ: "وسئل القاضي أبو عمرو بن منظور عن إمام مسجد وأضيف لذلك المسجد المذكور محضرة يقرئ فيها الأولاد وصدر أمر مولانا السلطان بدرهمين ليقوي راتب ذلك المسجد فانفتحت فوقها محضرة ثانية فتفرقت الأولاد ونفرت أفيجوز له أن يؤاجر على ولدين؟ فأجاب يجوز له أن يبقى في محضرة يقرئ كتاب الله وإن لم يبق من الأولاد إلا واحد أو اثنان ويأخذ ما عين له السلطان".

نشأة المحضرة

نشأت المحضرة على عهد أمير (لمتونة) يحيى بن ابراهيم لكدالي بعد انتدابه للمعلم الأول عبد الله ابن ياسين الجزولي سنة 440 هـ¹. وترعرعت المحضرة على أرض المرابطين ثم ازدهرت في المراكز الحضرية مثل تينيكسي ووادان وشنقيط

1- انظر المنارة والرباط، ص: 63. وانظر في نشأة المحضرة كتاب: أليس الصبح بقريب لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي ص 72.

وأزوكي وولاته وتيشيت ثم انتشرت في البوادي حاملة معها روح بث العلم وترسيخ الأخلاق الفاضلة مبرهنة على صدق التوجه وعفوية المنهج صابرة على وسائلها الأهلية مستمرة في بث المعارف حتى في فترات الغزو والترحال. يقول العلامة المختار بن بونة المتوفى 1220 هـ:

قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة بها نبين دين الله تبياناً

المناهج والأساليب

ينقسم التعليم بالمحضرة إلى قسمين:

تعليم الصغار وتعليم الكبار

فأما تعليم الصغار (الكتاب) فإنه ينقسم إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: وتبدأ عند ما يبلغ الطفل خمس سنوات فإذا بلغها اختبر بسرد الأعداد من واحد إلى عشرة بعد تلقينه بعض الأذكار والأدعية في كلمات موجزة، وأناشيد في سيرة النبي ﷺ، وذلك مثل

مولده بمكتا	وبعشه بمكتا
إسـراؤه بمكتا	وقبره بيثرب
إنكار ذا كفر جلي	وواجب على الولي

تعليم هذا للصبي

ومن هنا يصل التلميذ إلى مرحلة التمرين على الحركات مشبعة بأحرف المد (با، بو، بي)². وتكفي التلميذ لمعرفة التهجي خمسة أشهر غالباً إلا أن بعض الناهجين من الأطفال يأخذونها في مدة وجيزة.

2- المنارة، ص 170.

فيروى أن الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار مؤلف "أضواء البيان" عندما وصل هذه المرحلة (با، بو، بي) قالت له معلمته قل: (با) فتحة بالألف، (بو) ضمة بالواو، (بي) كسرة بالياء.. فقال لها أهكذا سائر الحروف؟ قالت: نعم فقال تجاوزي هذا الدرس ثم بدأ يطبق ذلك على سائر الحروف.

فإذا تمت هذه المرحلة بدأ الطفل في تهجي بعض الكلمات مثل أسماء الأعيان والجمل القصيرة وتكتب له أبيات من البردة مثل:

الحمد لله منشي الخلق من عدم ثم الصلاة على المختار في القدم

يارب صلي وسلم دائما أبدا على حبيبك خير الخلق كلهم

ثم يتفقون بعد ذلك على الابتداء بالفاتحة والإخلاص والمعوذتين ثم يبدأ بسورة الأعلى ليكمل جزء (عم) ثم يترقى مع الأجزاء حسب الأحزاب (قل أوحى، تبارك، يسبح.. فصاعدا).

وفوائد هذه الطريقة أن البدء بالسور القصار يعطي الطالب تدرجا يستطيع به التعامل مع هذه السور كوحدات مستقلة من السهل حفظها بوصفها جزئيات توصله إلى الحزب ثم الجزء ثم السور الطوال كسورة البقرة وآل عمران مثلا وهكذا.

هذا بالإضافة إلى أن الطالب عندما يراجع محفوظاته من السور يبدأ من آخر جزء يحفظه ليرتب القرآن ترتيبا صحيحا وليبدأ بمراجعة آخر درس تم حفظه وهكذا.

نشاط اليوم الدراسي

وهنا نطل بإذن الله تعالى على المدرس وهو في الميدان مع تلامذته من بداية اليوم إلى نهايته.

يتفق جمهور المدرسين على أهمية التذكير "الحضور في وقت مبكر" حسب الوقت الممكن لقوله ﷺ في الصحيح: "واستعينوا بشيء من الدلجة" وفي الأثر: "اللهم بارك لأمتي في بكورها..".

قال بعضهم:

بالسحر أبع الحفظ فالغدوة ثم وسط النهار وهو بالليل أتم

ومن هنا تتسابق الأمهات في إيقاظ أبنائهم وقت السحر للذهاب إلى المعلم وربما تطلب الأمر خروج الأم مع ولدها لتوصله بنفسها إلى المحضرة وقد ينادي المعلم يا فلان يا فلان، فيليبه التلاميذ.

وقد يكون الآذان عند السحر أو عند الظهر بمثابة الجرس الذي تهتز له قلوب الأطفال فإذا جاءوا عند السحر وجدوا المعلم قد أشعل النار بالخشب الذي هو أهم الوسائل المستخدمة للإنارة والتدفئة، وهنا يتنافس التلاميذ نحو الهدف الكبير وهو الحفظ المؤكد للدروس المصححة في الألواح وقد يتسع اللوح لدرسين إلى أربعة إلى ستة.

وهنا ينصت المعلم لمتابعة قراءة الجميع لا يشغله عن ذلك شيء فيوقف هذا عند خطئه ويصلح لهذا ويفتح على هذا.

ثم يتوافد عليه التلاميذ واحدا تلو الآخر ليعرضوا ما تم حفظه من الدروس وليأخذ كل تلميذ تأشيرة محو الدرس القديم ليستبدله بالدرس الجديد، وعندها يتأكد تكرار هذا الدرس المحو ريثما ما يصبح اللوح جاهزا والمحبرة حاضرة.

وهكذا يجلس عشرات التلاميذ ليتلقوا من المعلم الدرس الجديد (ثن، نصفه، ربعة) فيكتبوه كلمة كلمة أو جملة جملة، وهنا يلتفت المدرس يمينا وشمالا حتى يعطي لكل تلميذ جملة التي يسأل عنها بواسطة التلقين ملتزما بتبليغ كل آية أو

كلمة أو بيت للطالب وذلك لانعدام الأجزاء المطبوعة وندرة المصاحف والكتب التي لا يوجد منها إلا المخطوط غالبا وعند النهاية يقومون بتصحيح الدروس كل بمفرده.

ولايزال التلاميذ يراجعون الدرس الجديد من أجل حفظه ويكررون ما تم حفظه من السور والأجزاء حتى يصل إلى الصبح فيسرح بعضهم ثم يسرح الباقون عند الضحى العالي.

فترة الظهيرة

تلك هي الفترة الصباحية الأولى وأما الفترة الثانية فتبدأ مع الأذان للظهر حيث يحضر التلاميذ ليصححوا دروسهم من جديد ويبدأوا تكرارها حتى إذا فرغوا من حفظ ألواحهم عرجوا لتكرار الأجزاء التي تم حفظها إلى صلاة العصر فيسرحون.

وكان بعض المشائخ يكره حبس التلاميذ بعد صلاة العصر.

الفترة المسائية

ثم يعود التلاميذ إلى ميدان الدرس قبل غروب الشمس لتأكيد حفظ الدروس ومراجعة المحفوظات حتى تصلى العشاء فيسرح صغار التلاميذ ويستمر الكبار إلى أوقات النوم.

وتمتاز هذه المرحلة بأن المعلم فيها يقوم بوظيفة المؤدب ومعلم (الكتاب) كما هو الشأن في المدن العريقة في العالم الإسلامي قديما.

فقد روى غياث بن أبي شبيب قال: كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ (ت82هـ) يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان في الكتاب فيسلم علينا.

ويروى أن عبد الله بن غانم قاضي القيروان من أصحاب مالك (ت190هـ) دخل عليه ولده فسأله عن سورته فقال حولني المعلم من سورة الحمد أي أنه أتقن حفظ الفاتحة فقال له اقرأها فقرأها³...

وإذا كانت هذه المرحلة تتم بإشراف المؤدين وأصحاب الكتاب فإنها هي المرحلة التي تسند إلى النساء المدرسات بالمحاضرة⁴. ويعللون ذلك من الناحية التربوية بأن الولد في هذه المرحلة أكثر ألفة للنساء فيسهل عليه الأخذ منهن لذلك أسندت الشريعة الإسلامية حضانة الطفل ورعايته للنساء لأنهن أوفر حناناً وأكثر فراغاً.

كما أن الرجال مشغولون بتوفير الأمر وأعمال التكسب وتعليم الكبار من الطلبة.

قال العلامة محمد سالم بن عبد الودود-حفظه الله- كانت المحاضرة تمثل أعلى درجات التعليم ولذا يخطئ كل الخطأ من يقيسها بالكتاب، فالكتاب في البلاد العربية مرحلة ابتدائية من التعليم الأهلي الموريتاني أي مرحلة الطفل عندما يكون مع والدته أو جدته أو عمته التي تعلمه مبادئ القراءة والكتابة،⁵ وتنتهي هذه المرحلة بختم الطفل للقرآن الكريم للمرة الأولى ويسمونها "الذهابة" ولعلها مشتقة من كثرة الذهاب إلى اللوح (ثلاثة مرات لليوم).

وقد تنتهي هذه المرحلة على يد معلم يأخذ الأجرة مقابل تحفيظ القرآن الكريم للأولاد حسب نظام يسمونه بالمشارطة وهي مشتقة من وضع الشروط لهذه المعاملة وقد حرروا في ذلك فتاوى ونوازل وألفوا فيه منظومات هامة منها

3- انظر: أليس الصبح يقرب للإمام: محمد الطاهر بن عاشور، ص 75.

4- الوسيط، ص 517.

5- انظر: دور المحاضر بموريتانيا لمحمد المصطفى بن الندى رحمه الله، ص 33.

نظم النابغة الغلاوي الذي يعتبر تشريعا مدرسيا متكاملا⁶.

المرحلة الثانية من التعليم المحضري

وبعد اكتمال المرحلة الأولى بحفظ الطالب للقرآن الكريم عن ظهر قلب حسب الإجراءات المعروفة عندهم (باتباع الولد للشهود) أو تتزيل القرآن الكريم وذلك عن طريق سماع شاهدي عدل للقرآن الكريم من الطالب فإذا عرض عليهما القرآن الكريم بدون أخطاء كثيرة استحق الشيخ أجرته، بعد هذا كله يتقدم الطالب إلى المرحلة الثانية ويسمونها (السلكة) وربما يكون اشتقاق هذا الاسم من السلك الثاني الذي هو شائع في مصطلح التعليم المعاصر، ففي هذه المرحلة يبدأ الطالب بدراسة علوم القرآن الكريم بدءا برسم المصحف وضبطه ليعرف أحكام وقواعد الرسم والضبط فإذا أكمل فهم المعاني وحفظ النصوص أصبح بارعا في الاختبارات على الأرض، ويدرس الطلاب في ذلك رسم الطالب عبد الله المسمى: "المحتوى الجامع رسم الصحابة وضبط التابع"، وقد تعودوا على تمرينات رياضية يختبرون بها معرفة الطالب لهذا الفن حيث يجلس الطالب على الأرض فيلتف حوله كثير من الطلاب كل يسأل عن كيفية رسم كلمات كثيرة فيرد عليهم بإشارات على الأرض اصطلاح عليها الطلاب ويسمونها بالضمائر وهي شهيرة عند طلاب المحضرة.

ثم يبدأ الطالب بكتابة القرآن الكريم مرة أخرى ليتدرب على كتابته رسما وضبطا من جهة، وليطبق أحكام التجويد والأداء أمام الشيخ من جهة أخرى وطريقة ذلك أن يكتب الطالب درسه (ثمن الحزب) فيجلس أمام شيخه ليجود الدرس ويعالج سائر الأصوات اللازمة لتجويد القرآن الكريم معتمدا على التلقين، لأن الطالب في هذه المرحلة لا يدرس قواعد التجويد ومتونها نظريا إلا

6- انظر الملحق.

بعد ختم القرآن الكريم بهذه الطريقة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الطلاب تعودوا على اختبارات للحفظ والتجويد تقام بإشراف المدرس كل ليلة أربعاء.

فإذا انتهت دراسة القرآن الكريم على هذا النهج (السلكة) تقدم الطالب نحو أحكام التجويد وأصوله ليكتب منظومة "الدرر اللوامع في أصل مقراً الإمام نافع" للشيخ أبي الحسن علي بن بري التازي المغربي المتوفى 731هـ.

فيكتب درسه من هذه المنظومة على الشيخ ثم يدارسه الشيخ معاني النص وأحياناً يكتب من الطرر والشواهد التي يحفظها الشيخ حتى ينتهي الكتاب فيستوعب الطالب النص والشواهد والطرر ويحفظ ذلك كله عن ظهر قلب.

طريقة التحصيل الدراسي

لابد أن يتبع الطالب في الدراسة تسلسلاً معيناً لا ينبغي أن يخل به إذا كان حريصاً على إتقان درسه، ويكون هذا التسلسل على النحو التالي:

كتابة الدرس — تصحيحه — حفظه — شرحه — مدارسته.

وقد نظم العلامة محمد فال ولد متالي الشنقيطي التندغي هذه المراحل في بيتين فقال:

كتب إجازة وحفظ الرسم قراءة تدريس أخذ العلم

ومن يقدم رتبة على المحل من ذى المراتب المرام لم ينل

وأهم مراحل هذه المنهجية حفظ المتن فهو شرط عندهم لترسيخ المعاني وهم بعد فهم المعاني يحرصون على أن لا ينسوا النص لأن نسيانه يؤدي إلى نسيان المعنى، ولهم في ذلك مبادئ تربوية وأمثال مأثورة يعبر عنها قول أحد العلماء:

تكتب العلم وتلقي في سفظ ثم لا تحفظ لا تفلح فقط

إنما يفلح من يحفظه بعد فهم وتوق من غلط

والسفظ: وعاء لحفظ الكتب، ويلاحظ هنا أن مرتبة الفهم مقدمة في هذين البيتين الأخيرين على مرتبة الحفظ وتلك منهجية يدافع عنها بعض العلماء اليوم.

ولا يخفى أن دراسة المتون تمر بطريقة التدرج من الجزئيات إلى الكليات والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿لَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ...﴾⁷ فالرباني هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره.

وعليه فالتدريس للمبتدئ محصور في محاولة فهمه للنص دون توسع لأن التوسع في المعاني وما يرمي إليه النص من الشواهد والإحالات يحتاج إلى مرحلة أخرى (إعادة المتن مرة ثانية).

وقد نظم الشيخ أحمد التيشيتي هذه المبادئ في كتابه مصباح الفقيه فقال:

العرفي: الأصل في الإقراء تقريرنا المتون باستقراء

وما على ذلك زاد الضرر - من نفعه للطالين - أكثر

وطالب الفخر أو التكرار بالمتعلمين ذو إضرار

إلى قوله:

إن الزيادة لدى المبادي تشتت الذهن وأحرى البادي

أي المبتدئ وكانوا يكرهون له دراسة متنين في زمن واحد لقول أحد العلماء.

وفي ترادف الفنون المنع جا إن توأمان استبقا لن يخرججا

7 - سورة آل عمران الآية 79.

فإذا أنهى الطالب المبتدئ المتن ترقى لإعادة الكرة إما بدراسته مرة أخرى دراسة معمقة وإما بدراسة متن أوسع منه.

أما حفظ المعاني فيرتكز على: المداورة والتكرار وهو ركن أساسي في الدراسة المحضرية ذلك أن (من ترك التكرار لا بد أن ينسى) كما هو شائع، ويقوم الطالب في هذه العملية باستحضار كل ما صدر عن أستاذه من شروح وتفسيرات حول النص ويعيد استحضار ذلك مرة بعد مرة بقراءته على نفسه جهرا وقد يستعين بكبار الطلبة الناهين أو بزملائه الذين يشاركونه الدرس ويسمون بـ (الدولة) وهي بضم الدال (اسم الشيء الذي يتداول) وهؤلاء يتداولون المداورة ويلزمون ذلك فتسميتهم بالدولة من تسمية الشيء بما يلزمه⁸.

فإذا أنهى الطالب دراسة نظم "الدرر اللوامع في أصل مقرئ الإمام نافع" وقرأ بروايته ورش وقالون عن نافع رجع على شيخه ليعرض عليه القرآن الكريم بشكل مركز ثم يأمره - أحيانا - بتكرار كل حزب من القرآن الكريم أربعين مرة ثم يكلفه بكتابة خمسة أحزاب ليتأكد من استمرار خبرته برسم المصحف وضبطه، فإذا نجح في هذه الاختبارات الأخيرة أجاز له الشيخ بسنده المتصل إلى رسول الله ﷺ.

الحاجات الاجتماعية لطلاب المحاضرة

- السكن

يسكن التلاميذ في البوادي تحت الخيام وأكواخ الشجر (الحوش) أما في الحضر فيسكنون في البيوت اللصيقة بالمساجد وغيرها وربما أصبحت المحاضرة

8- انظر القرطبي، ص 16 ج : 18.

مؤسسة مستقلة في بنائها عن المسجد.

- المعاش

ينقسم التلاميذ إلى قسمين:

- أبناء الأغنياء وهؤلاء يسوقون الناقة والبقرة الحلوب ويتزودون بما يحتاجون إليه.

- أما الطلاب الفقراء والغرباء: فهؤلاء يعيشون على ضيافة شيخ المحضرة أو غيره من المحسنين وقد يندمجون مع الطلاب الموسرين يقتسمون الزاد بينهم على السواء كما قال القائل:

تلاميذ شتى ألف الدهر بينهم لهم هم قصوى أجل من الدهر

بييتون لا كن لديهم سوى الهوا ولا من سرير غير أرمدة غبر⁹

وإذا كانت هذه هي صورة المحضرة من الداخل، فإن الملفت للانتباه أن التلاميذ ظلوا في عصورهم الماضية يعيشون مطمئنين سعداء رغم شح الموارد وقلة الأدوات المنزلية، ولهذا فقد تعود المجتمع أن يتعاطف مع الطلاب ليقدم لهم دعماً اقتصادياً يتمثل في ما يلي:

- شاة ذبيحة تقدم لهم بمناسبة العقيقة.
- وجبة أو شاة تقدم لهم بمناسبة الزفاف.
- ظهر كل ذبيحة من البقر.
- مواساة خاصة يقدمها القادم من السفر للطلاب.
- قضاء أيام العطلة عند من شاءوا من بيوت الحي.

9 - المنارة والرباط، ص 139.

• الغدوة: وهي وجبة كبيرة (في شكل غذاء كبير) يقدمها أحد التلاميذ لزملائه إذا أخذ الإجازة أو أكمل متنا من المتون وكان ذلك عرفا اجتماعيا وربما يقدمها الأسر للتلاميذ في مواسم معينة.

وبما أن المحاضرة تعمل على تكوين الطلاب علميا ونفسيا وعقليا فإنها نجحت في التخفيف من شأن المتاع والمعاش في نفوس الطلاب وصرفت أنظارهم إلى التحلي بالهمم العليا وأن يشدوا العزم لعظائم الأمور متحملين الصعوبات بنفوس أبية كبيرة. قال المتنبي:

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

ولاشك أن قوة النفس وجسارة الطبع ومواصلة الصبر كانت السر في نجاح طالب العلم في بيئة معروفة بشح الموارد الاقتصادية وبساطة الحياة بالقدر الذي يصل أحيانا إلى شغف العيش لا سيما في بعض البلدان أو بعض الفصول الزمنية مفصل الصيف الذي ينعدم فيه الزرع ويجف فيه الضرع وقد عبر عن ذلك بعض الطلاب حيث يقول:

إذا جاء شهر الصيف لا بد من فتي تنقل خوف الجوع عن لوحه دهرا

ترى قاصر الهمة يشواق أهله وذو المهمة القصوى إذن يالف الصبرا¹⁰

وبهذه العادات والتقاليد الموروثة عن الحواضر الموريتانية القديمة استطاعت المحاضرة أن تبث العلم في ظروف غير مساعدة كما نجحت في المحافظة على كثير من التراث الإسلامي الأصيل. يقول الدكتور محيي الدين صابر:

"إن التقاليد العربية التي أثرت عن المدن التاريخية الموريتانية إلى عهد قريب كفلت للتراث الإسلامي العربي البقاء والاستمرار من خلال المؤسسات التي

10- المنارة والرباط، ص 140 .

ابتدعها المجتمع الموريتاني سواء في المراكز العلمية المستقرة أو المتنقلة التي يمثلها نظام المحاضر" ¹¹.

الآليات المحضرية

قبل الحديث عن آليات المحاضرة يجدر بنا أن نشير إلى أن المدرس هو المحور الأهم في هذه المؤسسة، فهو فارس الميدان والمشار إليه بالبنان.

ذلك لأن شيوخ المحاضر قاموا في تحصيل العلم بالعجب العجائب، وفتحوا لتبليغه كل باب، باذلين النفس والنفيس في ذلك ليكونوا قدوة لمن بعدهم، فكأنهم هم الذين زكاهم الإمام القسطلاني في مقدمة كتابه: "إرشاد الساري على صحيح البخاري" حيث تكلم عن علماء الحديث فقال: "لقد مارسوا الدفاتر وسايروا المحابر وأجالوا في نظم قلائده أفكارهم، وأفنوا في تحصيله أعمارهم، واستغرقوا لتقييده ليلهم ونهارهم، فأبرزوا تصانيف كثرت صنوفها، ودونوا دواوين ظهرت شفافها، فاتخذها العاملون قدوة، ونصبها العاملون قبلة، فجزاهم الله عن سعيهم الحميد أحسن ما جزى علماء أمة، وأحبار ملة" ¹².

أجل لقد صبروا على الجد والمثابرة، وبلغوا في ذلك الغاية القصوى، غير مبالين بالظروف المعيشية الخانقة، أو الأحوال الأمنية الهائلة، بل كانوا إذا تكدر عليهم صفو الحياة زادهم ذلك قوة في العزم، ونشاطا في العمل، ولذلك كان العلامة يحظيه ولد عبد الودود الشنقيطي يتمثل بهذين البيتين:

فلم أك من يدرك الجهد بالمنى ولكن بأيام أشبن النواصيا

لبست لها كدر العجاج وإنما ترى صافيا أن لا ترى الجو صافيا

11- المنارة والرباط، ص76.

12- إرشاد الساري، ص6.

الأدوات المادية

كانت الحضرة تقوم على مبدأ الاكتفاء الذاتي وكان حظ الأدوات التعليمية من هذا الاكتفاء حظا غير يسير، فقد كانوا يتخذون الألواح والأقلام ويصنعون الحابر من الطين والأحجار، ويغذونها بطرق مختلفة، منها الفحم الخشبي والصمغ العربي، كما يصنعون المداد بطرق أخرى فيأتي بألوان متعددة لأغراض شتى، وكانوا يوقدون النار ليلا فتشكل ضياء للقارئ ومصطفى للمقرور، وقد يلجؤون إلى استيراد الأوراق والكتب المصنفة من خارج البلاد، مثل المملكة المغربية ومصر وغيرهما.

القلم واللوح

وهما عماد الحياة الحضرية، ولهما في قلوب المسلمين مكانة علمية وخاصة في البيئة الحضرية، فقد اتخذوا الأقلام من الحلفاء أو الثمام ومن جريد النخل، يتخيرون من ذلك ما جف واستقام، وغالبا ما يكون طول القلم من 12 إلى 16 سم، فيقومون بيري رأس العود بموسى أو شفرة يأخذون من وسطه وأطرافه حتى إذا دق طرفه شقوه من الوسط شقا دقيقا يسهل به انسياب الحبر، فإذا أغمسوه في المحبرة ورفعوه عنها وهو يحمل القدر المناسب للكتابة تكاملت صورته، وأخذ مكانته في قلوبهم كما قال عدي بن الرقاع:

تزجي أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

وقد يحوز الطالب عدة أقلام تختلف الكتابة بها شكلا وحجما ويحفظها في أغلفة خاصة بذلك.

أما اللوح فيتخذونه من الأخشاب الصلبة الغليظة، وهو عادة مستوي القاعدة مستطيل الشكل إلى رأسه، فيكون أعلاه مقوسا نصف دائري غالبا،

ومثلثا هرميا نادرا، ويتراوح طوله من 40 على 90 سم، أما عرضه فيتراوح من 10 إلى 40 سم، ويتخذ الطفل في الكتاب لوحا من الحجم الصغير إلى أن يتقدم في حفظ القرآن الكريم فيتخذ لوحا كبير الحجم، فإذا أراد الكتابة سطر اللوح عند كل كتابة بإمرار قاعدة القلم عليه مرا سريعا، حتى تتميز السطور وتستقيم، وقد يتسع اللوح لأربعة دروس، وربما لستة دروس، وكلما امتلأ اللوح غسل الطالب الدرس الأول غسلا محكما، ويتبارى الطلاب في ذلك مستعينين ببعض المواد المحلية المتخذة لذلك، حتى يتراءى اللوح بلونه الذهبي الجميل.

فإذا أشرق وجه اللوح انشرح صدر الطالب وجلس ليزينه بالسطور المتوازية تاركا هامشا على اليمين وعلى اليسار حتى لا يتعرض المكتوب للتلف كلما أمسك الطالب لوحه بيده.

وبذلك يرتبط الطالب باللوح ويحن إليه ويعظمه من بين آليات تحصيل العلم مسترشدا في ذلك بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ...﴾¹³.

ومن المأثور للطفل يومين متميزين في حياته:

- اليوم الذي يحمل فيه اللوح، فيقال: فلان أخذ اللوح، أي بدأ الدراسة.
 - اليوم الذي يأخذ فيه القلم ليكتب لنفسه، فيقال: فلان أخذ القلم، لهذا فقد تغنى الطلاب بمكانة اللوح وخلدوا ذكره في أشعارهم.
- فهذا محمد بن حنبل الشنقيطي الحسني يخاطب لوحه، وقد طوى فيه كل عواطفه وأشواقه، كما قال صاحب "المنارة والرباط".

عم صباحا أفلحت كل فلاح فيك يا لوح لم أطع ألف لاح

13- الأعراف، 145.

أنت يا لوح صاحبي وأنيسي وشفائي من غلتي ولواحي
فانتصاح امرئ يروم اعتياضي طلب الوفرة منك شرانتصاح
بك لا بالثرا كلفت قديما ومحياك لا وجوه الملاح
إلى قوله:

بل يميننا بواردات البطاح يتبارين ضمرا كالقدهاح
بعد ليل سرينه بعد يوم تصل الهجر بانسلا ب الروحاح
أفتأ الدهر هاجرا للغواني ووصولا للكتب والألواح¹⁴

الحبر

لقد صنع الشناقطة الموريتانيون الحبر واستخدموه بألوان شتى، ولكنهم أكثر استخداما للحبر الملون بالفحم الخشبي، فبه يكتبون جل ما يكتبون في الألواح وعلى الأوراق، وإنما يلجؤون إلى الألوان الأخرى لتزيين المصاحف، ولضبط رسم القرآن الكريم انطلاقا من قول الشيخ الطالب عبد الله الجكني الشنقيطي (ت1255هـ).

وكل ذا حمرا وصفرا الهمز حال قطع وخضر الابتدا والنقط تال
(انظر باب الضبط من كتاب الإيضاح الساطع على المحتوى الجامع رسم الصحابة وضبط التابع).

وقد فصل الشيخ محمد العاقب بن مايابي الجكني (ت1327هـ) دفين فاس، فصل هذه الألوان في باب الضبط فقال:

14- انظر المنارة والرباط، ص147-148.

وإن أحطت بالمعاني خبيرا	فلا تخلط نسبة بأخرى
فمز شعار الرسم بالإلزام	وقابل الضبط بالاحترام
ولا تسو الندب بالمؤكد	وتجعل الطريف مثل المتلد
فاكتب هجاء الرسم بالسواد	والضبط مز بحمرة المداد
وقد أتى تمييز الابتداء	بهمزة الوصل من الخضراء
ونقطة الهمز الخقق تقع	صفراء والنقط حرفه تبع ¹⁵

الآليات الجديدة

إذا كانت الحضرة بشقيها (الابتدائي والجامعي) قد سجلت تراجعاً بعد الاستقلال تحت تأثيرات مختلفة مثل:

- المدارس العصرية.
 - الهجرة من الريف إلى المدينة.
 - الانفتاح على العالم.
 - طفرة المواصلات.
 - الجفاف الذي ضرب البلاد في عقود مضت.
- فإنها اليوم - بفضل الله سبحانه وتعالى - تنفست الصعداء تحت تأثير الصحوة الإسلامية المباركة فبدأت تنهياً لاسترجاع مكانتها المرموقة سعياً إلى تحقيق أهدافها الأصلية لصالح أجيال تواجه تحديات لم تكن متصورة من قبل مثل:

15- أنظر رشف اللمى على كشف العمى في رسم القرآن الكريم للشيخ محمد العاقب بن مايابي الجكني (باب الضبط).

- حرب القنوات.

- الانشغال بتحصيل المال.

- الثورة المعلوماتية.

وعليه فواجب الحضرة اليوم كغيرها من مؤسسات تحفيظ القرآن الكريم أن تراجع المناهج وتنظر في الآليات التقليدية لتحفظ لنفسها بالثواب الضرورية وتنتقي من المستجدات العصرية المتاحة ما يلزم لمواكبة عصر السرعة والعولمة (فالحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها).

وإذا بحثنا عن هذه الآليات الجديدة فسنجد أن دولا في عالمنا الإسلامي - على تفاوت فيما بينها - قد قطعت شوطا لا بأس به في تطويع الآليات التكنولوجية لأهداف علمية منها نشر القرآن الكريم بالمملكة العربية السعودية مثلا، لكن دولا أخرى لم يصل إليها - لحد الآن - إلا القليل من هذه الوسائل العصرية المذكورة فما هي أهم الوسائل المتاحة لبلد كموريتانيا مثلا؟
من أهم الوسائل الجديدة النافعة في مجال تحفيظ القرآن الكريم وتلقين أحكام تجويده ما يلي:

- انتشار المصاحف والأجزاء المطبوعة بمختلف الروايات المقروء بها.

- كثرة الكتب المطبوعة متنا وشرحا.

- الشريط بنوعيه المرئي والمسموع.

- التعامل مع السبورة في استخدامها في الحلقات الجماعية لتحفيظ القرآن الكريم وتفصيل أحكام الرسم والضبط والتجويد مع الاستعانة بالطباشير الملونة.

- استخدام الأجهزة المكبرة للصوت لتشويق الصغار وتمكينهم من سماع

الأصوات النموذجية لمحاكاتها بشكل تلقيني.

- استخدام جهاز الحاسوب المعلم.

- البرامج الإذاعية.

- البرامج التلفزيونية.

- استغلال المساجد المزودة بالكهرباء والطاقة الشمسية خارج أوقات الصلاة لتوفير البيئة المناسبة للصغار وغيرهم من طلاب حفظ القرآن الكريم، ليعود المسجد إلى سيرته الأولى ويؤدي رسالته لمجتمعات طابعها الشرود وترك طلب العلم.

وهذا آخر ما يسره الله من هذا البحث مع كثرة الانشغال وقصر الباع فما كان فيه من صواب فمن الله وما كان فيه من خطأ فهو مني سائلا المولى عز وجل أن يوفقني وسائر المسلمين لخدمة كتابه الكريم ونشر دينه القويم.

الملحق

منظومة في آداب المعلم والمتعلم وأحكام المشاركة في تعليم القرآن يقول:
محمد النابغة القلاوي ت 1245 هـ.

قال محمد مصليا على أزواجه من بعده ومن تلا
الحمد لله الذي قد علما الإنسان بالقلم ما لم يعلم
من غير دفع أجره فكلما يقرأ فأجره لمن تعلم
وسرح الصبيان في الأبيكار من بعد محوهم إلى الإفطار
وبعد كتبهم ضحى الخميس للظهر يوم السبت عن تدليس
والأصل في ذلك دعوة عمر¹⁶ على الذي خالف ما به أمر

المشروع من التأديب:

والضرب باختلافهم قد يختلف إذ منهم ممثل ومنحرف
ومنهم من ضربه حرام وهو الذي يصلحه الكلام
وكون سوطهم عريضا لنا من ضربهم بالظهر أيضا بينا
إن ظلموا أو هربوا من مكتب أو كعقوق والد أو ككذب
ولا يقل بضرب أسفل القدم إذ ذاك كان في زمان انعدم
والأموي¹⁷ العدل قال تحدث أقضية بما فجورا أحدثوا
وأشهر القولين أن الضرب لا حد له وهو الذي قد اعتلى

16- هو خليفة رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أبو حفص الفاروق ثاني الخلفاء الراشدين وأول من لقب أمير المؤمنين الصحابي الجليل الشجاع الحازم، صاحب الفتوحات يضرب بعذله المثل، وهو أحد العمرين اللذين كان النبي ﷺ يتمنى على ربه أن يعز الإسلام بهما، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين وشهد الوقائع، بوع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر سنة 13 / 634 بعهد منه. تم فتح الشام في أيامه والعراق والقدس والمدائن ومصر والجزيرة وهو أول من وضع للعرب التاريخ الهجري وأول من جمع الأطفال في الكتاب وعين المدرسين لذلك، بنى البصرة والكوفة، وهو أول من دون الدواوين، ولد عمر سنة 40 قبل الهجرة وتوفي سنة 644/23.

17- عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي المدني ثم الدمشقي، أمير المؤمنين والإمام العادل، كان إماما جليلا زاهدا ورعا. ولي الخلافة فعدل وبقي فيها سنتين وخمسة أشهر وخمسة عشر يوما، توفي يوم الجمعة لعشر بقين من رجب سنة 714/101.

بل هو عائد للاجتهاد بحسب الزمان والأجساد
وما تولد بضرب حرما فيه الضمان والقصاص لزما

أجرة المعلم وخدمة التلميذ له

ولم يجوز قبول ما أهدى الصبي ولزمت حذقته وشهرا
وجائز خدمتهم للشيخ في وجاز أن يرسل بعضا يطلب
وجاز أن يخرج أو يخرجها جميع من حاسبه بالأجر بل
لكنهم إن أخرجوه ابن هلال لأنه ليس أجيرا مثل من
ويتبع الأكثر باختیار ويلزم الأجر بلا تعاقد
ويلزم الأجر الأقل مثل ما ولا يحاسب بأيام المرض
ألا ترى القاضي يغيب أكثرا من دون علم الأولياء كالأب
تحديدتها بمابه العرف جرى كحطب بشرط أو عرف يفى
بعضا إذا كان بحيث يقرب قبل انقضاء مدة وقد نجا
ويستحق حقه قبل الأجل يلزمهم جميع الأجر ثم قال
يوجز بل هو أمين يؤتمن إذا تفرقوا أو اضطرار
فانظره في ميارة القواعد لغيره منه كثيرا لزما
ولا بأسبوع يغيب لغرض وهو أجير كل مسلم يرى

ما هو ملزم للمعلم في تحفيظ القرآن الكريم:

وكلمة في ربع أو أربع نص عليه شيخنا الجزولي في
قلت إذا مجموع ذلك مائتان في الحزب لا تضر في الحفظ فعوا
مسبعه فأنظره فيه تقتفي كلمة وأربعون في القرآن

المحظور والمعفو عنه في التدريس الجماعي المختلط:

وجعه الإناث والذكرا نـا	كرهه القاضي أبو عمرانـا
وطالبوا الصبيان لا يستشهدون	لكونهم بجرحهم لا يشهدون
وقال يكره مدادهم إذا	لم يتحفظوا بما فيه الأذى
ومس بعضهم للوح البعض لا	إثم ولكم كرهته النبلا
وما لهم مشي إلى المساجد	بل يجمعوا بشيخهم أو واحد
مكلف وليست الجماعة	لشيخهم خوفا من الضياعة
والأجر لا تنقصه الإجارة	بشرى لنا بهذه البشارة
هذا الذي نقله الشوشاوي ¹⁸	وهو الذي جرت به الفتاوي
صفيته منه لكل قاري	ومقرئ تصفية النظار
وصغته كما يصاغ الذهب	مهذبا كما عليه المذهب
ثم ختمته مصليا على	من ختم الرسل به الله علا
وآله وصحبه ومن تلا	هم بإحسان ومن لهم تلا

18- الشوشاوي: هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن طلحة الرجراجي شوشاو السملالي نسبة إلى شيشاوة من جنوب المغرب وهو مؤلف كتاب الفوائد الجميلة على الآيات الجلية ويتألف الكتاب من مجلدين توجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة العلامة محمد فال بن عبد اللطيف في قرية إينيفرار وله مباحث في نوازل القرآن وكتابه ونوازل في فقه المالكية وشرح مورد الزمان، توفي الشوشاوي في آخر القرن التاسع بتارودانت.

التعليم القرآني بالسينغال: الآليات والمناهج

الشيخ مامادو حسن بوصو

من علماء السينغال

مقدمة

كما هو الشأن في كل دول إفريقيا السوداء يسكن السنغال "موزاييك" من القبائل والشعوب تتفاوت كثرة وتأثيرا على الحياة الدينية والثقافية والاقتصادية للبلاد.

نجد قبائل "الجولا" ذات الأغلبية المسيحية والوثنية تقطن شمال السنغال المجاورة مع قبيلة "سوسو" المسلمة ذات الحضور المكثف في "مالي" وجمهورية "غينيا كوناكري" في مجموعات لا تخصى من أقليات أغلبها مسيحية أو وثنية.

فيما نجد قبيلة السيرير التي ينتمي إليها الرئيس السنغالي الأسبق ليوبولد سيدار سنغور تسكن وسط السنغال في منطقتي "سين" و"سالوم" وكذا منطقة "كجور" القريبة من العاصمة السنغالية ولهم وجود طفيف في دولة غامبيا الواقعة في قلب السنغال.

تحتل قبيلة "الولوف" منطقة العاصمة (كبير) والمناطق الداخلية المتصلة بها (كجور باوول، انجامبور، وأغلب أطراف والو) ولغتهم هي اللغة السائدة على كل اللغات واللهجات المستعملة في البلاد بما فيها اللغة الفرنسية التي بوأها القانون مبراً للغة الرسمية للبلاد.

يسكن الفلان أو التكاير-مفرده: تكروري- أو الهالبلاز منطقة نهر

السنغال على شريط يمتد مع طول الحدود السنغالية - الموريتانية المشتركة البالغة تقريبا من ألف كلم. وفي شرق السنغال أقلية قبيلة "سراكول" المنحدرة من "غانا" القديمة.

وصول القرآن إلى السنغال

وصل القرآن كعنصر أساسي من مكونات الإسلام إلى السنغال عن طريق العرب الموريتانيين الذين وصلوا إليها بدورهم من المغرب والأندلس. وهي حقيقة لا أعرف سبب إعراض كثير من المؤرخين عنها.

بمراجعة الإجازات القرآنية في دول غرب إفريقيا نجد أن الأسانيد القرآنية كلها في قراءة الإمام نافع بروايتها ورش من طريق الأزرق وقالون من طريق أبي نسيط وأنها جميعا تلتقي عند السيد الهمام سيدي عبد الله بن أبي بكر بن معاذ التنواجيوي المتوفى 1456هـ/1732 م¹.

ثم يدخل سنده المغرب والأندلس لمدة ستة قرون كاملة 540-1145 هـ بدءا من السيد أحمد الحبيب الفلاحي ثم اللمطي وانتهاء بأبي محمد عبد الله بن خلف القيسي المتوفى بعد الأربعين وخمسمائة².

ثم يدخل مصر لمدة ثلاثة قرون ونصف 197-540 هـ بدءا من أبي محمد عبد الله بن عمر بن العرجاء وانتهاء بالإمام ورش.

وينتهي طبعاً بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلوات وأتم التسليمات³.

هذا مع ما تواتر من مشايخنا الأجلاء من العرب الموريتانيين هم الذين أوصلوا إلينا القرآن وأهم بدورهم أخذوه من المغاربة الذين أخذوا بدورهم عن

1- فتح الشكور، ص 40.

2- سعيد أعراب: القراء والقراءات في المغرب وغاية النهايات لابن الجزري.

3- إجازتنا في قراءة الإمام نافع من الشيخ أبي زينب سعيد بن حمد تشن الودبري المتوفى سنة 1998.

المدنيين في حياة الإمام مالك رضي الله عنه ثم عن المصريين عندما تجذر مذهبه الفقهي وتبلور هناك.

ويقول جبرن عمر كان الغجلوني⁴ (في السنغال) ثم الخائي (مالي) بأن قراءة الإمام نافع بروايته ورش وقالون مرتبطة عضويا بمذهب الإمام مالك باختيار ابن القاسم المصري⁵.

هذا ملحوظ في المغرب والجزائر وموريتانيا وتوابعها من غرب إفريقية حيث تسود رواية ورش، وفي تونس وليبيا حيث تسود رواية قالون، والكامرون وتشاد والسودان حيث تجاور الروايتان رواية الدوري عن أبي عمرو ورواية حفص عن عاصم⁶.

من الطريف أننا على الرغم من التزامنا بطريق الداني، بدلا من طريقي مكّي بن أبي طالب وابن شريح، حسب ما هو مقرر في قصيدة "الدرر اللوامع في أصل مقرئ الإمام نافع" للإمام علي بن بري إلا أن الإجازة التنوажوية، الأحادية الطريق لا تثر لا بالداني التي نلتزم بطريقه ولا بعلي ابن بري الذي نقرأ روايته ورش وقالون بمضمن منظومته⁷.

يحسن أن نشير إلى أن وصول القرآن إلى السنغال تم على مرحلتين:

الأولى: مرحلة إبلاغ الدعوة، وهي كما يقول أوثق المؤرخين وزير التربية الوطنية السنغالي السابق " إبا دير تيام"، من إنجازات المرابطين⁸ وكان تعليم القرآن في ذلك الوقت ثانويا جدا بالمقارنة مع جهود إبلاغ

4- جبرن سمبه مالك سل " أحد كبار المقرئين في منطقة النهر بالسنغال توفي سنة 2005.

5- إبان وجوده في دكار للاستشفاء سنة 1993.

6- اطلاع شخصي في بحث ميداني.

7- انظر الإجازة المذكورة في "المجموع النفيس في أسانيد ابن نفيس" لشيخنا أحمد فال بن إدوم الألفغي.

8- Iba Der Thiam : *La présence islamique*, p.208.

الدعوة وترسيخها وهدم المعتقدات القديمة وإرساء سلطة الإسلام.

الثانية: مرحلة قراءة القرآن الكريم كفن من فنون العلوم الإسلامية.

وهي المرحلة التي أشرنا إليها فيما قبل.

بدايات التعليم القرآني وتطوره لدى السنغاليين على اختلاف قبائلهم*

أشرنا فيما مضى إلى مرحلتين من مراحل وصول القرآن إلى السنغال وذكرنا أن المرة الأولى كانت بمثابة إبلاغ الدعوة إلى الناس في منطقة غرب إفريقية وأن ذلك تم بجهود المرابطين، ونذكر الآن المراحل الأولى لقراءة الناس القرآن عندنا.

عانى الأفارقة بصورة عامة من بعض المخارج في اللغة العربية. تختلف اللهجات في ذلك اختلافا كبيرا : فبينما لا يوجد حرف الغين في اللهجات المعروفة عندي إلا في "السرغلاوية"، نجد أنه لا توجد الحاء إلا فيها وفي الولوفية مع فارق ما بين خائيهما وبين الحاء العربي⁹.

لكن كل اللغات في غرب إفريقيا متفقة على الخلو من حروف الحاء المهملة والزاي والطاء والصاد المهملة والمعجمة والعين المهملة والثاء المثناة والذال والظاء والشين المعجمة ثلاثتها. ولها¹⁰ حروف أخرى لا توجد في اللغة العربية.

نتج عن ذلك أن توخى المعلمون القدامى توصيل النص العربي من القرآن مرتبا بدون عناء بالغ في فصاحة المخارج العربية وأصبحت كل قبيلة تقلب الحرف العربي إلى قريبتها في لغتها مما جعل القراءة في ذلك الوقت مضحكا جدا في مسامعنا الآن.

* الفلانية، الولوفية، السيريرية، السرغلاوية، الجولاوية.

9- الحاء الولوفية تخرج بين القاف العربيين بينما تشتد رخاوة الحاء السرغلاوي جدا بالمقارنة مع الحاء العربي.

10- محمد الحسن بوصو، "طرق تعليم القرآن الكريم في السنغال" بحث قدم في المنتدى العلمي الأول بجدة للهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم.

وعلى سبيل المثال لا توجد في لغتي الفلانية حروف العين والزاي والذال والطاء والضاد والخاء والشين والغين المعجمة ثمانيتها والحاء والطاء والصاد المهملة ثلاثتها والثاء المثثة. ولم تبق من الحروف المشتركة بين الفلانية والعربية إلا حروف الهمزة والكاف والهاء والذال والسين المهملتين والجيم. فكل الحروف العربية الثمانية والعشرين تعود إلى هذه المخارج الستة فقط.

تصور ما يحصل من العنت عندما:

يخرج العين مخرج الهمزة سواء بسواء

يخرج الزاي والذال والطاء مخرج الجيم بدون فرق

يخرج الضاد المعجمة مخرج الدال المهملة

يخرج الحاء المهملة مخرج الهاء

يخرج الطاء مخرج التاء المثناة فوق

يخرج القاف مخرج الخاء

يخرج الصاد والثاء المثثة والشين المعجمة مخرج السين.

يخرج الغين مخرج القاف مع ملاحظة أن القاف ذاته حرف لا يوجد في الفلانية إلا أنه سهل في لسانهم فتبنوه¹¹.

إلى بداية القرن العشرين كانوا يقرءون هكذا في قوله تعالى: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَمَوْجَزًاوَهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 75] يقرأونها: "قالوا فما ججأؤه إن كنتم كاجبين قالوا ججأؤه من وجد في رهله فهو ججأؤه كجالك نججي

11 - شيخ موسى كمرا : " زهور البساتين في تاريخ السوادين " ج 2 من المخطوطة.

الجالمين" ويكفي هذا مثالا. وكان متقن هذه القراءة التي نستغفر الله من إيرادها على الرغم من أننا ملزمون بإيرادها لمتطلبات البحث محل إعجاب كبير وحفاوة. كان الشعب المسلم في ذلك الوقت يلي كل مطالبه ورغباته من تخصيص مزارع واسعة وضياع كبيرة وأفراس للركوب وأبقار للاحتلاب والامتلاك إلى تزويجه بأفضل امرأة يرغب فيها. وكانوا يرون رغبة المرأة عن الزواج به— مهما كان فارق السن والطبقة— من علامات الشقاء في الدنيا والآخرة؛ هذه الامتيازات المذكورة دفعت عددا كبيرا من الشباب البالغ 20-35 سنة إلى الهجرة إلى مناطق بعيدة لندرة المعلمين أولا وللابتعاد عن المثبطات من أعمال البيت وزملاء المراهقة ثانيا.

لم يكن حفظ القرآن بكامله شيئا يتوخونه في دراستهم هذه، إنما كانوا يقرؤون تمجي الحروف العربية ثم:

- في المرحلة الأولى يقرؤون قصار السور إلى سورة الملك ثم ينتقلون إلى الفقه؛

- في المرحلة الثانية وصلوا إلى منتصف القرآن؛

- في المرحلة الثالثة التي كانت في حدود القرن السادس عشر الميلادي بدأوا يجتُمعون القرآن؛

- في المرحلة الرابعة في حدود القرن السابع عشر بدءوا يحفظون كامل القرآن لكن بدون تعلم العلوم الشرعية الأخرى؛

- في المرحلة الخامسة بدأوا يتعلمون علم رسم القرآن (القرن الثامن عشر)؛

- في المرحلة السادسة بدأوا يجودون القرآن على طريقة مشايخهم الموريتانيين (نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين)؛

- في المرحلة السابعة أخذوا يتحررون قليلا قليلا عن الطريقة الموريتانية أولا ثم مستقلين تماما ثم مقلدين للقراء المصريين وخاصة الشيخ محمود خليل السيد الحصري لعامل التكنولوجيا الجديدة (بداية الثمانينات من القرن العشرين).

توزيع التعليم القرآني في السنغال حسب القبائل المسلمة (الولوف- الفلان- السراغلة)

تشارك القبائل المذكورة في كثير مما ذكرنا في أن هذه الثلاث القبائل كلها مسلمة جملة وتفصيلا، ولكنها تختلف في الجانب الأكثر عناية بالقرآن والتربية حسب عوامل نذكرها إن شاء الله.

الولوف

عناية الولوف في الماضي والحاضر كلها منصبة في الخط والصوت والتربية العملية كانوا على خلاف الفلان يبدأون في تعليم الخط في وقت مبكر جدا مما يجعلهم خطاطين ماهرين. ويعنون في الخط بالوضوح، في جمال يظهر في تناسق الحروف وترتيبها.

أما الأصوات فبعامل كثرة الغناء عندهم. نشير إلى أن الولوف أشد القبائل الإفريقية شغفا بالغناء سواء الديني أو الشعبي، فكل المغنين في السنغال حتى الآن إما ولوف بالأصالة أو ولوف بالتربية.

وكما أن للعرب مقامات: النهاوند-الصبا-العجم- البياتي-السيغا- الحجازي- الرست - العشاق ومشتقاتها فإن للولوف طرق للغناء الديني تقرب من هذه المقامات ولولا خوف التطويل والخروج عن الهدف لألمنا بها إماما ما. لم يكن حفظ القرآن عن ظهر قلب منتشر فيهم كانتشاره في الفلان ولم

تكن العناية بالتجويد - على الأقل إلى حدود السبعينات من القرن العشرين - من مشاغلهم العليا.

الفلان

يمتاز الفلان عن الولوف بمزية مجاورة العرب الموريتانيين والامتزاج بهم. نقل الفلان عن العرب الموريتانيين كل خصائصهم العلمية والأخلاقية السلبية منها والإيجابية.

نقلوا عنهم متانة الحفظ لاعتماد دراستهم على التسميع المستمر كما نقلوا عنهم جودة النطق بالحروف القرآنية بما هم عرب أقحاح، وكذا الالتزام بقواعد التجويد وفق قراءة الإمام نافع حسب الرواية التي يقرأون بها.

أخذوا عن الموريتانيين كل ما يمت إلى القرآن بصلة من رسم وضبط وعد وتجويد وسند وطريقة تعليم المتعلم.

ولكنهم نقلوا عنهم أيضا إهمال الطالب وفرط حرите في مناقشة الشيخ وكثرة المعاياة في المسائل القرآنية على حد يخرج من باب المباحثات التعليمية التثبتيية إلى باب الفخر وحب الشهرة وطول مدة الحفظ.

السراغلة

أما السراغلة فقد وصلوا إلى السنغال من "غانا" الحالية ومعهم قسط لا بأس به من علوم الإسلام وآدابه. ويبدو أن لهم اتصالا مبكرا بتونس المسماة وقتها بإفريقية، إذ يورد الشيخ موسى كمرأ سند أحد المشايخ الفوتيين لكتاب الرسالة في الفقه المالكي لأبي زيد القيرواني أكثر رجاله سراغلة والآخذ المباشر من القيرواني المؤلف سرغلاوي¹².

12 - د/ عمر محمد الصالح باه: تاريخ الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، القسم الخاص بالسراغلة.

يبدو أن الفقه استحوذ على اهتمامهم في الدراسات الإسلامية مما يكون له تأثير في تضلعهم بالقرآن وعلومه. لا يمنع ذلك من بروز عمالقة في القرآن، فعمي الشقيق لأبي أشهر القراء في فوتا أخذ القرآن عن الشيخ مختار كللي وهو عن فاروق دكري وهو سرغلاوي، وكذلك أخذ أبي القرآن عن الحسن تامبيدو وهو سرغلاوي، ويقال عنه بأنه هو الذي أحيا إجازة القرآن بالسند في السنغال وهو الذي أصلح قراءة الفوتين بنقلهم من شدة الذال (قرائتها بالجيم الشديدة) إلى ذلاقتها.

إلا أن السائد في دراستهم - على ما شهدناه ونقلناه عن قدمائنا - هو الإمام بالقرآن ثم الانتقال إلى الفقه، وخاصة مختصر الشيخ خليل في مذهب الإمام مالك رضي الله عنه¹³. ولطلابهم الكبار سلوك لا ترتضيه عامة الشعوب الإفريقية.

لم يشتهروا بجمال الصوت ولا اتساق الخط إنما اشتهروا باستقامة الأخلاق والبعد عن السوافل منها وعلو الهمم.

الأساليب المتبعة في التعليم القرآني في السنغال

أما الأساليب فكانت تعتمد على المتعارف عليه في ذلك الوقت.

إن كان لا يوجد في ذلك الوقت منظمات حقوقية تصيح وتفضح بعض تجاوزات المعلمين كما هو الحال الآن فإنه كان لديهم وازع ديني قوي يحد من سطوة المعلمين. لخص الشوشاوي قواعد محمد ابن سحنون في التعليم وفق مذهب الإمام مالك على أسس عملية جدا. استعرض فيها أيام العطل وأوقات الكتابة وأسباب الضرب وطريقته وما يترتب على تجاوز الحدود فيه، واحتلاط

13 - مخطوطة في مكتبتني بخط جدي رحمه الله.

الجنسين في التعليم، والهدايا، والإجارة وخلافاتها والإجازة غير المقررة للمعلم، قرارات التعليم الأساسية.... ونظمها الشيخ عبد المالك الموريتاني منظومته "تبصرة المعلم"¹⁴. جاء فيها بخصوص ضرب الأولاد كمثال:

فمنهم ممثل ومنحرف	فالضرب لاختلافهم قد يختلف
أما الذي يصلحه الكلام	بلا خلاف ضربه حرام
وضربهم بالسوط أيضا بينا	وكون سوطهم عريضا لينا
لكعقوق والد أو كذب	أو ظلم أو إن هربوا عن مكتب
وأشهر القولين أن الضرب لا	حد له وهو الذي قد نقلا
بل هو عائد للاجتهاد	بحسب الأزمان والأجساد
وما تولد بضرب حرما	فيه الضمان والقصاص لزما ¹⁵

ومع هذا كان هناك معلمون غير عاليي الثقافة، يسعفهم الحظ في التعرف على هذه القواعد، أخذوا يتصرفون تصرفا عنيفا مع الطلاب، عدهم على ذلك كون الآباء أنفسهم يوافقون على هذا الأسلوب مع المعاملة بحجة "تقويم العود وهو رطب" و﴿عسى أن تكروهوا شيئا وهو خير لكم﴾ [البقرة: 216].

طريقة التعليم

كان الأسلوب المعروف لدينا تعليم المبتدئ الحروف الهجائية بكتابتها على لوح خشبي أعد خصيصا لقراءة القرآن.

ومن عادتهم المتبعة، والتي لا نعرف أحدا منهم شذ عنها، كتابة السور التالية منقوطة ولكن بدون شكل، للتعرف على ذوات الحروف، ثم يكررونها مشكلة للتعرف على عوارض الحرف وتغير نطقه بتغير شكله وهذه السور هي:

14 - عبد المالك : تبصرة المعلم ، أبيات 12-18 من المخطوطة السالفة الذكر .

15 - مخطوطة في 99 بيتا .

الفاتحة، ثم من الناس الفلق صعودا إلى سورة الهمزة.

ثم يعودون إلى الفاتحة مرة ثالثة لجمع الكلمات وقراءتها بغية حفظها.

وعندما يتقدم في الدراسة يحمل لوحه الخشبي المذكور عددا من الدروس في جانبيه حسب ضخامة الخط ومقدار اللوح. ويتوجب عليه حفظ درسه الجديد ثم مراجعة الدروس القديمة وعرض الجميع على المعلم قبل أخذ أي درس جديد.

عندما يصل الطالب إلى سورة الفجر ويكون قد ميز الحروف القرآنية وفق الخط العثماني تميزا جيدا يستقل عن الشيخ بخصوص التهجي فقط إلا أنه لا يزال مرتبطا به من حيث التلقين ومراقبة صحة النص ومتانة حفظ الدرس الجديد ومتابعة المحفوظات القديمة بالإضافة على ما لا بد منه من رعاية الجدية في حلقة التعليم.

الجدول اليومي

يفرض الجدول اليومي نفسه على المعلم والطلاب معا كالآتي:

يوقظ المعلم الطلاب قبل الفجر فيوقدون خشبا كثيرا لإنارة حوالي الموقد الذي يلتف حوله الطلاب ليقروا دروسهم الجديدة. ومع شروق الشمس تتوقف الدراسة ليجول الطلاب في القرية طالبين الصدقة لإعاشتهم ولإعاشة الشيخ نفسه. ويعودون مع الضحى وبعد الإفطار يتجهون للعمل حسب فصول السنة، ففي الخريف يحرثون حقل الشيخ وربما أعارهم أحد أصدقائه أو المحترمين عنده. ومع الظهر يعودون للدراسة مرة أخرى حتى العصر، وبعد صلاة العصر يبدأون في التجوال لطلب الرزق مرة أخرى إلى ما قبيل المغرب. وبعد صلاة المغرب يقفون جميعا قريبا من الشيخ يراجعون محفوظاتهم عن ظهر قلب وبأصوات عالية ومن المعمول به أن يتخير الشيخ عددا منهم، وبالتناوب لسماع

محفوظه القديم.

وجرت العادة أن يعرض الدرس الجديد بعد صلاة الفجر، والدروس غير المحسوة من اللوح بعد مراجعتها قليلاً ثم كتابة درس جديد مع الزوال وتصحيحه وكذا تلقينه والتعرف عليه للحفظ بعد صلاة الظهر ومراجعة المحفوظات القديمة بين المغرب والعشاء وتكرار الدرس للحفظ بعد صلاة العشاء وتأكيد حفظه في الفجر.

عادة لا يتم الحفظ في الكرة الأولى وأجوده ما تم في المرة الثالثة ومتوسط عمر الحافظ 18 سنة أي بعد دراسة إحدى عشرة سنة.

المناهج المقررة

في بداية القرن الثامن عشر الميلادي بدأت قراءة القرآن الكريم تتغير من النطق الأعجمي المحصور في سبعة مخارج تتطور إلى النطق العربي الفصيح وساعد على ذلك ريادة الموريتانيين في جودة الحفظ والقدرة على نظم المعلومات العلمية بصورة لا يمكن أبلغ منها اختصاراً بالإضافة إلى أن الذين كانوا يغتربون لحفظ القرآن كانوا يضطرون إلى النطق العربي الفصيح لانقطاعهم الكامل عن لغاتهم الأصلية.

لا شك أن تذليل صعوبة النطق بالمخارج العربية فصيحة دفعهم إلى التطلع إلى فنون أخرى من العلم متوفرة بغزارة في المحاضر الموريتانية كعلم الرسم والضبط وعد الآي وقواعد التجويد وأصول الرواية بالإضافة إلى أشياء أخرى تمت إلى الثقافة القرآنية بصلة كقواعد الشرع.

ولتحصيل هذه العلوم توفرت لديهم مراحل ومقررات وطرق تدريس لا بد من ذكرها.

المراحل

أما المراحل فقد تم تقسيمها إلى مرحلتين فقط: مرحلة ما قبل الحفظ ومرحلة ما بعد الحفظ.

تتميز المرحلة الأولى بتبعية الطالب للمعلم تبعية مطلقة. بحسب المعلم تتحدد فترات دراسة الطالب ومحل إقامته وتنقلاته بين المدن حسب الفصول ومقدار درسه اليومي والأماكن المسموح له بالتردد إليها.

أما المرحلة الثانية فيستقل فيها الطالب استقلالاً تاماً لا يربطه بالمعلم إلا تصحيح درسه اليومي إن كان في لوح ختمة أو شرح درسه اليومي إن كان حافظاً ويدرس المقررات.

يدرس وفق قواعد اتفق عليها هو وزملاؤه ويختار بيتاً خاصاً به أو به وبعض زملائه للسكن، يستقبل فيه من يريد من الناس ينتقل إلى مدينة أخرى أو يبقى بغض النظر عن موافقة الشيخ أو معارضته.

المقررات

جرت العادة بعد الحفظ بالبدء بعلم الرسم ثم الضبط ثم تجويد حروف القرآن ثم أصول الرواية ثم وقوف القرآن وعد آيه وربما عد كلماته.

مقرراتهم تكون بالترتيب الآتي:

– الحملة الموسمية¹⁶

– " المحتوى الجامع في رسم الصحابة وضبط التابع ¹⁷ " للشيخ الطالب

16- انظر المتن مع شرح المؤلف الموسوم بـ إيضاح الساطع على المحتوي الجامع في رسم الصحابة وضبط التابع، تحقيق المؤلف/ الشيخ بن محمد بن الشيخ أحمد 2004 بدون ذكر المطبعة.

17- مشهورة.

عبد الله بن محمد الأمين الجكني . في هذا الكتاب المختصر جدا كل ما يحتاج إليه طالب علم الرسم - الضبط له أيضا.

- لوح ختمة تامة بنصف حزب يوميا، يكتب عن ظهر قلب تحت مراقبة مشددة من زملائه الطلاب. يراقب فيها مدى استيعابه لهذه القواعد ولا يسمح له أكثر من خطأين.

- منظومة تحفة الأطفال للجزموري¹⁸.

- منظومة التوضيح في تداخل السور¹⁹.

- منظومة "المقدمة الجزرية" في علم التجويد²⁰.

- منظومة "إرشاد القارئ" في علم الردف²¹.

- لوح ختمة لتجويد القرآن، يراعي فيها المعلم فصاحة المخارج وتساوي المدود وقواعد الوقف والابتداء.

- منظومة "كشف الغطا عما جرى بأرضنا من الخطأ"²² للأخطاء الشائعة في أداء القرآن الكريم.

- الدرر اللوامع في أصل مقرا الإمام نافع²³.

- لوح ختمة برواية قالون.

18- مخطوطة لمؤلف لم ننبين من هو من بحر المؤلفين المرتانيين الزاخر.

19- مشهورة

20- مخطوطة. ولي منها نسخة بخط جدي رحمه الله.

21- مخطوطة

22- كانوا يعتمدون، حتى بداية الثمانينات على مخطوطاتها ثم وصلت إليهم مطبوعة مع شرح النجوم الطوالع لشيخ شيوخنا الشيخ ابراهيم المارغني التونسي المالكي وأحسن شرح له من حيث التأصيل والتوثيق شرح لها الإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الملك المنتوري القيسي المتوفى 834 في مجلدين بتحقيق الأستاذ الصديقي سيدي فوزي، مطبعة النجاح الجديدة 2001.

23- أعاد صديقنا التونسي هادي العبادي صياغته في نظم سلس جدا وهو كتابة على طريقة نظم الموريتانيين جمع فيها طرق الأعداد السبعة المعروفة للمدنيين ومكة والكوفة والبصرة وحمص ودمشق.

- منظومة في عد الآي.
- منظومة "سفينة السعادة" نظم تقييد الشيخ الهبطي لوقوف القرآن²⁴.
- منظومة "البحر المحيط في المعدود والمتشابه والمحمول" لسيدي محمد ابن امبوجة التشيتي الشنقيطي²⁵.
- ختمة تلاوة في مدة لا تجاوز ثلاثة أيام.
- إجازة بالسند إلى الرسول ﷺ.

يتم تدريس هذه الكتب وتصحيح هذه الألواح في فترة معروفة من اليوم وبطريقة معينة لكل المقرئين على امتداد رقعة المنطقة.

جرت العادة أن يشتغل الشيخ بما يتعين عليه من حاجاته الشخصية والواجبات الاجتماعية ورعاية أسرته من أول النهار إلى الظهر. ويحسن أو نورد هنا بأن المشايخ المختصين بتدريس هذا المستوى لا يدرسون الصغار، وغالبا ما يوكلون أنضج الأولاد من كبار السن بتدريس الصغار من الطلاب. وفي حالة عدم وجود ذلك في المقيمين معه في البيت يطلب من "المستقلين" الذين يفدون عليه للدرس القيام بهذه المهمة.

يجلس الشيخ المقرئ من بعد صلاة الظهر إلى غروب الشمس لتصحيح الألواح وشرح الدروس من الكتب المذكورة سابقا.

يكتب الطالب درسه اليومي إما عن ظهر قلب إن كان حافظا أو بالنقل من المصحف إن كان غير ذلك. يراجع الشيخ الدرس بإمعان ممسكا بأصابعه

24- هو نظم الشيخ محمد أحمد بن سيدي عبد الرحمان المسومي لتقييد الوقف الهبطي لم يخالف في كلمة واحدة ، وتقع المنظومة في 734 بيتا من بحر الرجز ، وهي في السنغال أشهر منها في موريتانيا موطنها الأصلي، وصلت إلينا بالسند العالي جدا . إذ كل الذين يدرسونها أخذوها إما عن الشيخ إبراهيم بن حماد جاه الجولي ثم المبوتي والمتوفى في "جول" سنة 1989 م وإما عن جيرن أحمد ورسيدي سل الوروسيدي ثم الماتمي والمتوفى فيها سنة 1958 م وهما أخذاه عن ابن علي الكيفي وهو عن شيوخه ناظم المنظومة.

25- طبع في دول الخليج في ثلاثة أجزاء متفرقة: جزء للمتشابه وجزء للمعدود وجزء للرسم. ومع جزء المعدود شرح مقتضب لا يفني بالغرض.

الثالثة: الإبهام والسبابة والوسطى قلما مغموسا في دواة بيد الطالب لتسهيل عملية الغمس بعد جفاف القلم. يمر على الدرس كله قارئاً مدققاً يصحح الأخطاء العادية بدون تنبيه أما الأخطاء الفاحشة فيطلب من الطالب أن يطلع على الخطأ قبل إصلاحه. وتشمل هذه العملية كل ما يمت إلى الدرس بصلة ويحقق شروط الرواية من ترتيب الكلمات داخل الآية وتتابع هذه داخل السورة، وصور المهمزات وتتابع الحركات أو تراكبها على غير ذلك مما هو معروف لدى الشيخ من كتب الرسم والضبط.

إذا كان الشيخ من الذين درسوا في "ماسنة" بجمهورية مالي حالياً أو من الذين تأثروا بهم فإنه يخط الرموز على الكلمات ما يدل على عدد تكررها في القرآن، ويكتب على البياض الموجود فوق الدرس الأعلى من اللوح ما يناسب الدرس من ما يعرف لدى القوم بـ "الأمهات" وهي كلمات جامعة لأوائل بعض الكلمات المعدودة يشرحها الشيخ بعد ذلك.

إذا كان الشيخ مجازاً بالسند وقع في الجانب الأيسر تحت السطر الأخير من الدرس.

ويعرف إتقان الشيخ وتضلعه في الإقراء بكتابة بعض الآيات تحت الدرس الأسفل من اللوح تساعد الطالب على الحفظ ورعاية المتشابهات.

يعرض الطالب الدرس المصحح على الشيخ صوتياً لتصحيح ما يحتاج إلى التصحيح ثم يشرح له الشيخ "الأمهات" أو الأنظام.

أما الحفاظ الذين يدرسون الكتب المذكورة فيكتبون ما يقدرُونَ على حفظه في اللوح بتباعد ملحوظ بين السطور لكتابة شرح الشيخ عمودياً بين السطور ثم يراجع درسه في بيته لهضمه وإتقانه.

غالباً ما تخصص ليلة الأربعاء للخميس للمعاينة بين الطلاب؛ المعاينة هذه نوعان: نوع لاختبار الحفظ ونوع لاختبار الفهم.

أما الذي لاختبار الحفظ يكون بمفاجأة الزميل بموضع من القرآن صعب ليقرأه أمام الجماعة وينتقم ذاك بنفس الطريقة.

ويكون النوع الآخر بإلقاء مسألة من الرسم أو الضبط أو أصول الرواية على الزميل ليذكر حكمه ومن أين أخذ هذا الحكم.

لم تكن المقامات الصوتية معروفة لديهم وإنما يقرأون بتقليد من يحلو لهم من القادمين من موريتانيا ولم تكن مقامات هؤلاء تختلف كثيراً لأهمهم في الغالب — لشدة تركيز طرق التلقي — ينقلون النص والمخارج ونمط الصوت نفسه.

الوسائل الجديدة في عملية التلقين

لا يزال العرض (من الطالب) والسماع (من الشيخ) هو الطريقة العملية المثلى في تعليم القرآن الكريم في السنغال. ولا يزال اللوح الخشبي والقلم النبطي والموسي الرقيقة لبريه والدواة الصمغية وحفظ الشيخ هي الأدوات والوسائل الأساسية لتحفيظ القرآن الكريم، كما لا يزال حفظ الشيخ هو المعتمد الأول والأخير في توثيق النص القرآني.

زار الشيخ محمود خليل الحصري السنغال في منتصف السبعينات من القرن العشرين فأهدى نسخة مرتلة بصوته للرئيس السنغالي آنذاك النصارى ليوبولد سيدار سنغور. وكانت الإذاعة الوطنية تفتح برامجها الصباحية بقراءة من هذه النسخة فشغف بها الناس وأصبحوا يترقبون وقت قراءته في الأبداء ونهار الجمعة وفي المناسبات الدينية.

بذلك انطبع قراءة الحصري على أذهان السنغاليين وأصبحت بحق

النموذج الوحيد للقراءة الصحيحة بمقاييس السنغال.

في الوقت الحالي أصبح الشيخ الحصري الملقن الأول للنص القرآني في المدارس التحفيظية الجديدة في الحواضر، حيث تعتمد كلها على ختمته الأولى 1959-1961م برواية حفص عن عاصم من طريق الفيل عن الولي عن عمرو بن الصباح عنه في جهود ما سمي وقته بـ "الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم" ضمن نشاطات "جمعية المحافظة على القرآن الكريم" برئاسة الدكتور ليب سعيد.

كما أصبح "مصحف المدينة المنورة" برواية حفص عن عاصم بديلاً للوح الخشبي في مدارس الحواضر واختفت الدواة وتوابعها في هذه المدارس وحدث أمر عجيب: تفوق الطلاب على مشايخهم في الصوت والتجويد والأداء وربما في الحفظ أيضاً.

بهذا يكون قد تمت كل الوسائل لتغزو رواية حفص رواية ورش في عقر دارها.

أما في الحواضر فقد تحقق النصر لرواية حفص بدون نقاش إلا جيوب مقاومة ضعيفة. أما في القرى والبوادي والمدارس العتيقة والمتخصصة فلا يزال المعقل محصناً.

انهزمت رواية ورش بعوامل كثيرة منها ما ذكرنا ومنها كثرة تردد الطلاب على الدول العربية وعودتهم برواية حفص وكذا انتشار المدارس العربية التي تدرس مقررات مصممة في الدول العربية حيث تسود رواية حفص.

لئن كان الأتراك رسخوا رواية حفص مع مذهبهم الحنفي في بلاد كانت تسود فيها روايتا ورش والدوري فإن رواية حفص أخذت تسود هنا بفعل ضعف الالتزام بمذهب الإمام مالك لعوامل كثيرة، من أهمها "تحرير المعارف

الإسلامية وليبراليتها" حيث أصبح كل واحد يتمذهب بما يريد ويتقلب بين المذاهب إما لحب الشهرة وإما للتهرب من بعض الواجبات التي يراها قاسية عليه وفق المذهب الذي كان عليه. وهل هناك حاجة لأن نذكر بارتباط المذهب المالكي بقراءة الإمام نافع؟

إلا أنه حان الأوان لأن نثير قضية هامة جدا في التعليم القرآني في السنغال ألا وهي مواءمة الحفظ أو العناية به بالتعليم النظامي.

إلى وقتنا هذا لا يشتغل المعدون لحفظ القرآن بأي شيء آخر غير ذلك مما جعلهم في هامش المجتمع.

يتخرج الطالب حاملا إجازته في القرآن وحفظه الجيد لكنه قاصر في كل شيء. لا يعرف اللغة العربية مع أنه يحفظ أفصح نص على الإطلاق، فضلا عن العلوم الإسلامية والعقلية الأخرى.

ونقترح تنظيم ملتقى علمي عام لمدة لا تقل عن أسبوع لمدارس وضع دارسي القرآن الكريم من جانبه الحفظي في دول ما يعرف بجنوب الصحراء.

كما نقترح أن يتم ذلك بتعاون بين دول المغرب العربي كلها وعلى رأسها المملكة المغربية وبين الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم في جدة بالمملكة العربية السعودية.

أما اختيار المغرب فلدوره الثقافي والعلمي والحضاري في هذه المنطقة. وقد أسلفنا دورها في بداية هذه الورقة وبيننا أن سندننا القرآني عاش في المغرب ستة قرون كاملة.

وأما الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم فلدورها المشهود في كل أرجاء العالم للنهوض بالتعليم القرآني وبفاعليه إلى المستوى المرجو لهم من حيث المقدار

العلمي ومستواه ونوعيته مع الحرص على تكوين عناصر فاعلة وقادرة على توجيه المسار الإنساني نحو الأفضل بصورة تحقق المثل الإسلامية العليا.

كانت الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم قد نظمت ملتقى علميا في دكار لإيجاد حلول للمشاكل المتعلقة بالتعليم القرآني في السنغال كخطوة أولى وللمشاكل المتعلقة بإفريقيا كخطوة ثانية بهدف إيجاد صيغ تخدم دارسي القرآن الكريم -أيما كانوا- بمواءمة دنياهم وأخراهم معا. وما علمتهم إلا حريصين على جعل دارسي القرآن الكريم ممتازين خلقا وتكوينا. وكان قد شارك فيها أحد المغاربة بمحاضرة قيمة حظيت برضى الأمين العام للهيئة العالمية من حيث الكفاءات الأدبية والوسائل، بدءا من الإخلاص وانتهاء بالقدرات العلمية الفذة. على سبيل المثال يرأس لجنتها العلمية "النموذج الصوتي القرآني المضبوط" الشيخ أيمن رشدي سويد حفظه الله وحوله شخصيات علمية كبيرة أمثال الشيخ أحمد شرشال وغيره.

وفي الختام نود أن نذكر كل المغاربة بدورهم التاريخي في المناطق المذكورة.

تطوير الكتاتيب القرآنية التقليدية من خلال التجربة الشفهاونية

علي بن أحمد بن الأمين الريحوني

عضو المجلس العلمي المحلي بشفهاون

يعتبر الكتاب القرآني إحدى المؤسسات المدرجة في المنظومة التعليمية والتربوية الإسلامية منذ أقدم العصور إلى الآن فهو الحلقة الأولى ضمن سلسلة متدرجة من الفضاءات التي يتكون فيها العالم المسلم قبل أن ينتهي إلى حيازة رتبة العلم الشريف وقد لا يصل الطالب إلى نهاية المطاف في طريقه الطويل ولكنه لابد أن يمر عبر الكتاب باعتباره البوابة الأولى التي يلج منها إلى عالم المعرفة.

وكسائر المؤسسات الإسلامية في ميدان التعليم والتربية خضع الكتاب عبر مختلف العصور إلى تغييرات مست الشكل والطريقة والأسلوب ولكنها لم تمس جوهر الرسالة التي يضطلع بها وهي تلقين الأطفال حفظ القرآن الكريم لفظا ورسمًا. فسنة التطور في العلوم الإسلامية وفضاءاتها لم تستثن أي مجال عرفه هذا الميدان، والأمر واضح جدا، إذ المصالح والضرورات والمقاصد والظروف والحيثيات تقتضي، عبر مرور الزمان وتباعد الأوطان، الانفلات من قبضة الجمود والخروج عن النمطية الواحدة إلى الأخذ بالتجارب والاستجابة للمتطلبات، انسياقا وراء المنافع التي جاءت الشريعة لضماها واستمرارها درءا للمفاسد والخلل والنقائص.

ومغربنا العزيز وهو أهم طرف في الغرب الإسلامي والفاعل الأكبر فيه

شهد هذا التطور المستمر والتجدد المتواصل في عالم التشييف والتكوين والتفقيه وذلك منذ الفتح الإسلامي المبارك إلى الآن، وما زالت هذه السمة تصبغ مسيرته الميمونة إلى الآن رغم تعقد الأوضاع الدولية وما نتج في الأزمنة الأخيرة من تفاعلات عالمية متشابكة وريح عاتية من العولمة التي يراد لها من بعض الجهات القضاء على الخصوصيات المحلية والجهوية للشعوب والأمم.

ونحمد الله تعالى على أن المغرب الحبيب بقدر تفتحه على المعاصرة واستجابته الناضجة للمستجدات الكونية فإنه في الوقت نفسه لا يفرط في ثوابته الإسلامية التي قام عليها نظامه السياسي وعقده الاجتماعي منذ المولى إدريس إلى يومنا الحالي، وهذه من الكرامات الربانية والألطف الإلهية التي تحصن بلادنا من الانزلاق الأعمى إلى التقليد للآخر ونسيان الذات والهوية¹.

شفشاون

تعتبر مدينة شفشاون². من أهم الحواضر المغربية التي كان وما يزال لها حضور فعال في الكتابات القرآنية.

هي بلدة أسست على تقوى من الله ورضوان في حدود عام 876هـ موافق لـ1471م على يد الشريف المجاهد الكبير الأمير مولاي علي بن موسى بن راشد العلمي الإدريسي³. المنحدر من ذرية الشيخ الصالح الشهير مولاي عبد السلام

1- الثوابت الإسلامية بالمغرب استقرت في ضمير الأمة منذ قبولها لهذا الدين الكريم وإذعانها له وقد استمرت في التمسك بهذه المسلمات عبر الأجيال إلى وقتنا الحالي وهي من المعروفة بالضرورة لدى الجميع ومقبولة لدى الكل وأهمها: الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاق- النظام الملكي- الوحدة الترابية- الطابع العربي للمغرب ونجد في تراثنا الغزير والإنتاج المعاصر المصدر الواسع والمرجع الثري لهذه المقومات المجمع عليها دون استثناء إلا الشذوذ الذي يؤكد القاعدة.

2- مدينة شفشاون من الحواضر الإسلامية الهامة ويمكن استشارة هذه المراجع في إطلالة على هذا الثغر الديني الأصيل: موجز تاريخ شفشاون تأليف العلامة القاضي الوزير محمد الصادق الريسوني، نشر حفيده علي بن أحمد بن الأمين الريسوني وطبع في مطبعة القدس بشفشاون في دجنبر سنة 1986.

3- مولاي علي بن موسى بن راشد العلمي مؤسس شفشاون تنتظر ترجمته في عدة مصادر ومراجع منها:
أ- مرآة المحاسن للعربي الفاسي تحقيق الأستاذ حمزة بن علي بن المنتصر بن الزمزمي بن محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني الحسني.

ب- مولاي علي بن راشد، تأليف الباحثة الكبير الأستاذ محمد ابن عزوز حكيم.

ت- أسرة بني راشد، بحث منشور بالإسبانية للأستاذ عبد الرحيم جبور.

بن مشيش العلمي رحمهم الله جميعاً⁴.

ولإخلاصه النية في هذا العمل المبرور جعل الله جل جلاله البركة في هذا الشجر حيث، بالإضافة إلى وظيفته الرائعة في الجهاد الحربي ضد الغزاة الأجانب، اضطلع بمهمة الحفاظ على القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ومذهب الإمام مالك رضي الله عنه والذود عن الوطن وشرفه.

أما إقليم شفشاون فهو من أقدم الجهات المغربية التي أسلم سكانها على يد الفاتحين الأولين كما يشهد بذلك أقدم مسجد بالمغرب والمقام من طرف طارق ابن زياد رحمه الله في قرية الشرافات⁵. بقبيلة الأخماس⁶. وسط الإقليم المعروف قديماً بمنطقة غمارة وكما يشهد بذلك قبر سيدي يلصو الحفيد الثاني لأبناء نجل الخليفة الراشد سيدنا عثمان بن عفان حيث يوجد هذا الضريح إلى الآن موقراً محترماً وصاحبه هو الجد الأعلى لبيوتات شهيرة تدعى (اليلصوتين)⁷.

وإقليم شفشاون لعراقته في العمل الإسلامي كان معقلاً للتصوف السني

4- الشيخ ابن مشيش رحمه الله تنتظر ترجمته في عدة مصادر ومراجع منها:

أ- حصن السلام، للأستاذ الطاهر بن عبد السلام الهوي الوهابي العلمي.

ب- أعمال ندوة حول ابن مشيش، نظمت في العرائش من المندوبية الإقليمية لوزارة الثقافة (مطبوع على الحاسوب).

ت- فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير، تأليف العلامة محمد بن الصادق ابن ريسون أحد شيوخ السلطان مولاي سليمان العلوي (وهي من تحقيقنا).

5- في هذا المسجد مدرسة للتعليم العتيق تحت إشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ويتولى إدارة هذه المدرسة حالياً الفقيه البركة الموفق في السكون والحركة الشيخ علي أكدي الصالحي الخمسي.

6- قبيلة الأخماس أهم القبائل الموجودة بإقليم شفشاون وهي شديدة المراس ولعبت في الجهاد أدواراً رائعة كما لها في العلم باع طويل ينظر في عدة مراجع للاطلاع عليها ومنها:

أ- سنا المهدي، للشاعر علي مصباح اليلصوتي الخمسي (مخطوط هام).

ب- الروضة المقصودة، لسليمان الحوات تحقيق الدكتور عبد العزيز التيلاني.

ت- معركة تازروت، للبحاثة محمد ابن عزوز حكيم وهو مرجع موثق عن جهاد الأخماس ضد الإسبان تحت قيادة الزعيم البطل المجاهد مولاي أحمد بن محمد بن عبد الله الريسوني المتوفى في أبريل 1925.

7- ليلصوتين نسبة إلى يلصو بن عبد الملك بن أبان ابن الخليفة الثالث عثمان بن عفان وفي نسبه اضطراب منه إلى الخليفة المذكور ويعرف عند العامة ب(سيدي يرسل) ويلصو جد جامع لبعض الأسر الأخماسية مثل أولاد مصباح وأولاد شهبون وأولاد اليزيدي وأولاد ابن علوش.

وغلط غلطاً فاحشاً كثير من مشهوري المحققين والناشرين للتراث المغربي في اليلصوتين حيث صحفوا الكلمة إلى اليلصوتين كما فعل المرحوم محمد حجي في نشره لدوحة الناشر حيث حرف خطأ الاسم الصحيح اليلصوتي إلى الاسم المشوه اليلصوتي وتبعه ناس لم يكلفوا أنفسهم مشقة العودة للأصول.

كما يدل على ذلك البيت المعروف⁸ إلى الآن والذي ولد فيه أبو الحسن علي الشاذلي مؤسس الطريقة المنسوبة إليه والمدفون في صحراء عيذاب⁹ بمصر سنة 656هـ.

كما اشتهر هذا الإقليم بوفرة آل البيت الكرام من الأشراف خاصة الأدارسة وبالأخص منهم الدوحة العلمية التي تعتري إلى القعدد الجامع لفروعها وهو سيدي أبي بكر¹⁰ دفين خميس بني عروس وهو أبو بكر بن علي بن حرمة بن عيسى بن سلام بن مزوار بن علي حيدرة بن محمد بن إدريس الأزهر ابن المولى إدريس الأكبر.

والإقليم أيضا أسعف المغرب بآلاف حفاظ القرآن الكريم حيث تولوا الإمامة والخطابة والتلقين والتوثيق وغيرها من الوظائف الدينية منذ القديم بل بعضهم اختاره بعض السلاطين لتأديب أولادهم في البلاط الملكي وبعضهم ملأ الفراغ في الجزائر بعد استيلاء الفرنسيين عليها إثر احتلالهم لها ابتداء من 1830م.

مقدمة

أحاول في هذه المداخلات الموضوعية الإشارة باختصار إلى التطور الذي عرفه الكتاب التقليدي في شفشاون في المراحل التاريخية الخمس التي أقسم من خلالها المسار الذي عرفته المدينة وأحوازها في القرن العشرين:

8- هذا البيت معروف في قرية اشتنواغن في قبيلة الأخماس الجزء الأسفل في الطريق من الدردارة إلى مدينة القصر الكبير وقد تمت زيارته باقتراح منا من طرف الأساتذة الذين قدموا العروض في ندوة أبي الحسن الشاذلي المنظمة من طرف نظارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بشفشاون في أواسط التسعينات من القرن العشرين الإفريقي وقد عرفنا بهذا البيت في مناسبات أخرى.

9- حدثنا الأستاذ الأديب الدكتور أحمد شوقي ببنين محافظ الخزانة الحسنية أنه وصل إلى ضريح الشيخ الشاذلي بصحراء عيذاب بجنوب مصر بعد رحلة شاقة.

10- أبو بكر المذكور هو والد جدنا سيدي يونس دفين قرية الحصن ومن يونس ينحدر الأشراف الريبسونيون العلميون الأدارسة الحسنيون وكذا ينحدر منه أبناء عمومتهم الأشراف: أولاد ابن رحمون وأولاد مرسو وأولاد المودن انظر مخطوطة النجوم الزاهرة للنسابة ابن رحمون.

1- **المرحلة الأولى:** هي مرحلة ما قبل الاستعمار وقد امتدت من بداية القرن إلى يوم الأربعاء 13 من أكتوبر 1920م وهو آخر يوم عاشته شفشاون في حريتها واستقلالها قبل أن تطأها جيوش الدولة الغازية.

2- **المرحلة الثانية:** وهي مرحلة الاستعمار الأول وقد امتدت من اليوم المشؤوم الخميس 14 أكتوبر 1920م حيث احتلت لأول مرة هذه البلدة من طرف فيالق العساكر الإسبانية وتستمر المرحلة إلى نونبر 1924م عندما جلت هذه الجيوش عن المدينة بفعل ضغط المقاومة المسلحة.

3- **المرحلة الثالثة:** وتمتد من نونبر 1924م إلى صيف 1926م وهي الفترة التي شهدت فيها شفشاون حريتها بعيدة عن جيش الاحتلال فكانت بذلك المدينة المحررة الوحيدة في المغرب لمدة سنتين إلا ربعا.

4- **المرحلة الرابعة:** وتمتد من صيف 1926م إلى يوم 7 أبريل 1956م وفيها عاشت شفشاون في الاحتلال الثاني¹¹.

5- **المرحلة الخامسة:** وهي التي نعيشها حاليا وابتدأت يوم 7 أبريل 1956م عندما اعترفت إسبانيا رسميا أمام البطل المرحوم محمد الخامس باستقلال المغرب ووحدة ترابه¹².

فخلال هذه الفترات الخمس تأثر كتاب القرآن التقليدي بالمدينة وأحوازها من تلك التغيرات السياسية التي مرت عليها، فمن المعلوم أن الوضع السياسي

11- ينظر إلى التعليم والثقافة بشفشاون في هذه المرحلة إلى الكتاب الموسوعي الكبير المطبوع بالإسبانية (**العمل الثقافي الإسباني بشمال المغرب من 1912 إلى 1956**) لمؤلفه المستعرب الإسباني بالديراما ويقع في أكثر من ألف ومائة صفحة ويتحدث فيه بتفصيل عن جميع أنواع الدراسات في كل المؤسسات التعليمية والتربية العصرية والتقليدية بشمال المغرب في تلك الفترة وزينه بالصور والرسوم وهو مرجع موثق لهذه المرحلة من تاريخ هذه المنطقة.

12- يرجع في الإطلاع على هذه المرحلة التي مازلنا نعيشها إلى كثير من البيانات والإحصائيات والدراسات والبحوث والمقالات المنتشرة في مختلف الإدارات العمومية بشفشاون وكذا إلى الأرشيفات الخاصة بمؤسسات المجتمع المدني ونحيل على سبيل المثال على ربانند النيابة الإقليمية لوزارة التربية الوطنية ونظارة الأوقاف والمجلس الإقليمي للعمالة.

وما ينتج عنه من المناخ القانوني والإداري يفرض بالتبعية التعديلات على كل المؤسسات القائمة في الوقت المناسب.

وسأحاول باقتضاب في العرض اللفت إلى أهم ما عرض من التطورات للكتاب القرآني الذي نحن بصدد الحديث عنه لأنني أولاً عشت بوعي تام في المناخ المحلي وتفاعلت مع أطرافه الفاعلة ملاحظاً ومتتبعا ومعايشا عن قرب والتصاق ولأنني ثانياً عنيت منذ نعومة الأظفار بالتدوين المستمر الذي نقش بخطي في الطروس التي تكون جزءاً هاماً من مخطوطاتنا جنباً إلى جنب مع الكم الغزير من الوثائق والمستندات التي تغني الأرشيف الهام الذي نتوفر عليه ولله الحمد.

الكتاب القرآني التقليدي بشفشاون قبل الاحتلال الأول في 14 أكتوبر 1920م

كان آنذاك هذا الكتاب نقياً بنقاوة الفطرة وسادجاً بسداجة البراءة الأصلية لشعر شفشاون: شيوخ أجلة مؤدبون لا يتغنون من وراء التحفيظ إلا الأجر من الله تعالى ونفع الذرية الطيبة بتلقين كلام الله.

على أولائك الصالحين¹³ تتلمذ آباؤنا وأجدادنا وقد سجلنا أخبار طائفة من أولئك المدرسين الصادقين جزاهم الله خيراً.

وكانت الزوايا¹⁴ والمساجد¹⁵ هي المحتضن الطبيعي لهذه المؤسسات ومن أهمها كتاب الزاوية الريسونية الذي درس فيه والذي نقيب الأشراف الريسونيين

13- شيوخ تحفيظ القرآن الكريم بشفشاون قبل الحماية احتفظت بأسماء بعضهم ببعض الكناشات والحوالات والمخطوطات والوثائق كمثال على طائفة منهم نحيل على ثمرة أنسي في التعريف بنفسه فقد جلب الحوات المتوفى في 1231 أسماء أساتذته في القرآن الكريم.

14- الزوايا الشفشاونية التي احتضنت الكتاتيب القرآنية داخل المدينة هي: الزاوية العيساوية بالهوتة - الزاوية العيساوية بأوطوي - الزاوية القادرية - الزاوية الوزانية التهامية بالهوتة - زاوية الحاج الشريف بقوس الشرفاء - الزاوية الناصرية - الزاوية الريسونية.

15- المساجد الشفشاونية التي احتضنت الكتاتيب القرآنية داخل المدينة هي: المسجد الأعظم - مسجد ريف الأندلس - مسجد أبي خنشة - مسجد الصبانين - مسجد العنصر - مسجد العقائل - مسجد السوق - مسجد ابن يلون.

بالمغرب مولاي أحمد بن الأمين الريسوني المتوفى في 1976م فقد درس على شيوخ منهم أستاذه الذي تخرج عليه مولاي أحمد المهبطي.

كما أن بعض الكتاتيب كانت لا تنسب بالضرورة إلى زاوية أو مسجد بل تكون كتابا في الحى دون إلحاقها بالزوايا والمساجد.

وبالجملة فقد كانت المدينة قبل الاحتلال قبلة لعشاق القرآن الكريم وبيئة يستنبت فيها حفاظه وحاملوه وهي فترة غنية بما يمكن أن يكون جديرا بالتسجيل في هذا الصدد نموذجا للكتاب الأصيل الصافي النقي كما توارثته الأجيال في بعد تام عن كل تغيير أو تأثر أو تقليد.

الكتاب القرآني التقليدي بشفشاون في فترة الاحتلال الأول 1920-1924

خلال هذه المدة كانت العساكر الإسبانية منشغلة بخوض غمار المعارك التي كان يشعل فتيلها المجاهدون وقد استطاعت الجيوش الغازية في 1922م الوصول إلى قلب المناطق الجبلية باحتلال الزاوية الريسونية رائدة الجهاد في قرية تازروت بقبيلة بني عروس.

وأثناء هذه الفترة لم يكن يهدأ صوت الرصاص وهدير القنابل ورعد الطائرات، معارك متواصلة وخنادق وأتهار من دماء وأشلاء متناثرة وبطولات رائعة سجلتها بمداد من الفخر قلوب وأرواح الشهداء رضي الله عنهم.

فالكتاب تأثر تأثرا بليغا بالغليان الذي كانت تغلي به قدر جبالة، وشفشاون هي عاصمة جبالة، فكان لابد (للفقيه) في (المسيد) أن يتفاعل مع الحدث وكان لابد ل(المحاضرة) أن يتفاعلوا بدورهم مع روح المقاومة والجهاد.

حدثت أمور يطول شرحها للمؤسسة التي نحن بصدد الحديث عنها، وأهم ما يمكن تسجيله انخراط (المسيد) في عملية التحريض على المقاومة، حيث كان

(الفقهاء) شديدي الحساسية تجاه الأجنبي الدخيل كما أن تلامذتهم أيضا رفضوا التعامل مع القبة الإفريقية التي حملها هذا الزائر الممجوج.

التطور في (المسيد) في الأربع سنوات نجمله في: الحماسة في الدعاء للمجاهدين- التركيز على آيات النصر والعز للمسلمين- التركيز على وعيد الله للكافرين- التشبث باللوح والقلم كسلاح يوازي بالنسبة للطلاب البندقية والمسدس بالنسبة للمتطوع بالجهاد.

لكن (المسيد) في هيكلته ونظامه ومنهجه لم يتأثر بالوضع الاستعماري البغيض، بل بالعكس ظل رمزا للصمود والتصدي.

الكتاب القرآني التقليدي بشفشاون في الاستقلال الأول خريف 1924
صيف 1926

عامان إلا ربعا عاش فيهما الكتاب مزدهرا مكرما مبجلا، فها هي قد انجلت الغمة بخروج الجنود النصارى، وها هي قد غادرت الإدارة الحامية قصبة شفشاون، وها هي الحرية عادت أعلامها من جديد ترفرف على المدينة المحررة الوحيدة في طول المغرب وعرضه.

الكتاب انتشى بالنصر وغنى غناء العز وصدق بأهازيج الفرح والسرور فلا علم (بفتح العين واللام) للأجنبي في شفشاون ولا جندي واحد للفيالق الإفريقية يدنس هذه الأرض الطيبة فلا بد للكتاب أن يشارك في البهجة والفرحة العارمة.

إن (المسيد) لاحظ وسمع وعاش التطور الجديد والتلاميذ وعوا أن ما جاء به الذكر الحكيم من النصر للمسلمين قد تحقق، فإذا هناك تأكيد من الواقع ومن الميدان لمضمون كلام الله بأن العزة للمؤمنين.

ورغم أن الطيران كان يخطر المدينة بالقنابل قاتلا وفاتكا في المدينة الوحيدة التي ضربت من الطائرات بهذه القذائف في تلك الفترة ف(المسيد) كان يقدم العزاء للأهالي ويقدم السلو والسلوان ويهدي للسكان بلسم الصبر والجلد والتحدي فهو كان الصحافة والإعلام آنذاك وهو كان الإذاعة والتلفزة وقاعة المحاضرة في تلك الفترة.

فما أطيب الدور العظيم الذي قام به (المسيد) في هذه الآونة.

وأذكر للتاريخ كيف أرادت الطائرة ضرب الزاوية الريسونية بشفشاون لكنها أصابت (غرسة اللتشين) المجاورة لها، فانغمست القنبلة في محيط شجرة (المزاح) وكنا نتذكر تلك الشجرة ونتمتع بالتملي في أغصانها ونأكل من ثمارها مستذكّرين لطف الله عندما خذل الله تعالى الربان الحبيث فنجا الأشراف الريسونيون من شظايا ذلك السلاح الفتاك.

ولابد أن أشير إلى رؤيا رآها أحد الصالحين في تلك الآونة، إذ رأى في منامه كأن عبدا أسود بباب هذه الزاوية وهو يدفع ما تخطر به الطائرة في اتجاه بعيد.

الكتاب القرآني الشفشاوي من 1926 إلى 1956 ثلاثون سنة من الاحتلال الثاني للمدينة المباركة

لقد كانت (المسايد) منتشرة وتعد آنذاك إحدى أهم ركائز المقاومة السلمية للاحتلال الأجنبي. ودخلت الوطنية من باب (المسيد) في تكوين الشباب.

وللتاريخ أذكر أن كتاب الزاوية الريسونية حي السوقة بسيدي ابن الحسن شهد أول تطور إيجابي في القرن العشرين عندما تم إدخال الإصلاح التربوي والوطني إليه على يد صاحب الزاوية الوالد مولاي أحمد بن الأمين الريسوني أمطره

الله بوابل الرحمت، ففي أوائل الثلاثينات¹⁶ كانت الحركة الوطنية بتطوان قائمة على قدم وساق وكان الوالد يمثلها بشفشاون وكان معه ثلة من أحبابه في الله.

وهكذا أقام الوالد في (المسيد) بهذه الزاوية أول خلية للإصلاح التربوي المشبع بالروح الوطنية الحديثة حيث أسند إلى الفقيهين الجليلين المرحومين: أحمد ابن المقدم¹⁷ وعبد القادر الشحام¹⁸ تدريس المواد العصرية للتلاميذ بعد الحصص القرآنية التي كان يضطلع بها شيخنا أحمد ابن سعيد الخمسي.

لقد تم تدريس تاريخ وجغرافية المغرب والأناشيد الوطنية والرياضيات والنحو وما إلى ذلك لفئة من أولئك الأطفال الذين شكلوا الرعيل الأول للجيل الجديد، ولم يبق الآن من أولئك التلاميذ إلا أقل القليل مثل صديقنا الشريف الجليل سيدي الحاج محمد بن محمد ابن الحاج أحمد العلمي القوسي المعروف ب(ابن العربي) وهو والد الأستاذ مصطفى العلمي العضو في المجلس العلمي المحلي في شفشاون، وقد مات زملاء له درسوا في تلك الزاوية ضمن تلك الخطوة الجبارة أذكر منهم النابغة المرحوم الحاج محمد بن عبد السلام الوريثي¹⁹ وجارنا السيد المرحوم الحسين بن عبد السلام بن أحمد بن الحسين الأيسر الأندلسي الأصل.

16- جريدة الحياة الصادرة بتطوان لصاحبها الأستاذ عبد الخالق بن أحمد الطريس كانت لسان حال الوطنية الناشئة في شمال المغرب في أوائل الثلاثينات وكانت تنشر بعض المعلومات عن فرعها الوطني بشفشاون.

كما توجد وثائق عدة عن وطنية شفشاون في تلك الحقبة في حوزة الأستاذ محمد ابن عزوز حكيم والأستاذ أبي بكر بن عبد السلام بنونة الذي أفادنا بهذا الأمر بالإضافة إلى ما لدى المكتبة الداودية بتطوان لصاحبها الأستاذة حسناء بنت الفقيه المؤرخ الحاج محمد داود.

17- الأستاذ أحمد ابن المقدم ينتمي لعائلة المرباط وعمل أول رئيس لفرع حزب الإصلاح الوطني بشفشاون وعمل عدلا في المدينة وتاجرا في الكتب واتسم بالأخلاق الطيبة إلى أن وافاه أجله المحتوم رحمه الله.

18- الأستاذ عبد القادر الشحام وطني غيور ومصلح اجتماعي في المدينة وصوفي مطلع على أحوال التصوف في فرعه الدرقاوي عمل في التجارة ثم في سلك التعليم ونشر مبادئ حزب الشورى والاستقلال في ناحية ابن القصيري بعد الاستقلال كما كان من كبار المنشدين للقائد الصوفي وكان له تمكن في التاريخ المحلي والإقليمي رحمه الله برحمته الواسعة.

19- الأستاذ محمد الوريثي صاحبنا وأخونا من كبار نبغاء هذه المدينة انظر عن ترجمته سلسلة من المقالات صدرت في أسبوعية الشمال 2000 أخرجه الباحث الأستاذ محمد العسري في 24 حلقة آخرها الصادرة في عدد 324 من الجريدة المذكورة الصادرة في 2006/6/20 صفحة 15 وخصصها الكاتب لشهادة الروائي عبد القادر الشاوي في حق الأستاذ الوريثي.

وأشير إلى أن طويل العمر صديقنا السيد محمد ابن الحاج أحمد²⁰ بن قاسم العمارتي أطل الله عمره ممن تتلمذ في زاويتنا آنذاك ضمن تلك الخطوة المحمودة.

لقد كانت تلك التجربة الفذة مقدمة لانتقال ذلك النظام الجامع بين التربية والوطنية إلى تأسيس المدرسة الأهلية جنب الزاوية القادرية.

وهذه المدرسة الأهلية يعود الفضل في تأسيسها إلى لجنة من أهل البلد حاولوا جعلها على غرار المدرسة الأهلية القديمة للفقير محمد داود مؤرخ تطوان، ولكن الوالد مولاي أحمد الريسوني بوصفه ناظرا على الأحباس العامة سهل تفويت المقر لاستعماله مدرسة أهلية.

فالمدرسة الأهلية الشفشاونية أسست في مقر الزاوية الريسونية في النصف الأول من الثلاثينيات قبل انتقالها لمقرها الجديد جوار الزاوية القادرية.

ولم تكن هذه المدرسة إلا كتابا قرآنيا في حلة عصرية حيث أدخلت مواد جديدة وحدث تطوير في الأسلوب حيث استعملت السبورة والكرسي والتوقيت بالساعات وحدث تعيين الهيكل من مدير ومراقب إلى آخره كما تم اعتماد الدفتر لأول مرة.

وقد ظلت المدرسة المذكورة قائمة الذات إلى ما بعد الاستقلال جنب الزاوية القادرية.

ولكني سأضيف شيئا آخر حدث في الفترة المتحدثة عنها 1926-1956 وهذا الشيء هو المدرسة الابتدائية للبنين المحدث في أواخر العشرينات فقد احتضنت كتابا قرآنيا درسنا فيه ما تيسر على شيخنا الولي الصالح البركة الفقيه محمد بوذياب الشبيه كثيرا بالشيخ الإمام محمد عبده.

20- الحاج أحمد بن قاسم العمارتي كان مقدما على الزاوية الدرقاوية بشفشاون إلى أن لقي الله فخلفه عليها المقدم الجديد السيد علي العافية والد صاحبنا الأستاذ البحاتة عبد القادر العافية.

لقد كان الفقيه بوذياب مخلصا أشد الإخلاص للقرآن الكريم طيب الله ثرى هذا الأستاذ وجزاه عنا خيرا وقد أدخل إلى قسمه الأنشودة الإسلامية والأنشودة الأخلاقية ومن خالهما ألقى في روعنا تعظيم شعائر الإسلام والاهتمام بجانبه الأخلاقي فضلا عما تلقيناه في البيت والزاوية و(المسيد).

ذكرياتنا عن الفقيه بوذياب وتطويره للكتاب القرآني لا تسعه هذه المداخلة وكيف أفى الرجل حقه وفضله علينا وعلى زملائنا لا يثبته عليه إلا الله.

وهذا التطوير يشهد به المئون من التلاميذ الذين تتلمذوا على يد شيخنا بوذياب رضي الله عنه وأرضاه، ويحتفظ كل منهم بذكريات زاكية عن هذا الرجل الصالح.

وتطور الكتاب كذلك في القسم بتلك المدرسة على يد شيخنا الصالحين:

1- المرحوم الحاج عبد السلام نجل الشيخ الصوفي العالم محمد اليزيدي اليلصوتي²¹ (المعتمد على الله).

2- الشيخ الحاج الهاشمي ابن سعيد المشكرالي²².

ونظارة الأوقاف والباشوية والمعهد الديني والحركة الوطنية وجامعة القرويين ومعاهد تطوان كل أولئك أحدثوا تطويرات في الأداء التربوي للكتاب الشفشاوني في تلك الحقبة ولا حاجة للإطالة.

الكتاب القرآني الشفشاوني في عهد الاستقلال ابتداء من 1956

وهي المرحلة الحالية وتمتد نصف قرن حيث تغيرت الأمور وتطورت الأحوال وتبدلت الأوضاع تبعا لسنة الكون المقتضية للحركة والمنافية للجمود.

21- نسبة إلى قرية بني يزيد في ربع الهبطيين في النصف الأعلى من الأخماس وكان هذا الرجل الصالح منتسبا إلى الطريقة الناصرية.

22- المشكرالي نسبة إلى قرية مشكرالة الواقعة في ربع الهبطيين المشار إليه.

وهذه التجربة الطويلة في الزمان والمتعددة في الفضاءات والتي يتداخل فيها كثير من العوامل المحلية والإقليمية والوطنية وكثير من الجهات الرسمية والشعبية لا يمكن اختزالها في هذه الإطالة على الموضوع المتشابك الذي يستحيل أن نوفيه حقه في هذه العجالة.

لكننا باختصار نشير إلى ما يلي:

- 1- وقع تبديل وتغيير المصطلح وتنويعه: المسيد-الكتاب-الروض-روض الأطفال-الحضانة-التعليم الأولي.
- 2- الجهات الإدارية المعنية بهذه المؤسسة: نظارة الأوقاف- النيابة الإقليمية للتربية الوطنية-الشبيبة والرياضة-التعاون الوطني-البلدية. وذلك إما بالترخيص أو بالمراقبة أو بالرعاية.
- 3- الجهات المالكة أو المسيرة: أفراد-أسر-زوايا-جمعيات-مؤسسات خاصة.
- 4- وقع فك الترابط القديم ما بين الكتاب والزواوية والمسجد وصار للكتاب تميزه عن الزواوية والمسجد من حيث البقعة والفكرة والنسبة.
- 5- الجهات الداعمة ماديا تغيرت فلم يعد الآباء وحدهم الممولين ل(الفقهاء) بل تنوعت الموارد المالية للمربين.
- 6- تغير مصطلح (الفقيه) إلى مصطلحات أخرى: المربي- المؤدب-المعلم-الأستاذ.
- 7- تم تطعيم المادة الأساسية وهي تلقين القرآن الكريم بمواد شتى: العربية-الفرنسية-التربية الوطنية-الألعاب-الحساب-النشيد بالإضافة إلى التربية الدينية وغيرها.

8- تم إدخال الصور والأعلام الوطنية وأدوات الزينة والديكور.

9- اعتمد نظام التفقد والتفتيش والمراقبة والمتابعة.

10- أدخلت الرعاية الصحية أحيانا والتلقيح والختان أحيانا.

11- اتخذت دفاتر التسجيل والتوثيق ومحاضر الدخول والخروج وأوراق تحضير الدروس واعتمدت الكتب والدفاتر والمراجع والمصادر وبدأت اللقاءات التربوية والمؤتمرات المتخصصة والندوات والحفلات خاصة حفلات آخر السنة.

12- أحيانا أدخلت سيارة النقل المدرسي وصار الآباء لا ييخلون بالمشاهدة المرتفعة لقاء إدخال الأولاد لهذه المؤسسات.

13- أحيانا يتم قبول المسرح الطفولي وهو للمرح والترويح والتنشيط بالإضافة إلى الخرجات وبعض الأنشطة المرتبطة بالجو العام للمدينة.

14- وضع نظام أساسي²³ للكتاب ضمن ميثاق التربية والتكوين وصدر بذلك قانون في الجريدة الرسمية وانخرطت شفشاون في هذا الأمر.

15- تم ادخال المرأة لأول مرة لمجال الكتاب القرآني: صاحبة مشروع- مديرة- مشرفة -مربية-مساعدة-منظفة.

هذه بعض التطورات أذكرها كما جاءت وكما وقعت رصدًا ميدانيًا لمسيرة الكتاب الذي يعد اللبنة الأولى للعائلة المسلمة بالمغرب.

ربط المدرسة القرآنية بالتكوين المهني الذي يؤهل الخريجين للولوج لسوق الشغل

وهذا هو النموذج الذي نقول به وندعو له في هذه الظروف إذ الكتاب

23- النظام الأساسي الجديد الذي يضبط الكتاب القرآني في المغرب هو القانون رقم 13-01 حسب الظهير الشريف رقم 1.02.09 الصادر في 15 من ذي القعدة 1422 موافق 29 يناير 2002 والمنشور بالجريدة الرسمية عدد 4977 الصادرة بتاريخ 28 من ذي القعدة 1422 موافق 11 فبراير 2002.

القرآني يجب أن يرتبط ولا بد بهذا الأمر المفيد حتى لا يظل الخريجون عالة على المجتمع يتكفون الناس مثل ما حدث في أحيان كثيرة.

فنحن نلح أن تكون المدرسة القرآنية الجديدة مرتبطة بالتكوين المهني في تخصصات عدة فمثلا يمكن في الفترة الصباحية الاقتصار على تحفيظ القرآن الكريم، لكن في الفترة المسائية تعطى الدروس النظرية والعملية في التكوين المهني الذي يحتاجه الناس مثل الكهرباء والحدادة والنجارة والميكانيك وإصلاح الآلات وهلم جرا حتى إذا تخرج التلميذ وجد أمامه سوق العمل مفتوحا وفرصة الشغل متاحة فيستفيد بالقرآن الكريم في دنياه وأخراه ويستفيد من تكوينه المهني في توفير دخل محترم يؤمن له العيش الكريم مع أقرانه وزملائه.

كما أن التركيز في التدريس القرآني على تعلم اللغة الأجنبية الحية أمر جد هام مثل اللغات: الإسبانية والفرنسية والانجليزية فلا يخفى على ذي لب المنافع المتعددة والمؤكدّة لتحصيل الألسن الأجنبية في هذا الزمان إذ من شأن ذلك فتح الذهن للطالب للإطلاع على ثقافة الآخر وعلى الواقع في تجلياته العالمية وهو ما يمكنه من تعاطي بإيجابية مع التطورات المتسارعة التي يشهدها عالمنا المعاصر في ساحاته وميادينه وعلاقاته المتشابكة.

في حين أن حرمان الطالب القرآني من اللغات الحية يعد تقصيرا كبيرا في حقه وتفریطا في جانبه بل في جانب البلاد التي هي في أمس الحاجة إلى إعطاء النموذج الرفيع عن إمكانية المزاوجة ما بين الأصول والثوابت والهوية من جهة وما بين الحداثة العاقلة بكل ما فيها من خير من جهة أخرى.

وبذلك تتمحي الصورة السلبية عن (الطالب القرآني) حيث كان يصور قارئاً على المقابر وشحاذا في الأسواق ومتسولا في المآتم ومتأكلا بدينه وذليل النفس ودون مستوى أقرانه ومادّا يديه إلى الأغنياء، ففريده إن شاء الله أن يصير

عوضاً عن ذلك ذا همة ومكانة في المجتمع وحرقة شريفة يستطيع بها الزواج وتكوين بيته وبناء مستقبله والإسهام في تنمية بلاده من دون إزعاج لأحد أو تملق لأية جهة.

إن هذا المقترح إذ أقدمه هنا لمن يهمله الأمر لعلّ يقين من أنه مقترح إيجابي يسعى إلى ردم الهوة بين الكتاب القرآني وبين الحياة الاجتماعية والواقع المعيش وإعطاء نظرة كريمة عن ديننا الحنيف وأنه دين الجد والعمل والسعي وليس دين الكسل والتعاس والتواكل.

وجوب توخي المعاصرة الراشدة في المدرسة القرآنية الجديدة

إن العالم اليوم مأزوم بالصراع ومفتتن بالكراهية والحقْد الأعمى ومحترق بالأفكار الملتهبة التي تهدد الاستقرار والتعايش والسلام.

فما أحوجنا عبر الحكمة وبعد النظر والتبصر الهادئ أن نعطي الانطباع للآخرين بأن تعليمنا القرآني تعليم حضاري بالأساس وأنه منهاج للتربية المتكاملة الصانعة للإنسان السعيد، الإنسان المتوازن المعتدل المشبع بقيم المحبة والنية الحسنة.

ما أحوجنا إلى صنع منهاج الوسطية التي يطمئن لها الجميع بأننا أمة الحوار والقبول بالآخر وأنها نسعى بإخلاص إلى جعل قيمنا الدينية وعلى رأسها القرآن الكريم هي الضمانة الحقيقية لاستقرار البشرية وتحقيق أمنها وازدهارها.

إن المغرب العزيز يمكن أن يلعب الدور الكبير في صنع السلام الحقيقي المؤسس على الحق والعدل والخير والجمال، السلام الذي هو لب الإسلام والذي لا يعني قط الصغار (بفتح الصاد والغين) والذلة والمهانة بل يعني العزة والكرامة والشرف، السلام المتوخي لإسعاد الإنسان وتخليصه من الجهالتين العلمية

والعملية والدفع به إلى المعالي والنأي به عن سفاسف الأمور.

والمغرب بحكم موقعه الجغرافي المتميز يعتبر جسرا بين الشمال والجنوب والمشرق والمغرب ويعد مدخل القارة الإفريقية إلى أوروبا ونظرا لهذا الموقع العربي والإفريقي والإسلامي والمتوسطي ينبغي أن نسعى جميعا للإسهام في رفعته بكل إخلاص وتجرد رافعين راية الإصلاح. قال تعالى: ﴿إِن أُرِيدَ إِلَّا الْإِصْلَاحُ مَا اسْتَهْضَمْتُ﴾ [هود:88] والكتاب القرآني المغربي المنشود سيشكل بإذن الله وحسن توفيقه الجميل أهم معلمة حضارية إنسانية رائدة يقدمها بلدنا العزيز هدية تربوية ثمينة.

الأنشطة الموازية في الكتاب القرآني، و دورها في ترسيخ الهوية - منطقة سوس نموذجا -

اليزيد الراضي

رئيس المجلس العلمي المحلي بتارودانت

تقديم

تشكل الكتابات القرآنية في المجتمع المغربي مؤسسات تربوية بالغة الأهمية، لأن الأطفال يدخلون إليها في سن مبكرة، وصحائفهم نقية بيضاء، وفطرتهم سليمة بريئة، لم تلوث بعد، ولم تشب صفاءها وبرائها شائبة، فتتعهدهم بالصقل النافع والتهذيب اللازم، وتطبع وجدانهم بطوابع الصدق والطهر والفضيلة، وتنمي فيهم عناصر الخير، وتجفف منابع الشر، وتضع الأسس السليمة المتينة لشخصياتهم المتكاملة المتوازنة وتقيم صرح هويتهم الدينية والخلقية والوطنية والحضارية على الركائز الدينية والمبادئ الإنسانية الحضارية.

وبما أن الكتابات تحتضن الأطفال في سن مبكرة، فإن توجيهاتها تصادف عندهم قلوبا خالية، فتتمكن وترسخ، وتؤتي أكلها الطيب النافع بإذن ربها، ويرافقهم أثرها الإيجابي مدى الحياة، لأن التوجيه الأول الذي يسبق إلى الطفل - ذكرًا كان أو أنثى - هو الذي يؤثر فيه أبلغ تأثير، ويتحكم في رؤاه وتوجهه، وعليه يبني تصوراتهِ عن نفسه وعن الكون والحياة، وعلى هديه يبني فكره، ويدبر أمره، كما قال الشاعر العربي:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا¹

1- البيت لأبي المكشوح يزيد بن سلمة الخير، المعروف بابن الطثرية (ت127هـ) (انظر المحاضرات لليوسي تحقيق وشرح محمد جحي، وأحمد الشرقاوي إقبال/1-40-41)، وورد في ديوان مجنون لبلى بشرح عبد المتعال الصعيدي ص164).

وكما قال الآخر:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلّ للحبیب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل²

وقد انتبه المسلمون عامة، والمغاربة خاصة، إلى هذا المعنى، فكانوا يدخلون أبناءهم إلى الكتاتيب القرآنية - في الغالب الأعم - في سن الخامسة من عمرهم، وألحوا على ضرورة العناية بالأطفال في سن مبكرة، وتعليمهم ما ينفعهم، وتعويدهم الفضائل والمكارم منذ نعومة أظفارهم، فقال ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله في مقدمة رسالته الفقهية المشهورة: "واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه، وأولى ما عني به الناصحون، ورغب في أجره الراغبون، إيصال الخير إلى قلوب أولاد المومنين، ليرسخ فيها، وتنبيههم على معالم الديانة، وحدود الشريعة، ليراضوا عليها، وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم، وتعمل به جوارحهم، فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفى غضب الله، وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر"³.

وبركات الكتاتيب القرآنية وأسرارها، والفوائد العلمية والأخلاقية التي يجنيها منها الأطفال كثيرة جدا، لا يمكن تتبعها في هذا المقام، ويكفي أن نشير إلى أن هناك فرقا كبيرا وواضحا، يلاحظه الخاص والعام، بين الذين قدر لهم أن تحتضنهم الكتاتيب القرآنية، وترضعهم لبانها، وتنفخ فيهم من روحها، وبين الذين لم يقدر لهم ذلك، فالأولون يتحلون - غالبا - بصفات جميلة جليلة، على رأسها الحياء والتواضع واحترام الآخرين - خاصة المسنين - وبر الوالدين،

2- البيتان لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي الشاعر العباسي المشهور (انظر شرح ديوان أبي تمام لشاهين عطية ص: 463).

3- الرسالة لأبي زيد القيرواني بشرح الشرنوبى ص 6-7.

وحسن المعاشرة، ودمائة الأخلاق، والصدق والإخلاص، والسعي في النفع العام، وهذه الصفات تندر في الصنف الآخر، إلا من رحم ربك، وقليل ما هم. ولذلك قال أحد الشعراء الامازيغ:

"يعدل نيت ءيخ ءيكاً يان تيمز كيدي ءيخ ءوركين لعاليم ييسان كاصاً واي"

ومعناه: ينبغي أن يتعلم المرء في الكتاب، فإن لم يكن عالماً، كان مؤدباً على الأقل.

وسأخصص هذه الورقة لبعض الأنشطة الموازية، التي يقوم بها رواد الكتاتيب القرآنية في بعض المناطق المغربية، وتسهم إسهاماً كبيراً في صوغ شخصيتهم، وتوضيح رؤيتهم، وحماية هويتهم.

الأنشطة الموازية التي يمارسها رواد الكتاتيب القرآنية، ودورها في ترسيخ هويتهم:

إذا كانت عملية تحفيظ القرآن الكريم، هي المهمة الرئيسية التي اضطلعت بها الكتاتيب القرآنية فإن ذلك وحده يجعلها ذات رسالة نبيلة، لأنها تربط أولاد المسلمين، بكتاب الله عز وجل، الذي هو دستور المسلمين، ومنع عزهم، ومصدر حضارتهم.

ولكنها -زيادة على ذلك- تفسح المجال أمام روادها لممارسة أنشطة موازية، لاشك أن لها أثراً كبيراً في بلورة شخصيتهم، وصياغة تصوراتهم، وحماية هويتهم، وتثبيت خطواتهم على المحجة البيضاء. ومن هذه الأنشطة:

1- تعليم الأطفال شفويا كيفية ممارسة الشعائر الدينية: وخاصة شعيرة

الصلاة، حيث يخصص المشرف على الكتاب - في بعض البوادي السوسية - ما بين العشاءين، لتعليم رواد الكتاب وبنات المدشر ما تتوقف عليه صحة صلاتهم وكمالها، من وضوء وتيمم وفتحة وسور قصار (الربع الأخير من الحزب الستين)

ويعلمهم أوقات الصلاة، وعدد الصلوات المفروضة، وركعاتها وما يقرأ في كل ركعة وتشهد وقنوت.

وهذا التعليم الشفوي يزود الأطفال - ذكورا وإناثا - بقدر كاف من فقه الصلاة، بحيث لا نجد في البوادي السوسية من لا يعرف من الرجال والنساء والشباب والأطفال كيف يتوضأ وكيف يتيمم وكيف يصلي، ولا من لا يحفظ الفاتحة والصور القصار - التي تضمنها الربع الأخير من الحزب الستين - والتشهد والقنوت وإقامة الصلاة وآية الكرسي.

2- تعليم الأطفال ذكورا وإناثا أموراً أخرى، تفتح أفقهم المعرفي، وتجعلهم على بصيرة من قضايا عديدة، ترتبط بالعقيدة وغيرها، ذلك أن المشرف على الكتاب في البوادي السوسية لا يقتصر في الفترة الزمنية الممتدة بين العشاءين، على تعليم الأطفال أمور الطهارة والصلاة، بل يعلمهم أموراً أخرى يصوغها في شكل أسئلة وأجوبة، ويقدمها لهم هكذا:

- من هو واحد؟ الله سبحانه؛

- من هما اثنان؟ أبونا آدم وأمنا حواء؛

- من هم ثلاثة؟ أصحاب الروضة/من هم؟ سيدنا أبو بكر، وسيدنا عمر، وسيدنا محمد رسول الله ﷺ؛

- ما الأربعة؟ الكتب الأربعة التي أنزلها الله على الأنبياء. ما هي؟ التوراة لموسى، والإنجيل لعيسى، والزبور لداود والفرقان لسيدنا محمد ﷺ؛

- ما الخمسة؟ الصلوات الخمس التي فرضها الله علينا في اليوم واللييلة، ما هي؟ الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح؛

- ما الستة؟ الأيام الستة التي خلق الله فيها الدنيا. ما هي؟ الأحد، والاثنين

والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت زائد في الأيام؛

- ما السبعة؟ سبع سموات، وسبع أرضين، وسبعة أبحر، وسبعة عذابات نجانا الله منها، ونجى والدينا ونجى المسلمين أجمعين؛
- ما الثمانية؟ ثماني جنات رزقنا الله إياها، ورزقها والدينا والمسلمين أجمعين؛

- من هم تسعة؟ تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون؛

- من هم عشرة؟ أصحاب النبي ﷺ.

- من هم أحد عشر؟ إخوة سيدنا يوسف؛

- ما الاثنا عشر؟ الشهور الاثنا عشر التي خلقها الله في العام، ما هي بالعربية؟ المحرم، صفر، ربيع الأول، ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الثانية، رجب، شعبان، رمضان، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة. ما هي بالعجمية؟ يناير، فبراير، مارس، أبريل، مايو، يونيو، يوليو، غشت، شتنبر، أكتوبر، نونبر، دجنبر؛

- كم عدد أقدام الظهر؟ يناير تسعة، فبراير سبعة، مارس خمسة، أبريل ثلاثة، مايو اثنان، يونيو واحد، يوليو واحد، غشت اثنان، شتنبر أربعة، أكتوبر خمسة، نونبر ثمانية، دجنبر عشرة.

3- أداء الصلوات الخمس جماعة في أوقاتها: بحيث يلزم المشرف على الكتاب جميع الأطفال بأداء الصلوات الخمس في الكتاب مع الجماعة، ويعاقب من تخلف عن الصلاة بدون عذر، إما بغرامة مالية، وإما بتوبيخ وضرب، وإما بطرد إن استمر على ذلك.

والهدف من إلزامهم بالصلاة قبل وجوبها عليهم، هو أن يتعودوها ويألفوها، لأن من شب على شيء شاب عليه، ومن ألف الصلاة في صغره، سهل عليه الحفاظ عليها في كبره، ولذلك ورد في الحديث الشريف: "مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، وإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها"⁴.

وقد لوحظ أن غالب الذين تعلموا في الكتاتيب القرآنية، يحبون الصلاة، ويحافظون عليها، ويؤدونها في المساجد مع جماعة المسلمين.

4- حضور قراءة الحزب الراتب المسائي والصباحي: لأن ذلك يمهّد الطريق أمام الطفل، ويسر له الحفظ، وفي الوقت نفسه يعودده ملازمة قراءة الحزب الراتب، ويجعله محافظاً عليه في مستقبله، اغتناما لأجر التلاوة من جهة، وحماية للقرآن من الهجر والنسيان من جهة ثانية. وكثير من المشرفين على الكتاتيب القرآنية، يعاقبون المتخلف عن الحزب الراتب بغرامة مالية، زجرا له ولغيره.

5- قراءة منظومات عقدية، وفقهية وقصائد في المديح النبوي والتوسل، عقب الحزب الراتب: ومن هذه المنظومات والقصائد:

أ- قصيدة البردة للإمام البوصيري التي تقرأ عقب الحزب الراتب المسائي في كل مساجد المملكة المغربية إلى عهد قريب، وما زالت تقرأ في البوادي وفي بعض الحواضر.

ب- قصيدة الهمزية للإمام البوصيري التي تقرأ في بعض المناطق عقب الحزب الراتب الصباحي.

ت- قصيدة الشيخ محمد بن ناصر في التوسل، ومطلعها:

4- أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم والدارقطني، وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

يا من إلى رحمة المفر ومن إليه يلجأ المضطر⁵

ث- قصيدة في التوسل تقرأ في بعض البوادي السوسية عقب الحزب
الراتب الصباحي، ومطلعها:

إليك رجائي يا مفرح كربتي ويا عالما لم تخف عند سريرتي⁶

ج- منظومة في العقيدة، تقرأ في بعض البوادي السوسية عقب الحزب
الراتب المسائي ومطلعها:

الحمد لله الذي خلقنا فلم يلد ولم يولد إلينا⁷

ح- منظومة الشيخ محمد بن ناصر في العبادات التي تقرأ عقب الحزب
الراتب المسائي في بعض المناطق المغربية ومطلعها:

الحمد لله حمدا طيبا عطرا ثم الصلاة على المختار من مضرا⁸

خ- قصيدة الشيخ أحمد بن عبد العزيز الهلالي، التي تقرأ في بعض المساجد
السوسية بعد الحزب الراتب المسائي ومطلعها:

يا رحمة الله جدي السير عن عجل لدفع ما حل بالإسلام من وجل

د- مقطوعة تقرأ بعد الحزب الراتب المسائي في بعض المناطق السوسية،
ومطلعها:

يارب هيئ لنا من أمرنا رشدا واجعل معونتك الحسنى لنا مددا⁹

5- أنظرها كاملة في طلعة المشتري 324/1-327. ونسبت في مجموع القصائد والأدعية (ص51) لسيد محمد بن عبد لسلام الدرعي. وعدد أبياتها 71 بيتا، وقد قام محمد بن عبد الله كوثر الروداني بتحقيقها ونشرها.

6- هذه القصيدة مطبوعة ومتداولة، وفيها التوسل بالنبي ﷺ، وبأبي العباس أحمد بن محمد بن ناصر.

7- هذه المنظومة للفقير الرباني سيدي عبد الحق الهنتيفي، وعليها شرح جيد سماه صاحبه "عقد الجواهر، على عقيدة عبد الحق الماهر"- مخطوط-

8- أنظرها كاملة في طلعة المشتري 316/1-318، وعدد أبياتها 30 بيتا، نظمها الشيخ ابن ناصر لأزواجه وبناته ومن في معانهم من فقراء أصحابه، وتسمى "مساعدة الإخوان".

9- تتكون هذه المقطوعة من ثمانية أبيات، الأربعة الأولى لا أعرف قائلها، والأربعة الأخيرة لابن يجيش التازي، وأولها: استودع الله أولادي وأمهم والعلم والدين والآباء والجسدا

ذ-مقطوعة في اللطف تقرأ في بعض المناطق المغربية بعد الحزب الراتب المسائي ومطلعها:

ألا يا لطيف يا لطيف لك اللطف فأنت لطيف منك يشملنا اللطف¹⁰

ر-مقطوعة تقرأ في بعض المناطق المغربية بعد الحزب الراتب المسائي ومطلعها:

يا بديع الصنع يا من كلما دهم الأمر جلا ما دهما¹¹

وهذه القصائد والمنظومات يحفظها الأطفال في الكتاتيب سماعا، وتشكل مقوما من مقومات شخصيتهم اللغوية والأدبية والدينية، وكان ينبغي أن تستمر قراءتها، لكثرة فوائدها وبركاتها، لكن فتور الهمم، وإخلاد النفوس إلى الراحة والكسل، جعل جلها في خبر كان، والله الأمر من قبل ومن بعد.

6- إشاعة روح التعاون والعمل الجماعي في صفوف المتعلمين: ويتجلى التعاون في مساعدة التلاميذ بعضهم بعضا، حيث يكلف المشرف على الكتاب نجباء التلاميذ ومتفوقيههم، بالعناية بمن هم أقل منهم فهما ومستوى، فيساعدون الأستاذ من جهة ويساعدون زملاءهم من جهة ثانية، خاصة في الإملاء، وتصحيح الألواح.

كما يتجلى العمل الجماعي فيما يمارسونه من أعمال بشكل جماعي ككنس الكتاب وتنظيفه من حين لآخر. وقراءة القرآن جماعة.

7- حمل المتعلمين على النظافة: وتربيتهم على المحافظة عليها، لتصبح مكونا من مكونات هويتهم وعنصرا من عناصر شخصيتهم، ولذلك يلح معلمهم على

10- أنظرها كاملة في مجموع القصائد والأدعية ص28، وهي لسبيدي محمد بن الشاهد الجزائري، وعدد أبياتها 10 أبيات.

11- هذه المقطوعة تقرأ في أغلب مساجد "أملن" وما حولها.

نظافة أجسادهم وثيابهم، ويذكرهم من حين لآخر بقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَنِيَابُكَ فَصْمْ﴾ [سورة المدثر، الآية 4].

8- إقامة حفلات بمناسبة العطل السنوية (العواشر): تعطى للتلاميذ في الكتابات القرآنية، ثلاث عطل سنوية (تسمى العواشر) بمناسبة الأعياد الدينية الثلاثة: عيد الفطر، وعيد الأضحى، وعيد المولد النبوي، ومدة كل عطلة من هذه العطل ما بين عشرة أيام وعشرين يوما، نصفها قبل العيد ونصفها بعده.

وعندما تقترب عطلة من هذه العطل، يقوم التلاميذ بإذن من معلمهم، بجولة في المدشر أو الحومة، لجمع التبرعات التي يجود بها عليهم السكان، وتكون - فيما مضى - من النقود والبيض والسكر والشاي والدجاج والشعير. والقصد من هذه الجولة، ومن جمع هذه التبرعات، هو إقامة وليمة للتلاميذ ومعلمهم في بداية العطلة، حيث يباع ما جمع من شعير وبيض، ويشتري بثلثه لوازم الوليمة، وفي بعض المناطق يعطى ما جمع للمعلم.

وبما أن أكثر ما يجود به الناس قديما على التلاميذ ومعلمهم هو البيض، فقد سمي ما يجمع في هذه الجولة باسم "بيضة"، ودارت العبارات التي يرددها التلاميذ في هذه الجولة على البيض، وهي:

بيضة بيضة لله،

بش نزوق لوحتي

لوحتي عند الطالب،

الطالب في الجنة،

الجنة محلولة،

حلها مولانا
مولانا مولانا
يا سامع دعانا
لا تقطع رجانا
بجرمة محمد
محمد وصحابو
في الجنة ينصابوا
أنا بروج أنا بروج
بالساقية والناقية
نسقي لحباق والداليا
لفاطمة رسول الله
يا باري يا باري
ترزقني محضاري
يتوضا ويصلي
ويقرا كتاب الله
هذي الدار دار الله
والفقرا عبيد الله
عمرها يا ربي
بجاهك يا رسول الله

9- إقامة حفل بمناسبة ختم القرآن الكريم: يقام في الكتاتيب القرآنية حفلان بمناسبة ختم القرآن الكريم: أحدهما حفل متواضع بمناسبة ختم القرآن الكريم مرة كل خمسة وثلاثين يوماً، لأن قراءة الحزب الراتب الصباحي والمساءلي، تمكن من ختم القرآن كله في ظرف زمني لا يتجاوز خمسة وثلاثين يوماً علماً بأن سورة الكهف تقرأ ليلة الجمعة، وسورة يس تقرأ صباح الجمعة، منذ سن ذلك الشيخ ابن ناصر في القرن الحادي عشر. وفي بعض الحواضر التي لا تقرأ فيها سورة الكهف وسورة يس ليلة الجمعة وصبيحته، يختم القرآن كل ثلاثين يوماً.

والحفل الذي يقام بمناسبة هذا الختم، يختلف من منطقة إلى أخرى، بل يختلف داخل المنطقة الواحدة، فأحياناً يكون عبارة عن طعام يرسله بعض السكان إلى الكتاب، ليتناوله التلاميذ ومعلمهم ومن قرأ معهم الحزب الراتب، وأحياناً يكون عبارة عن شاي يقام في المسجد بعد الحزب الراتب، وتدار كؤوسه على التلاميذ ومعلمهم ومن حضر معهم في المسجد بين العشاءين، وأحياناً يكون عبارة عن تمر أو لوز يوجه إلى المسجد، ويوزع على التلاميذ ومعلمهم ومن كان معهم.

- وثانيهما حفل يقام بمناسبة ختم أحد التلاميذ القرآن لأول مرة:

اعتاد آباء تلاميذ الكتاتيب القرآنية في بعض المناطق المغربية- كمنطقة سوس- أن يقيموا حفلاً خاصاً لفائدة تلاميذ الكتاب ومعلمهم، عندما يختم أبناءهم القرآن الكريم لأول مرة، شكراً لله على أن وفق أبناءهم لختم القرآن الكريم، لأن الختمة الأولى، تبث الأمل في نفوس التلاميذ وأولياءهم وهي من أدلة جد التلميذ في دراسته، وتنوير الله لسيرته، وفتح لبصيرته.

وتختلف طريقة الاحتفال من منطقة إلى أخرى، ومن أسرة لأخرى، على أن الاحتفال بصفة عامة يتم إما في الكتاب نفسه، وإما في دار أسرة التلميذ

الخاتم للقرآن:

- ففي الحالة الأولى: يأتي والد التلميذ إلى الكتاب بذبيحة من الغنم، ويأتي أيضا بلوازم الوليمة من زيت وخضر وسكر وشاي، وتقام في الكتاب وليمة لفائدة التلاميذ ومعلمهم. ويعتبر يوم الوليمة عطلة استثنائية، يفرح بها التلاميذ فرحا خاصا.

- وفي الحالة الثانية: يقيم والد التلميذ وليمة في منزله، ويستدعي لها تلاميذ الكتاب ومعلمهم، ويبالغ في إكرامهم حسب استطاعته.

ويختتم الحفل في الحالتين بالدعاء للتلميذ الخاتم للقرآن ولوالديه وللمعلم، كما يدعى بالفتح والحفظ لكل التلاميذ، وبالرحمة والمغفرة لشيوخ القرآن والعلم.

وفي بعض المناطق تصنع ولائم من هذا القبيل بمناسبة بلوغ التلميذ سورة يس وسورة طه.

10- خدمة التلاميذ لمعلمهم: في بعض المناطق السوسية، كان بعض المشرفين على الكتاتيب القرآنية، وعلى المدارس العلمية، يكلفون فيما مضى بعض تلاميذهم لإنجاز بعض الأعمال، فينجزونها لصالحهم، وهي أعمال لا ترهقهم ولا تذلهم ولا تشعرهم بأن معلمهم يستغلهم، والدليل على ذلك هو أن التلاميذ يتنافسون في القيام بها بمنتهى السعادة والسرور، ويعتبرون القيام بها من أسباب الحفظ والتيسير، ويعتبرون من قام بها منهم مباركا محظوظا.

وتتمثل هذه الأعمال أحيانا في غسل ملابس المعلم، إذا لم يكن متأهلا، أو ترك أهله في بلده. كما تتمثل أحيانا في نقل الماء من عين أو "مطفية" إلى منزله. وقد تتمثل في إعانته في أشغال الحصاد أو جني الزيتون، أو في خياطة بعض ملابسه كالجلاليب الصوفية التي تخاط خياطة يدوية خاصة، أو في نسخ كتاب

يرغب في الحصول على نسخة منه.

وهدف المعلم من استخدام تلاميذه في هذه الأعمال الخاصة به أمور منها:

أ- أن يألّفوا العمل، ويتجنبوا الكسل، حتى لا تحول الدراسة بينهم وبين الأعمال اليدوية التي هم بحاجة ماسة إليها في حياتهم.

والحق أن هذه الأعمال تجعل التلاميذ في الكتاتيب القرآنية والمدارس العلمية، يتلقون تكويناً مهنيًا مفيداً، يجدون له بركات وأسراراً في مستقبلهم، فمنهم من يتخرج وهو يتقن الخياطة اليدوية بمختلف أشكالها، ومنهم من يتقن البناء، ومنهم من يتقن التسفير، ومنهم من يتقن الخط ويشغل بنسخ الكتب. أما الطبخ اللذيذ، وإقامة الشاي وغسل الملابس وصناعة الصمغ، وترتيب البيت، فتلك من خصوصياتهم التي يتقنونها أكثر من غيرهم.

ب- أن يساعدوه لكي ينجز أعماله بسرعة، ويتفرغ لتدريسهم، غير مشوش البال.

ت- أن يرزقهم الله الحفظ والفهم، بسبب قيامهم بتلك الأعمال، لأن خدمة الشيخ في نظر المربين من أسباب التيسير والتوفيق.

وعندما يكلف المعلم تلميذاً أو تلاميذاً بإنجاز عمل من أعماله الخاصة، يهتم بهم، ويكرمهم بما تيسر له، وكرم المعلم - رغم بساطته - ذو أهمية كبيرة في نظر التلاميذ، نظراً لكثرة الحاجة وقلة ذات اليد، لدرجة أن كل تلميذ يتمنى أن يختاره الفقيه للقيام ببعض أعماله، ليتلقى مقابل ذلك وجبة غذائية لذيذة، كثيراً ما تكون خبزاً وزيتاً وشايًا، ويحصل إلى جانب ذلك على دعوة مباركة من شيخه.

ولا بأس - ونحن نتحدث عن خدمة التلاميذ لشيخهم - أن نشير إلى أن

العلاقة بين المعلم والمتعلم في الكتابيب القرآنية، والمدارس العلمية، علاقة روحية رفيعة المستوى تتجاوز في دفتها وعمقها وقوة أواصرها علاقة الأبوة والبنوة.

وهذه العلاقة طيبة جدا من الجانبين:

- من جانب المعلم الذي يجب تلامذته، ويحسن بهم الظن، ويتعامل معهم تعامل الأب مع أبنائه البررة، ويحرص على إفادتهم وتكوينهم، وتزويدهم بما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

- ومن جانب المتعلمين الذين يحبون معلمهم، ويحترمونه احتراماً منقطع النظير، ويحسنون به الظن، ويعتبرونه أبا روحيا لهم، وقدوة مثلى يترسمون خطاها، ويسيرون على هداها، وتردد ألسنتهم وسلوكهم قول القائل:

أبو الإفادة مقدم على أبي الولاة كما قد نقلا

وأسرار هذه العلاقة الطيبة المتميزة كثيرة، وبركاتها عظيمة، وكثير من التلاميذ، يفتح الله بسببها بصائرهم، وينور سرائرهم، كما قيل:

بقدر ما تظن في المعلم يكون حظك لدى التعلم

ومع كامل الأسف، انعدمت هذه العلاقة الطيبة - أو كادت - بين المعلمين والمتعلمين في التعليم العصري، وحضورها ضروري، ولا يمكن الاستغناء عنها، لأنها مفتاح خير كثير للمتعلمين والمعلمين على السواء، والتعليم الذي لا يربط بين طرفي العملية التعليمية والتربوية برباط المحبة المتبادلة تعليم فاشل وضرره قد يكون أكثر من نفعه.

11- خدمة التلاميذ لآبائهم: في بعض المناطق السوسية يسمح المشرفون على المدارس القرآنية والمدارس العلمية، لبعض التلاميذ بمساعدة آبائهم في أشغال الحرث والحصاد ويأذنون لهم بالتغيب عن المدرسة لذلك الغرض.

وهذا العمل الموازي يخلق به الشيوخ توازنا بين اشتغال التلميذ بحفظ القرآن وكسب المعارف وبين مساعدة أبويه عندما تشتد حاجتهما إلى مساعدته، كما يخلقون به انسجاما بين مطالب التلميذ الروحية ومطالبه المادية، لكي لا يطغى جانب على جانب، ولكي لا ينسيه إقباله على أمر هام، أمورا هامة أخرى.

12- **الآذان والإقامة:** يسند المشرف على الكتاب القرآني، في أغلب المناطق السوسية، للتلاميذ مهمة الآذان والإقامة، فيقومون بها بالتناوب، والمقصود من ذلك أن يتدربوا على الآذان والإقامة، وأن يتدربوا كذلك على ضبط أوقات الصلوات، حتى إذا ما أسندت إلى بعضهم وظيفة الإمامة في المستقبل، وجدوا أنفسهم مهئين للقيام بها دون حرج أو وجل.

13- **المشاركة المؤقتة:** عندما يتقدم التلميذ في السن، ويسمح له رصيده المعرفي بالمشاركة، وتكون عائلته فقيرة لا تستطيع أن توفر له ما يكمل به دراسته، يسمح له شيخه بالمشاركة المؤقتة في رمضان، فيبحث عن مدشر مناسب له يقضي فيه رمضان، يصلي بالناس الصلوات الخمس والتراويح. ويصلي بهم عيد الفطر مقابل أجر يساعد به عائلته، ويكمل به دراسته.

وهكذا نجد بعض المدارس القرآنية، وبعض المدارس العلمية، تخلو -أوتكاد- في رمضان من تلاميذها -خاصة النجباء والمحتاجين- بسبب هذه المشاركة المؤقتة التي يستفيد منها التلميذ ماديا ومعنويا.

14- **قراءة السلك:** من مظاهر حب المغاربة للقرآن الكريم، واحترامهم لحملته أنهم يدعون حملة القرآن -تلامذة وأئمة- إلى منازلهم، في مناسبات شتى، لختم القرآن الكريم المعروف عندهم "بإخراج السلكة"، فيطعمونهم ويبالغون في إكرامهم، رغبة في أجر تلاوة القرآن الكريم، واغتناما لأدعية حملته التي لا يشك المغاربة في فتح الله أبواب الإجابة لها.

وهذه السلك تكثر -فيما مضى- في شهر رمضان، وتقل نسبيا في غيره، وتكون أيضا في مناسبات عارضة كالزواج والولادة والوفاة، ويفرح بها التلاميذ وحملة القرآن كلهم فرحا عظيما، وينتظرونها بفارغ الصبر.

وفي بعض الجهات المغربية، يدعى "للسلكة" جميع تلاميذ الكتاب ومعلمهم وإن كثر عددهم بينما لا يدعى لها في مناطق أخرى إلا عدد محدود كثيرا ما يحصر بين ستة واثني عشر. وفي هذه الحالة يخضع ذهاب التلاميذ إليها لنظام القرعة أو التناوب.

هذه بعض الأنشطة الموازية التي يمارسها تلاميذ بعض الكتاتيب القرآنية، في الجهة الجنوبية من المغرب، إلى عهد قريب، اعتمدت في جردها ووصفها على التجربة والمشاهدة، وقد تكون في جهات مغربية أخرى، أنشطة موازية غير ما ذكرت.

ودورها في بلورة شخصية المتعلم، وترسيخ هويته، وتهيئته لخوض غمار الحياة، واقتحام عقبتها بشجاعة وتفأؤل، دور كبير.

ومن واجبا الحفاظ عليها، وتطويرها لتلائم روح العصر، وتخدم التنمية الشاملة التي دعا إليها وهندسها بحكمة وتبصر وبعد نظر، أمير المؤمنين، حامي حمى الملة، وضامن وحدة الأمة، مولانا محمد السادس، أعز الله أمره، وأدام نصره.